

مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقَ



تراجم الأعيان

من أبناء الزمان

تأليف

الحسن بن محمد البوريني

١٦١٥ / ١٠٢٤

الجزء الأول

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٩٥٩

مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقِ



تراجم الأعيان

من أبناء الزمان

تأليف

أحسن بن محمد البوريني

١٦١٥ / ١٠٢٤

الجزء الأول

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٩٥٩

المقدمة

تمهيد

مصادر ترجمة البوريني

هذه هي المصادر التي تفيد في الترجمة للبوريني ورجعنا اليها .

١ - مصادر كتبها البوريني نفسه

١ - « تراجم الأعيان من أبناء الزمان »

وهو الذي نشره أول نشرة . تحدث فيه كثيراً عن نفسه وشيوخه ومعاصريه وعصره .

٢ - « منتخبات البوريني »

كتاش مهم كان البوريني يسجل فيه ما ينتقيه أثناء مطالعته من كتب شتى ، وما كان يقع له من الحوادث اليومية ، وما كان ينظم من الشعر ، وما كان يرد اليه من رسائل ...

٣ - « ديوان شعره »

أحسن مصدر لدراسة البوريني الأديب . وهو يوضح نواحي كثيرة من سيرته ، وصلاته مع معاصريه (١) .

٢ - مصادر ألفت في عصر البوريني

١ - الغزالي ، النجم (- ١٠٦١ هـ) ، في « لطف السمر وقطف

السمر في تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر » .
مخطوط .

(١) انظر مخطوطات هذه التوالبف ، في كلامنا على ثقافة البوريني ، نحت .

- ٢ - الحفاجي ، محمود (- ١٠٦٩ هـ) ، في « ربحانة الألبتا
وزهرة الحياة الدنيا » مطبوع
- ٣ - البديعي ، يوسف (- ١٠٧٣ هـ) ، في « ذكرى حبيب »
نقل منه المحبتي في خلاصة الأثر عند الترجمة للبوريني .
- ٣ - مصادر ودراسات كتبت بعد عصر البوريني .
- ١ - المحبتي ، محمد الأمين (- ١١١١ هـ) ، في « خلاصة الأثر
في تراجم أهل القرن الحادي عشر » مطبوع .
- ٢ - الأنصاري الشرواني ، احمد بن محمد (- ١٢٥٣ هـ) ، في
« حديقة الأفراح لإزالة الأتراح » مطبوع .
- ٣ - كرد علي ، محمد (- ١٩٥٣ م) في كلامه على تراجم الأعيان
بمجلة المجمع العلمي العربي .
- ٤ - كحالة ، عمر ، في « معجم المؤلفين » - مطبوع .
- ٥ - المنجد ، صلاح الدين ، في « المؤرخون الدمشقيون في
العهد العثماني » .
- محاضرات أُلقيت ، عام ١٩٥٨ ، على طلبة قسم التاريخ بمعهد
الدراسات العربية العليا . جامعة الدول العربية .
- ٦ - الزركلي ، خير الدين . في « الأعلام » مطبوع .
- ٤ - فهرس الكتب والمخطوطات
يرجع الى :
- « كشف الظنون » لحاجي خليفة
و « إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون » لاسماعيل باشا
البغدادي .
- و « هدية العارفين » له أيضاً .

و « اكتفاء الفروع بما هو مطبوع » لادوار فاندريك
و « فهرست الخديوية »
و « فهرست دار الكتب المصرية »
و « الكشف عن مخطوطات خزائن الأوقاف » لأسعد طلس
و « كوبريلي زاده محمد باشا كتبخانه »
و « فهرس مخطوطات برلين »
و « فهرس مخطوطات فينا »
و « فهرس مخطوطات غوطا »
فهذه كلها ورد فيها أسماء تواليف البوريني ، المطبوعة منها والمخطوطة .

٥ - مصادر غربية

Brockelmann, GAL, II, 374 — S 2, 401 (1942)
» , al Bur̄ini (dans Encycl. de l'Islam)

٦ - المجلات العلمية

مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الثالث ، ١٩٢٣)
مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الرابع ، ١٩٥٨)

ترجمة جديرة للبوريني

ولد الحسن بن محمد البوريني في صفورية سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م ، من أم صفورية وأب بوريني . وصفورية وبورين قريتان في فلسطين^(١) . ففضى أيام طفولته في قرية أمه . فلما بلغ سن التمييز أخذه أبوه إلى زاوية القرية ليتعلم بها القرآن . وكانت أمرة عبد الهادي ذات شأن في القرية ، قد أقامت فيها زاوية لنشر العلم ودراسة القرآن . فقرأ الصبي القرآن على شيخها الشيخ نبهان من المبتدأ إلى الختام^(٢) .

فلما بلغ العاشرة أو أتمها سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م تحوّل به أبوه محمد إلى دمشق^(٣) . وكانت دمشق مقصداً لأهل فلسطين يلجأون إليها كلّمها ضاق بهم العيش أو نكبهم الزمان . وآوتهم عندما هاجروا إليها فارتين بدينهم من الصليبيين في أوائل القرن السادس الهجري^(٤) ، وآوتهم عندما أخرجوا من ديارهم وغصب اليهود بلادهم عام ١٩٤٨ م . وترددوا إليها ما بين النكبتين ، نكبة الصليبيين ونكبة الاسرائيليين ، يلتمسون فيها العيش أو يطلبون العلم . فليس عجباً أن يرحل محمد البوريني ، أبو الحسن ، إليها ، ومعه زوجه وابنه ، فينزلون في محلة ميدان الحصا ،

(١) تقع صفورية على بضعة أميال إلى الشمال من مدينة الناصرة . وتقع بورين على بضعة كيلومترات جنوب نابلس ، غربي الطريق الذاهب إلى القدس . (انظر خريطة فلسطين وجنوب سورية . اشرة ايليب - ستانفورد) .

(٢) تراجم الأعيان ص ١٢٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٤

(٤) انظر أخبار هذه الهجرة في الفلاذ الجوهري لابن طولون

خارج دمشق من الجنوب ، ويعمل الأب منجداً ثم عطّاراً ، ويدفع
ابنه ليقراً القرآن في مسجد المحلة (١) .

وقراً الحسن القرآن في جامع المحلة - وهو جامع منجك - على
الشيخ قريجة (٢) ، وهو شيخ لاندري الكثير عنه . كما قرأ الحساب
على محمد التنوري (٣) . ثم ما لبث أن انتقل من جنوب دمشق إلى شمالها :
من ميدان الحصا إلى الصالحية ، ومن جامع منجك إلى المدرسة العمرية .
وكانت الصالحية مركزاً للمقادة . وكانت المدرسة العمرية نفسها أنشأها
فلسطيني من بني قدامة . فاتخذ الحسن بها حجرة (٤) ، وأخذ يقرأ على
الشيخ ابراهيم بن الأحذب ، - نزيل دمشق ، وشيخ حلب في الفرائض
والحساب - « النزهة » في الحساب ، وبعض مقدمات النحو والفرائض (٥) .
ثم قرأ ، بعد سنة ٩٧٥ هـ ، على إمامها الشيخ أبي بكر الذباح
« الأذكار » للنووي (٦) .

ويبدو أن أباه كان يدفعه إلى القرآن . فحمله ذات يوم إلى شيخ
المقرنين بدمشق ، وإمام الجامع الأموي ، الشيخ أحمد الطيبي ، ليقراً
عليه . ويحدثنا البوريني عن اللقاء الأول مع الشيخ فيقول :

(١) ذكر الفزّمي في لطف السمر أنه نزل في محلة ميدان الحصا عند مجيئه ،
وأرسل ابنه يقرأ القرآن في مسجدتها . لكنّ المحبّي - المتوفى بعد قرابة
قرن من وفاة البوريني - يذكر أن البوريني نزل في ميدان الحصا سنة ٨٩٠
- أي في السابعة عشرة من عمره - بعد عودته من القدس . ونعتقد أن
هذا خطأ من المحي . فالفزّمي كان ماصراً للبوريني ولعله أدري بأموره .

(٢) الفزّمي ، لطف السمر

(٣) تراجم الأعيان (ترجمة محمد التنوري)

(٤) المحي ، خلاصة الأثر ٥١/٢

(٥) تراجم الأعيان ، ص ٣٠٤ . ويذكر البوريني أنه لازم الشيخ الأحذب

ما يزيد على خمس سنين

(٦) المصدر السابق ص ٢٧٩

« . . . فنظر إليّ (الشيخ) نظر الشفقة . وقال لأبي : احرص على ولدك هذا فإنه سيصير من أهل العلم . . . فقبل والدي يده . ثم إنه سأل والدي عن بلدته . فقال له : أنا من قرية بورين ، وهي ملاصقة لأرض نابلس . فقال الشيخ لأبي : أنت حينئذٍ من بلادنا . فقال له والدي : أنتم من أيّ قرية ؟ فقال له : نحن من الفندقوميّة (١) . وتعارفا . وأمرني بملازمته . فشرعتُ في القراءة عليه من أوّل القرآن العظيم الى آخر سورة النساء تجويداً لأبي عمرو . وشرعتُ مع ذلك في قراءة « المنهاج » الى باب « صلاة المسافر » (٢) .

ويذكر المحبّي أنّه حصل بدمشق سنة ٩٧٥ هـ قحط ، فانتقل البوريني مع أبيه الى بيت المقدس فبقى فيه الى حدود سنة تسع وسبعين (٣) . ولا يذكر ابن جمعة شيئاً عن هذا القحط الذي ذكره المحبّي ، على شدة عنايته بذكر أشباه هذه الأمور (٤) . ثم إنّ البوريني نفسه يذكر في تراجمه أشخاصاً اجتمع بهم بدمشق خلال المدة التي ذكر المحبّي أنه كان فيها في القدس . فقد اجتمع بالعيشاوي سنة سبع وسبعين (٥) . كل هذا يدفعنا الى الشك بالتاريخ الذي ذكره المحبّي . والمؤكد أنه سافر الى القدس . فهو يذكر أن سفره كان مع والده للزيارة . وأنه عاد منها سنة ٩٨٠ هـ (٦) .

-
- (١) تقع في الشمال الغربي من نابلس ، في منتصف الطريق بينها وبين جنين .
(٢) تراجم الأعيان ص ١٠ - ١١
(٣) المحي ، خلاصة الأثر ٥١ / ٢
(٤) النظر ولاة دمشق في العهد العثماني ص ١٦
(٥) تراجم الأعيان ، ص ٤٦
(٦) المصدر السابق ص ٤٣ يقول : « ولما قدمتُ مع أبي من زيارة بيت المقدس في سنة ثمانين وتسع مئة »

وسكن بعد عودته بالخانقاه السُّمَيْسَاطِيَّة وأخذ يتصل بكبار الشيوخ
اتصل بالطيبي الصغير أحمد بن أحمد وكان على قوله « أفقه من أبيه » .
وكان فقيهاً محدثاً مفسراً مقرئاً عروضياً حاسباً فرضياً . يقول البوريني :
« وأكثر ما قرأتُ على هذا الصغير (١) . . . قرأتُ عليه الارشاد للمولى
اسماعيل . وكان يهتم بمطالعة ، ولازمته سنين عديدة ليلاً ونهاراً .
وأحببني وجذبني اليه . وكان يصحبني في نزهته . . . وكنت أبيت عنده (٢) . . . »
وكذلك اتصل به في دمشق وخطبها العيثاوي . « ولما قدمتُ مع
أبي من زيارة بيت المقدس سنة ٩٨٠ هـ حضرتُ اليه طالباً قراءة الفقه
عليه . فقال لي : اقرأ المنهاج . فقرأناه . وكانت القراءة بالمدرسة الظاهرية (٣) »
واتصل بشيخه العماد الحنفي سنة ٩٨٤ « قرأتُ عليه شرح التلخيص
المختصر ، وشرعتُ في الشرح المطوّل . . . وكان سبب اتصالي به
والقراءة عليه أنه كان يوماً في صحن الجامع الأموي بين العشاءين . فتباحثنا
مع بعض الفضلاء في إعراب شيء من كلام العرب ، واختلفنا في شيء
من اصطلاحات الإعراب . فتباحثنا اليه ، وهو سائر بصحن الجامع
المذكور فيما اختلفنا فيه . . . وطال الكلام معه في تحقيق ذلك . فقال
لي : أين مكانك ؟ فقلت : في الخانقاه السُّمَيْسَاطِيَّة . فقال لي : إن
أردت السكنى عندنا في الناصرية الجوانية كنّا في مساعدتك علماً ومعيشة
وغير ذلك . فأجبتُه الى سؤاله ، وجئتُ اليه في اليوم الثاني الى المدرسة
الناصرية الجوانية ، فأخلى لي حجرة ، وهي الوسطى من الصف الشرقي
وكأسها لي ففرشتها . وشرعتُ أقرأ عليه الشرح المختصر على التلخيص
للمولى السعد التفتازاني . . . ولم أزل أقرأ عليه الكتاب الى أن أتمته . . . »

(١) تراجم الأعيان ص ١٦

(٢) المصدر السابق ص ١٧

(٣) المصدر السابق ص ٤٣ - ٤٤

وكان اقامه في النصف من شعبان سنة أربع وثمانين وتسع مئة بالجامع الأموي . وحضر الحتم طائفة من الأفاضل (١) «

وثمة شيخ كبير اتصل به ايضاً هو اسماعيل النابلسي « قرأت عليه في منزله عند باب الجامع الأموي (الجنوبي) ، شرح جمع الجوامع في الاصول للمحلّي ، وحضرت عنده شرح المفتاح للجرجاني في جامع درويش باشا (٢) » .

مضى البوريني يشدو ألوان العلم ، دائماً على القراءة والتحصيل ، حتى نجده يتصدر سنة ٩٨٨ هـ بقعة للتدريس في الجامع الأموي ، يلي فيها دروساً فقهية وغير فقهية . ويبدو أنه كان موفقاً في دروسه ، يتحدثنا هو عن ذلك فيقول :

« وكنت أدرّس الفقه على مذهب الامام الشافعي عند شبّاك الكامليّة بالحائط الشمالي . فوقف (عبد الرحمن الفرغوري) لحظة يسمع إلقائي . فلما ذهب الى بيته قال لولديته : رأيت اليوم رجلاً يدرّس في الجامع الأموي في فقه الشافعي ، وأظنه قدسياً ، ما رأيت أفصح من لهجته ولا أبلغ من عبارته » (٣) .

وكانت دروسه هذه سبباً لاتصاله بأديب فارسي اسمه حسين الحافظ الشيرازي . حضر دروسه في الأموي سنة ٩٨٨ فاتصل الودّ بينهما « فكان صاحبي وصديقي ، وأنيسي ورفيقي . . . وألفت هذا الرجل الى أن كنت أزوره فأمكنث عنده في حجرته ثلاثة أيّام بلياليها ليلاً ونهاراً ، على المذاكرة والمحاضرة » . ولم يدع البوريني هذه الصداقة تمضي دون

(١) المصدر السابق (ترجمة المهاد الحنفي)

(٢) تراجم الأعيان (ترجمة اسماعيل النابلسي)

(٣) تراجم الأعيان (ترجمة عبد الرحمن الفرغوري)

فائدة « فتعلمت منه لسان الفارسية ، وكنت اعرفه قبل صحبتة في الجملة ، لكنني ما استكملت تعلمه إلا منه ^(١) . »

ولما بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، سنة ٩٩٢ تزوج . وكان زواجه ثمرة اتصاله بشيخه العيثاوي . يحدثنا عن ذلك فيقول :

« . . اطلع على اني طالب للإحصان ، فقال لي : عندي حصان وهي أخت أم أولادي ، وهما بنتا الشيخ محمود الصناديقي . فإن رمت أن تكون عديلي كما أنك خليي فاعزم على ذلك . فأجبتُه الى سؤاله ، وعقد نكاحي على أخت زوجته . وكان ذلك من فضله وفي بيته . وبنيتُ بها في سنة اثنتين وتسعين وتسع مئة . وجعل لي عرساً عظيماً ، وكان بي في الكلفة رحيماً ، لا يكلفني سوى الطاقة ولا يجعل في مطلوب صعب عليّ عاقبة ، بل كان يزن من كيسه ، مظهرًا البشاشة لا التعيسة . وكان العرس في بيته القديم في حكر كمال الدين ، ثم سكنت في أهلي بمحلة النحاسين ^(٢) . »

ويحدثنا الغزوي أنه حملت إليه هدايا كثيرة في عرسه هذا . وأن الخواجبا فخر الدين بن زريق اتجر له بما حمل إليه حتى نما . وكان ابن زريق صديقاً للبوريني « يقوم بأكثر مصرفه قبل أن يلي الوظائف ^(٣) » وكان زواجه خيراً وبركة . اذ ما لبثت الوظائف أن توالى عليه . توفي أواخر سنة ٩٩٣ شيخه اسماعيل النابلسي . وكان يدرس في الدرويشية فطلبها البوريني من قاضي القضاة مصطفى افندي ابن بستان « فوجهها الي مع كثرة الطالبين لها . » ^(٤) وأقرأ شرح منهاج النووي للمحقق المحلي .

(١) المصدر السابق (ترجمة حسين الحافظ الشيرازي)

(٢) تراجم الأعيان ، ص ٤٤

(٣) لطف السمر

(٤) تراجم الأعيان (ترجمة اسماعيل النابلسي) ، وانظر لطف السمر

وفي سنة ٩٩٤ تولى خطابة جامع جرّاح . « فكان يخطب من
انشائه »^(١) وتوفي شيخه الطيبي الصغير فولي تدريس العادلية الصغرى .
ثم وجهت اليه الناصرية الجوانية ، فنزل عن العادلية^(٢) . وبدأ نجمه
يلمع ، وصيته يذيع ، فدرّس في الفارسيّة ، والكلاسيّة ، ووعظ
بالسليمانية^(٣) ، وفتحت له الشاميّة البرّانية صدرها ليدرّس بها « وأخذتها
بشرط واقفها لأنها لأعلم علماء الشافعية^(٤) » .

وما كاد القرن الحادي عشر يهلّ حتى كان البوريني ملء الأسماع .
أقبل عليه الحكّام ، وقدمه القضاة والأكابر والأمرء ، لفضله ولسانه ،
وهيئته وطيلسانه . وتقدّم في التدريس والمناصب والمجالس . لا يكون
في مجلس « إلاّ كان بلبه^(٥) » . ورزق القبول عند الخاصة والعامة .
وخالط أهل الأدب وخالطوه ، ولجأ اليه الناس يتوسطونه لدى القضاة
والحكّام ، وعرض عليه العلماء والأدباء تواليهم وأشعارهم يسألونه رأيه
فيها . فكان يتوسّط لمن لجأ اليه ، ويقرّظ التواليف والرسائل والأشعار
إذا عرضت عليه . وصار مفتياً للشافعية . وأوتي في الوعظ أكبر نصيب
فبرع فيه وأجاد^(٦) . كلّ هذا التقدّم والجاه مع السعة والثراء . بعد
الفقر والاملاق . حتى إنّ أباه انقطع عن عمله ، وأخذ يحضر دروس
ابنه . وكان الحسن بأبيه برّاً^(٧) . يعظّمه أنثى كان ويقبل يده^(٨) .

(١) لطف السمر

(٢) لطف السمر

(٣) المحي ٢ / ٥٢

(٤) تراجم الأعيان (ترجمة عبد الطّيف المحي)

(٥) الغزي ، لطف السمر

(٦) المحي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥٣ نهلاً عن البديعي

(٧) الغزي ، لطف السمر

(٨) المحي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥٢

واتيح للبوريني أن يرحل ثلاث رحلات ، الأولى في سنة ١٠٠٨ هـ الى طرابلس . فرحّب به علماءها ونزل عند أحد أمرائها (١) .

والثانية الى حلب سنة ١٠١٧ هـ . وجّهه اليها أهل دمشق لإخبار الوزير مراد باشا بما صدر من علي بك ابن جانبلاذ وما وقع بينه وبين العسكر بدمشق من خلاف . فنزل في المدرسة البهرامية ولقي كثيرين من علماء حلب (٢) .

وأثّف بعد عودته من طرابلس الرحلة الطرابلسية ، وبعد عودته من حلب الرحلة الحلبية .

أمّا الرحلة الثالثة فكانت الى الحجاز سنة ١٠٢٠ هـ . فقد بلغ من الشأن أن وُلّي - وهو شافعي - قضاء الركب الى الحجّ في تلك السنة (٣) . وكان لا يتولّى ذلك إلا حنفي ، إذ كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة الرسمي .

وكان ازدياد فضله ، وعلوّ شأنه ، وزيوع صيته ، وتقدمه ، من أسباب كثرة حسّاده . فحسده سخفاء العلماء والأعيان . والحسد خلق ليكون بين هؤلاء . طعنوا عليه بالاستجداء ، وإدمان الراح لمخالطته الأمراء ، وبذاءة اللسان ، ونسبوه الى النفاق ونسيان مَنْ أحسن اليه . وربما أوقعوه في مكروهات من القول والفعل ، وازدروا به ، وسعوا في توهينه ، على أنه كان كثير التيقظ لمكائدهم . وما ذلك كله إلا لأنهم ما أدركوا ما بلغه من ثراء وغنى ، ولا استطاعوا غشيان مجالس الأمراء والكبار ، ولا أوتوا سعة ثقافته ، وحلاوة حديثه ، وعذوبة

(١) تراجم الأعيان (ترجمة يوسف بن سيف)

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤

(٣) تراجم الأعيان ص ٢٣٣ ، ولطف السمر

منطقه ، وتوقد ذكائه ، ولا عرفوا كيف تكتسب النفوس وتستدرج الصلوات^(١) . وقد اعترف النجم الغزوي بذلك فقال : « وكان أكثر مَنْ يؤذيه يؤذيه حسداً لفضيلته » .

بقي البوريني متألق النجم حتى توفي سنة ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م وقد تخطى الستين من عمره . فشيع تشييعاً حافلاً . صلى عليه شيخ الاسلام أحمد العياشي ، وُدفن بمقبرة الفراديس . ورثاه كثيرون ، وكان أحسنهم رثاءً تلميذه مفتي الشام عبد الرحمن العمادي^(٢) .

(١) المحي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥٥ . وقد ذكر من مكائد علماء الشام له أن بعض الوزراء أقبل على البوريني واتخذوه نديم مجلسه ، وكان يُبالغ في توقيره وتعظيمه . فقصدا توهينه عنده . فاجتمعوا يوماً في دار الحكومة والبوريني معهم ، فأرسلوا الى والده يتطلبوه الى الوزير بناء على أن الوزير استدعاه . وكان رث الهيئة في زي عوام السوفة . فلم يشعر البوريني إلا وأبوه هبيل . فنهض من مقعده مُسرعاً واستقبله وقبل يده . ثم جاء الى الوزير وقال له : حلت عليكم البركة بقدوم والدي ، فإنه بركة هذا الوقت ، العوام القوام ، الكذا ، الكذا . فنهض الوزير وقبل يده ، وأجلسه . وبالحق في تعظيمه . فانقلب أعيان أولئك ولم يعودوا الى مثلها . اهـ .

(٢) المحي ، خلاصة الأثر ٢ / ٦٠ ، وقد ساق بعض رثائه . وكذلك ذكر الغزوي ما قيل فيه من الرثاء . وقد تخاصم علماء عصره بعد وفاته على وظائفه خصاماً شديداً . وأصاب بعضهم الأذى . ونظم النجم الغزوي في هذه الواقعة نصيدة عينية تدل على أخلاق الطاء في ذلك العصر (النظر : لطف السمر ، والمحى ٢ / ٦٢) .

ثقافة البوريني

كان القرن الحادي عشر عصر نهضة علمية في دمشق ، هيأها رجال عاشوا في أواخر القرن العاشر . فأتيح للبوريني أن يرافق هذه النهضة العلمية وأن يكون من رجالها ، ويأخذ عن بناتها كالشيخوخ من آل الطيبي والغزتي ، والنابلسي ، والعيثاوي ، والمنقار ، والعماد وغيرهم . وكان كل منهم إماماً في فنّه . فأفاد منهم جميعاً . أتقن القراءات ، والفقه الشافعي ، والأصول ، والفرائض . وبرع في العربية وآلاتها ، وقرأ كتب التاريخ والادب ودواوين الشعراء ، ونظم ونثر . ثم تعلم الفارسية حتى صار يتكلم بها - على قول النجم الغزتي - كأنه أعجمي . فأتاح له ذلك أن يطلع على الأدب الفارسي ويقتبس من معانيه في شعره العربي . ثم أضاف الى ذلك معرفة اللغة التركية . وكانت يومئذ لغة الدولة والوزراء والأمراء . وقلّ أن نجد عالماً فقيهاً - حتى في عهود الازدهار - يتقن اللغات الثلاث : العربية والفارسية والتركية ، معاً ، وأن يحيط بالأدب والشعر والتاريخ .

كان البوريني - كما يبدو من تصفّح آثاره - كثير القراءة والمطالعة . وكان يسجّل ما يروقه من قراءاته في كنفاش اتخذه لذلك . ولم يفقد هذا الكنفاش . وهو يدلنا على الكتب التي كان يقرأها والشعراء والغويين الذي كان يلتقط منهم . ففي الكنفاش نقول من تاريخ الذهبي ، وتاريخ بغداد ، وعيون التواريخ لابن شاكر ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ، وتاريخ حلب لابن العديم . وفيه ذكر لحياة الحيوان للدميري ، وكتاب الفلاحة لابن وحشية ، والمفتاح للسكثاكي .

وفيه منتخبات شعرية لأكابر الشعراء المعروفين من مثل : المتنبي ، والشريف الرضي ، وأبي فراس ، وعلي بن الجهم ، وديك الجن ، وأبي تمام ، وابن سكرة الهاشمي ، وابن الخياط ، وابن سناء الملك ، ومحمد بن أمية ، والعرجي ، وابن خفاجة ، والبهاء زهير ، والسري الموصلي ، والمعتمد ابن عباد ، وكشاجم ، وابن المستوفي الأربلي ، ومسلم بن الوليد ، وابن حمديس الصقلتي ، والعبّاس بن الأحنف ، وأبي بكر بن الجنّان المريسي ، ومهيار ، وابن هانئ الأندلسي ، وابن عنيّن ، والشاب الظريف ، وابن منير الطرابلسي ، وأبي العتاهية ، ولييد ، والأرتجاني ، وابن دريد . وكذلك نجد فيه نقولاً من العقد الفريد ، ومقامات الزمخشري ، ورسائل القاضي الفاضل ، وخريدة العماد .

فالذي يقرأ هذه التوالمف وينتقي منها ، ويصاحب هؤلاء الشعراء ويذوق شعرهم ، لا بد أن يؤتي ثقافة واسعة رفيعة ناعمة . وقد ذكر المحبي أن البوريني حفظ من الشعر والآثار والأخبار والأنساب ... ما لم يرق من يحفظ مثله ؛ وأنه حفظ علوماً أخرى كاللغة والنحو والسير والمغازي ، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً . فأتاحت له هذه الثقافة الملوّنة أن يتصدّر المجالس فيكون بلبها . وجعلته طلاقة اللسان ، وفصاحة العبارة ، وجودة الحفظ ، وعذوبة المفاكة ، وحسن الحديث أميراً للمجالس ، مجالس العلماء والأمراء والأدباء والعوام . ولا شك أن ثقافته الأدبية والتاريخية أبعدهاه عن جمود الفقهاء وعن سماجات بعضهم . وجعله ذكاًؤه الحاد يعرف أهواء الناس ، وضعف نفوسهم ، فعامل بعضهم بطول اللسان ، وعامل الآخرين بالمديح والإطراء . فيخافه أولئك ، وأحبّه هؤلاء . والنفوس البشرية تخاف السب وتعشق المديح . وقد كسب البوريني بلسانه الأصدقاء والأعداء ، كما كسب الصلات والأموال . على أن مديحه

الناس كان أكثر بكثير من ذمته لهم . حتى صار مدحه عند حاسديه موضع تندر وسخرية ، وحتى نُسب الى النفاق للكبار .

ولعلَّ إقامته بدمشق ساعدته على استئثار ثقافته . فهو فلسطيني الأصل . ودمشق معروفة منذ القديم بحب الغريب عنها . شهد بذلك ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما . ولم فتحت صدرها للغرباء عنها ، ولم لقي هؤلاء فيها من التكريم والتقديم ما لم يلقه أبناؤها .

وقد صبغت تلك الثقافة الواسعة صاحبنا بصبغة العالم الحق . يذكر الغزالي أنَّ البوريني كان « منصفاً في البحث ، معترفاً لأهل الفضيلة ، ليس في مباحثه غيظ ولا حقد ولا تغليظ ، بل مباحثته نظيفة لا تخلو من فائدة . » وهذه صفات المثقف العالم حقاً . وبرغم سعة ثقافته كان « لا يبلُ المذاكرة مع العلماء » ، وبرغم ذبوع صيته « كان يرجع الى شيخه » في كثير من المسائل .



ماذا كانت الثمار العلمية لهذه الثقافة ؟ لقد أخذ كثيراً من الكتب ومن الشيوخ فماذا أعطى ؟

١ - لقد أُتيح له أن يُقرىء كثيراً من الطلاب أصولاً هامة . فنحن نرى من خلال تراجم الأعيان أنه أقرأ « مقامات الحريري » و « الشرح المختصر للفتازاني على متن التلخيص » و « الأجرومية » في النحو ، و « شرح ابن عقيل » على ألفية ابن مالك ، و « شرح الشذور » لابن هشام ، و « متن العزي » في التصريف و « جمع الجوامع » في الأصول للمحلي ، و « شرح منهاج النووي » في الفقه ، و « شرح المواقف » للجرجاني ،

و « شرح الحسام الكاتي » للايساغوجي ، و « الغاية القصوى » في الفقه للبيضاوي و « الأربعين النووية » ، وغير ذلك .

وهذه الكتب التي أقرأها تدلنا على أن البوريني كان يُقصد للأدب واللغة وعلومها ، وأنه كان يُقريء ذلك أكثر من إقرائه سائر العلوم من فقه وأصول ومنطق ... وهذا ما يؤكّد قول الغزّي من أن بضاعة البوريني في الفقه كانت مزجاة وأن براعته كانت في العربية وغيرها من المعقولات .

٢- وأتيح له أن يؤلّف في التفسير والأدب والتاريخ تأليف مختلفة .

أما في التفسير فقد ألّف حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي . ولم أهد إلى وجود أيّ نسخة منها .

أمّا في الأدب فقد ترك لنا

أ- شرحاً لديوان ابن الفارض سماه « البحر الفاضل في شرح ديوان ابن الفارض » . وقد طبع مرّات ، ومنه نسخ مخطوطة كثيرة (١) .

ب - ديوان شعر . ذكر المحبّي انه « سائر متداول بين الناس » وما يزال مخطوطاً (٢) .

ج - رسائل ادبيّة مختلفة . منها رسالة « مزج الصواب بالمجنون في حلّ سائسلة المجنون » وهي شرح قصيدة القرم حشدية لحسين الشامي . ولا تزال مخطوطة (٣) .

(١) انظر طبعا في معجم المطبوعات ٦٠٢/١ ، ومخطوطاته في بروكلمن . واضف اليها ثلاث نسخ مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد ذكرها أسعد طلس في الكشّاف ص ١٦١ .

(٢) منه نسخة في برلين برقم 1079 ؛ ونسخة ثانية في كوبريلي برقم 1257 (انظر كوبريلي زاده محمد باشا كتبخانه ص ٨١) .

(٣) منها نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٣٥ ادب .

ومن رسائله أيضاً رسالة أرسلها الى أسعد بن معين الدين التبريزي .
ومنها نسخة مخطوطة في غوطا (١) .
ورسالة في الاعتذار عن معاقرة الراح ذكرها البديعي ونقلها المحبي عنه (٢) .
هذا ما عرفناه من رسائله ، وهي كثيرة على قول المحبي .
ج - منتخبات شعرية ونثرية . في كنداش تقدم الكلام عليه (٣) .
وليس هنا مجال التحدث عن البوريني الأديب بأكثر من هذا .
أما في التاريخ فقد ترك لنا تاريخه المسمى « تراجم الأعيان من ابناء
الزمان » وما يزال مخطوطاً . ونحن نشره اول مرة . ورحلتين الى
طرابلس وحلب وهما مفقودتان .

(١) انظر فهرس مخطوطات غوطا . رقم ٤٤ / ٢٣
(٢) في خلاصة الأثر ٥٣ / ٢ قال البديعي : « وما وثقت عليه من آثاره هذه الرسالة
جواباً عن رسالة أرسلها اليه بعض أحبابه ، موشحة بمتابه ، يذكره تراجم
الكاس في أيام الايناس فأجابه ... »
(٣) محفوظ بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤١٥٩ أدب . ونرجح أنه ترك كنداشات
أخرى لم تصل اليها .

البوريني المؤرخ

وكتابه تراجم الأعيان

كانت ثقافة البوريني التاريخية نتيجة مطالعات خاصة في كتب التاريخ والسير والأنساب . وكان ينتقي من مطالعاته فوائد تاريخية كثيرة سجلها في كتابه الذي وصل إلينا ، أخذها من ابن خلّكان ، وابن العديم ، والخطيب البغدادي ، والذهبي ، وغيرهم .

وقد أثر المؤرخون القدامى في البوريني ، فكانت تواليهم سبب تأليفه « التاريخ » . فهو يحدثنا في مقدمة تراجم الأعيان أنه لما رأى ابن كثير وابن الأثير وابن خلّكان وابن شدّاد وأبي شامة وابن حجر قد ألفوا بعلم الأخبار ، ودوتوا في الكتب مجاسن الأخبار ، بعثه ذلك على تأليف كتاب يجمع فيه من كان موجوداً من الأعيان ، من ابتداء ولادته ، سنة ٩٦٣ هـ إلى قبيل وفاته . فهو اذن مقلد من سبقه من المؤرخين وسالك على آثارهم .

وكان لصاحب الدفاتر السلطانية بدمشق أمين أفندي الدفتري الفضل في حثه على تنفيذ رغبته في التأليف . فبدأ بتدوين كتابه سنة ١٠٠٩ هـ ، أي بعد عودته من رحلته الطرابلسية .

ترجم البوريني لمعاصريه . وقد حدّد لهذه التراجم زمناً . بدأه من سنة ولادته وهي سنة ٩٦٣ هـ وظلّ يضيف إليها إلى سنة وفاته ، وهي

سنة ١٥٢٤^(١) . فالمدّة الزمنية التي ضمت المترجم لهم كانت نحواً من ستين عاماً ، بعضها في القرن العاشر وبعضها في القرن الحادي عشر . فتراجم الأعيان يتم ، من هذه الناحية ، الكواكب السائرة ، ولطف السمر للغزّي ، وخلاصة الأثر للمجبي ، وكتباً أخرى .

أما من ناحية البلاد فلم يقف البوريني عند دمشق ، بل ترجم لرجال من مصر والمغرب ، ومكة واليمن وحضرموت ، وفلسطين وحلب ، وإيران وتبريز واستامبول . فكتابه يشمل رجالاً من العالم الإسلامي كله ، لا دمشق وحدها .

ولم يقصر البوريني تراجمه على طائفة دون أخرى . فتراجم للعلماء والفقهاء والأدباء ، كما ترجم للملوك العثمانيين والمغرب ومكة واليمن ، وتراجم للقضاة والوزراء والأمراء الأتراك الواردين على دمشق . فكتابه يجمع أصنافاً من الناس مختلفة .

ورتب التراجم على حروف المعجم في الأسماء . ونلاحظ أنه أهمل الترتيب في أسماء الآباء . فإن علم المنشأ والوفاء ذكرهما وما شك فيه تركه وأهمله .

وذكر أنه شرط على نفسه أن لا يذكر من أوصاف الناس إلا الوصف الحسن المحمود . وقد خرج عن شرطه هذا في أحيان كثيرة . ولا ندري عدد الرجال الذين ترجم لهم البوريني على الضبط . فعددتهم يختلف باختلاف نسخ المخطوطات التي وصلت إلينا . على أنه بلغ في نسختي الهند والمدينة معاً مئة وأربع عشرة ترجمة .



(١) صحیح ما ذكره السيد رشاد عبد المطلب في مقاله عن تراجم الأعيان (مجلة معهد المخطوطات . المجلد ٤ (١٩٥٨) ص ١٥٣) أن البوريني ترجم لمن عاصره من تاريخ ميلاده في سنة ٩٦٠ هـ الى سنة ١٥٤٠ . فهذا خطأ .

ليست التراجم بالشيء الجديد الذي ابتكره البوريني . فقد سبقه في هذا الفن كثيرون كابن خلدكان الذي بلغ فيه الذروة في التحرير والتنقيح ، وكالذهبي والصفدي وابن حجر والسخاوي وابن طولون الدمشقي . وتبعه كثيرون ايضاً كالغزالي والحلي والمرادي فكيف كانت طريقته في الترجمة ؟ لقد تفرّد البوريني بشيء ما نحسب أن أحداً شاركه فيه ، هو أن شخصيته كانت مركز التراجم كلها . فلقد ترجم على الأغلب لأناس عاصروه . خالطهم وخالطوه ، وكاتبهم وكاتبوه ، وحدثهم وحدثوه . فسجل الأمور التي رآها وسمعها وعاش فيها وخصّ بالعناية منها ما اتصل بشخصه هو . فكان يترجم لهم لكنته في الحقيقة يترجم لنفسه ايضاً . كل ترجمة تنعكس فيها صورتان . وكلاهما كانت حملاته بالترجم له قويّة متينة رأينا الصورتين واضحتين . لذلك كانت تراجمه ، في رأينا ، بملوّة بالحياة ، قريبة الى النفس ، رغم السجع الملّ أحياناً ، أكسبتهما (أنا) حرارة ودفئاً . علي حين نجد تراجم الماضين من المؤرخين جافة أحياناً ، باردة ثقيلة الظلّ أحياناً أخرى . نقرأها بمشقة ولا نحسّ أيّ اتصال بيننا وبينها . ويكاد المرء يخيل اليه ، في أحيان كثيرة ، أنه يقرأ في تراجم البوريني مذكرات شخصية عن الناس والحوادث .

فقد كان البوريني لا يكتب الترجمة مرة واحدة ، بل مرّات ، وعلى فترات متباعدة . ومن هنا جاء تشبيهنا إيّاها بالمذكرات . لقد بدأها في سنة ١٠٠٩ كما ذكرنا . وكان يضيف الى بعض تراجمها ما يستجدّ من الحوادث أو الأخبار المتصلة بصاحبها ، كما كان يضيف تراجم جديدة لمن كان يعرفه أو يتصل به . ونجد كثيراً من تاريخ الحوادث المثبتة ، أو الأخبار المضافة مثبتاً .

ويبدو أنه كان يكتب بعض تراجمه من رأس القلم كما يقولون وعفو
الخاطر ، لذلك لم يلتزم السجع فيها . ثم عاد فنقحها ، فحذف وأضاف
وسجع . وتقدم لنا مخطوطة الهند - التي سنصفها - النماذج الأولى للتراجم
قبل الحذف والتنقيح .

وتتفاوت التراجم في سعتها وضيقها ، حسب حلة المترجم له بالمؤلف
وشأنه . فنجد تراجم زادت على عشر صفحات . وأخرى لا تكاد تتم
صفحة واحدة .



صوّر البوريني في تراجمه رجال عصره ، كما صوّر عصره أيضا . فهي
تراجم غنيّة سجلها شاهد عيان . وقد ساعده على تصوير الرجال كثرة
مخالطته إياهم وتحديث اليهم ، وغشيانه المجالس العامة والخاصة . وساعده
على تصوير حوادث عصره أنه كان يخالط الأمراء والولاة والقضاة ، فيسمع
منهم ما يحدث ويجري . وإن مرده الحوادث الكبرى التي وقعت بين
طائفة السكبانية وولاية السلطنة ، وتصويره حالة لبنان وأمرائه الإقطاعيين
لمن أهم ما كُتِب في هذا الموضوع . ولقد سبق البوريني ، مؤرخ مصر
الجبوتي ، بقرنين الى الاهتمام بالحوادث المعاصرة له وسردها سرداً تاريخياً
حيّاً . ويصوّر بعض المؤرخين المصريين المعاصرين الجبوتي على أنه المؤرخ
الوحيد الذي سجل حوادث أيامه في الشرق العربي في القرون الأخيرة .
ولعل سبب ذلك عدم اطلاعهم على آثار مؤرخي دمشق في العهد العثماني .
وكذلك فاق البوريني صاحبنا الجبوتي بثقافته الواسعة واطلاعه على مصادر
التاريخ ، واستقائه الأخبار من مراجعها . فبينما نجد البوريني يصاحب
آثار المؤرخين القدامى وينتفع بها ، يعترف الجبوتي أنه ما أُتيح له أن

يطلع على أيّ تاريخ من تواريخ الماضين ويقول عنها « هذه صارت أسماء من غير مسميات » .

وقد قدّم لنا البوريني بوصفه معاصريه ، ووصفه حوادث عصره ، مواد كثيرة لدراسة الحياة العلمية والاجتماعية والاخلاقية بدمشق في أيامه . وسيبقى تراجم الأعيان من أهم المصادر لدراسة دمشق في القرن العاشر والقرن الحادي عشر ، في نواحيها المختلفة . وقد استمد المحبّي منه كثيراً في تراجمه لأهل القرن الحادي عشر .

مخطوطات تراجم الأعيان

- النسخ المخطوطة التي عرفناها من تراجم الأعيان هي :
- ١ - مخطوطة عارف حكمة بالمدينة المنورة
 - ٢ - مخطوطة الجمعية الآسيوية بكلكتا - الهند
 - ٣ - مخطوطة برلين
 - ٤ - مخطوطة فينا
 - ٥ - مخطوطة دار الكتب المصرية

مخطوطة عارف حكمة

أما المخطوطة الأولى فمحافظة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة برقم ١٨٨ تاريخ . ولدى معهد المخطوطات العربية فيلم عنها اعتمادنا عليه في نشرتنا . تقع في ٣٠٠ ورقة تقريباً . كتبت سنة ١٠٧٨ هـ بيد فضل الله بن محب الله بن محب الدين الشامي .

على الورقة الأولى منها ما يلي :

كتاب تراجم الأعيان في ابناء الزمان
تأليف العلامة الفاضل الفهامة بحر العلوم
والعالم بطرق المنطوق والمفهوم فخر
التأخرين وزبدة المتقدمين
مولانا ابو (كذا) الضياء حسن البدري
بدر الدين البوريني الشافعي
الأشعري القاري (كذا)
لطف الله به

ويبدأ النص فيها بعد البسمة بما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ..

أما خاتمها فهي :

« يقول العبدُ الفقيرُ فضل الله بن محب الله بن محب الدين الشامي كان
الله تعالى له حافظاً وحامياً (كذا) :

هذه خدمة تضاعف عليه بها مزيد النعمة . ولعمري هي شرف خادمها
وفخر جامع هذه التراجم وراقمها . كيف لا وهي بأمرٍ وحيدٍ دهره
سؤدداً وُعلماً . نسيجٌ وحده استملاً على الفضائل واستيلاً . الذي يضيق
نطاق كلِّ بليغٍ عن إحصاء بعض أوصافه وعلومه . بل كلُّ منطيقٍ على
أن يعبر بعبارة تفصح عن منطوق كلامه ومفهومه . فرد الوجود في الفضل
والجود . وليّ نعمتي . المولى شيخ محمد عزّتي . حفيد شيخ الاسلام
المرحوم زكريا ابن يبرام . بلغه الله تعالى أطول الأعمار . وحرسه
بالملائكة الأبرار . وقد قابلت ما أمرتُ به بالقبول . وبذلتُ فيه مجهودي .
ولم آل جهداً في تحصيله وجعلته مقصودي . ولو قدرتُ جعلتُ الورق
من جلدي . بل من صحن خدتي . والقلم من بناني . والمداد من ماء
أجفاني . لكان ذلك قليلاً في جنب ما أمر به وطلبه . ومن عبده
وداعيه تطلّبه . وقد تقيتُ بجمعه من سبع مجاميع ، ولم يتيسر جمع
الجميع . فإنه مفقود . بل ليس له وجود . فإنَّ بعض الأعيان .
لم يترجمهم المؤلف المرحوم الشيخ الحسن البوريني الشامي علامة الزمان .
والبعض كان في هذه السنين . بزوايا الجبايا (كذا) كمين . فأبقى الله
تعالى مدى الأيتام مَنْ كُتبتُ هذه النسخة باسمه ، ووسمتُ بشريف
وسمه . كما كان السبب في إحياء أسماء هذه السادة . ونشر ما انطوى
من أخبار تلك القادة . بجاه خاتم الانبياء . ومبلغ الانبياء . ما ختم
كتاب . وسحَّ سحاب .

وكان الفراغ من مباشرة ترتيبه وكتابه وتهذيبه في أوائل رجب
المرجّب سنة ثمان وسبعين وألف من هجرة سيد الأنام . عليه أفضل
الصلاة والسلام . آمين .

فيتبين أن النسخة قد جمعها من سبع مجاميع فضل الله المحبّي .
وفضل الله هذا هو أبو الأمين المحبّي صاحب خلاصة الأثر . وكان
له معرفة بالأدب والتاريخ . ترجم له ابنه ترجمة طويلة (١) . وقد ذيل
على تراجم الأعيان . ولم نطلع على ذيله . وتوفي سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م ،
أي بعد أربع سنوات من جمعه تراجم الأعيان .
ولم يذكر بروكاهن نسخة المدينة هذه .

مخطوطة الهند

أما المخطوطة الثانية فهي محفوظة في خزانة الجمعية الآسيوية
« Asiatic Society » بالهند - كالكتا . ولدى معهد المخطوطات فلم عنها
كان اشتغالنا عليه . وتقع في ٢٣٥ ورقة . كتبت في القرن الحادي عشر
تقريباً ، وليس عليها اسم الناسخ .
على الورقة الأولى منها ما يلي :

تراجم الأعيان من أبناء الزمان
للشيخ الفاضل والجهيد الكامل ، أديب عصره
ووحيد دهره أبي الضياء الحسن
بدر الدين ابن محمد البوريني
الشافعي رحمه

تعالى

(١) الهبي ، خلاصة الأثر ٢ / ٢٧٧ .

ويبدأ النص فيها بعد البسمة بما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ...
أما خاتمها فهي :

هذا آخر ما وُجد من تاريخ العلامة الأديب الشيخ بدر الدين
حسن البوريني الشافعي المسمّى بتراجم الأعيان من أبناء الزمان . ملفتاً
من مسودتي التاريخ المذكور المؤلف احدهما برسم محمد باشا المنجكي ،
والأخرى برسم محمد أمين الدفتري . فربما وجد فيه مخالفة لما يقع منقولاً
في بعض المجاميع عن التاريخ المذكور لكونه منقولاً عن إحدى مسودتيه
فقط . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم .
فيظهر انّ هذه النسخة جمعها كاتبها من مسودتين للتاريخ كتبت
الأولى برسم الدفتري الذي ذكر البوريني اسمه في مقدمة كتابه ، والثانية
برسم محمد المنجكي . وكان أحد الأمراء الذين اتصل البوريني بهم وأفاد
منهم . وقد ترجم له ترجمة طويلة وأثنى عليه .
ولم يذكر بروكلمن هذه النسخة أيضاً .

مخطوطة برلين

والمخطوطة الثالثة كانت محفوظة في مكتبة الأمانة في برلين برقم 9889
وكان المغفور له الأستاذ محمد كرد علي صوّر منها نسخة لحزارة الجمع
العلمي العربي قابلنا عليها . وتقع في ٣٨٠ صفحة . كتبت سنة ١٠٧٨ هـ
بيد ناسخ المخطوطة الأولى فضل الله بن محب الله بن محب الدين .

على الورقة الأولى منها :

تراجم الأعيان من أبناء الزمان
لعلامة دهره وأوانه وفهامة عصره
وزمانه الحسن البوريني الشافعي
الأشعري القادري تغدده الله
تعالى برحمته وأسكنه بكرمه
فسيح جنّته . جمع الفقير فضل
الله ابن محب الله ابن
محب الدين عفى الله
تعالى عنهم بفضله
أجمعين
آمين

ويبدأ النص فيها بعد البسملة بما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ...
أما خاتمتها فهي كخاتمة نسخة عارف حكمة تماماً :
« يقول العبد الفقير فضل الله بن محب الله بن محب الدين الشامي ،
كان الله تعالى حافظاً له وحامياً (كذا) ...
« ... وقد تقيّدت بجمعه من سبع مجاميع ، ولم يتيسّر جمع الجميع ،
فإنه مفقود ، بل ليس له وجود ...
« ... وكان الفراغ من مباشرة ترتيبه ، وكتابته وتهذيبه ، في أوائل
رجب المرجّب سنة ثمان وسبعين وألف من هجرة سيد الأنام عليه أفضل
الصلاة والسلام . »

وكتب في آخره :

« الحمد لله على جزيل نعمائه . هذا التاريخ اللطيف من جملة كتب
الفقير مصطفى بن السيد علي الحموي الدفري بدمشق الشام . »

مخطوطة فينّا

أما المخطوطة الرابعة فهي محفوظة بمكتبة فينّا برقم 1190 ولم نطلع عليها . وقد جاء وصفها في فهرس مخطوطات فينّا كما يلي :

تقع في ١٥٥ ورقة . كتبت بخط نسخي . كتبها مصطفى بن محمد ابن أحمد الكنجي . برسم نقيب السادة الأشراف السيد حمزة افندي العجلاني بتاريخ ١٢ جمادى الثانية سنة ١١٨٥ هـ / ٢٢ ايلول ١٧٧١ م والنص فيها يبدأ كما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ... وعدد التراجم فيها ١٩٤ ترجمة (١) .

مخطوطة دار الكتب بالقاهرة

والمخطوطة الخامسة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٧٦ تاريخ . تقع في ٣٩٦ صحيفة . كتبها السيد احمد بن احمد الجزائري ، ونقلها من النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة . وليس علي النسخة تاريخ النسخ . ومن المرجح أنها من أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الرابع عشر . وقد توفي شيخ الإسلام سنة ١٢٧٥ هـ .

(١) انظر :

Flügel. G, Die arabischen, persischen und türkischen Handschriften der K. K. Hofbibliothek zu Wien, Vienne, 1865 - 1867, No 1190

دراسة المخطوطات

إن دراسة مخطوطات تراجم الأعيان تثير بعض المشكلات وكثيراً ما تظهر هذه المشكلات عامة لدى المحققين أثناء اشتغالهم بال نشر ، لكنهم يتغافلون عنها أكثر الأحياء .

فخواتم النسختين المخطوطتين في المدينة والهند - وهما أقدم النسخ الموجودة لدينا ، كتبنا في عصر المؤلف نفسه - تدلنا كيف جمع تاريخ البوريني بشكاه الذي وصل إلينا . فقد جمع نسخة المدينة ورتبها المحبّي من سبع مجاميع ، لا ندري عنها شيئاً . وهذه المجاميع السبع لم تشمل على التراجم كلها ، لأن المحبّي يقول : « ولم يتيسّر جمع الجميع فإنه مفقود » . أما نسخة الهند فلا نعرف من الذي جمعها ، ولكن نعلم من خاتمتها أنها جمعت من مسودتي التاريخ المكتوبتين برسم المنجكي والدفترى . ويظهر أن البوريني كتب مسودتين : واحدة لهذا ، وثانية لذاك . وجعل كل مسودة تزيد أو تنقص عن الأخرى . لكن مخطوطة الهند تضم ما في المسودتين معا .

وهكذا نرى أن كلاً من الجمعَيْن ليس من عمل البوريني نفسه . إن اختلاف مصدر هاتين النسختين : نسخة المدينة ونسخة الهند ، سبب اختلاف شكل التراجم فيها ، وزيادة بعض التراجم في الواحدة ونقصها في الأخرى كما سبب اختلاف ترتيب التراجم أيضاً .

فنحن نرجح أن نسخة الهند تضم التراجم كما كتبها البوريني أوّل مرّة . فأسلوب التراجم فيها - أحياناً - مرسل غير مسجّع . وطريقة

كتابة العصر كانت السجع . في حين نجد هذه التراجم نفسها في نسخة المدينة مسجّعة قد نقت ألفاظها .

ونلاحظ كذلك أن في تراجم نسخة المدينة زيادات قد يكون البوريني أضافها فيما بعد ، كما نجد أخباراً في نسخة الهند ، بعضها في الطعن على المترجم لهم - قد أسقطت من نسخة المدينة .

ونلاحظ ان التواريخ تختلف احياناً في النسختين ايضاً .

الأمر الذي يدفع الى الاعتقاد أن البوريني عاد ، بعد كتابة مسودتي التاريخ ، فنظر في تاريخه . فنقح وأضاف وحذف ونثق وصحح ، وأنه أعاد كتابة بعض التراجم كلها ، كترجمة العياوي ، أو بعضها ، فوقع كاتب نسخة الهند على مسودات التاريخ قبل التنقيح ، ووقع المحبّي على مجاميع بعضها أو كلها منقح .

ولتوضيح الاختلاف بين النسختين نقدم بعض الأمثلة :

نسخة الهند

نسخة المدينة

ترجمة العياوي

« وقد عادلتُهُ في تزوج أخت زوجته ،
والأختان بنتا الرجل الصالح الشيخ محمود
ابن الشيخ احمد الصناديقي وكان ذلك
بإشارته . و صدر العقد بمنزله المعمور
بدمشق في محلة حكر كمال الدين .
وحصلت جمعية العرس بمنزله المذكور
ايضا

« وصدرت منه لطيفة . ذلك أنه اطلع
على أني طالب للاحصان ، فقال لي عندي
حصان . وهي أخت أم اولادي . وهما
بنتا الشيخ محمود الصناديقي . فإن رُمتَ
أن تكون عديلي ، كما انك خليلي ، فاعزم
على ذلك ، واجزم بما هنالك . فأجبتُهُ
الى سؤاله ، وتقرّبت الى كماله

ترجمة أحمد العجمي

تبدأ الترجمة في نسخة الهند بما يلي :
 « كان هذا الرجل في مبتدأ أمره
 قصاباً . وكان والده من أرباب الصنائع
 ونشأ له اولاد منهم احمد المذكور ، هنا .
 ولما اشتهر امرهم بالقصابة بجمل لحم العهارة
 السلمانية والسليمية فحملوا ذلك . فنتج
 حالهم . . .

وتبدأ في نسخة المدينة كما يلي :
 « هو رجل من الأعيان ، والكرماء
 ذوي الشأن . جمع مالاً غزيراً ، وعقارا
 كثيرا . اشترى بيتاً عظيماً كان للأمير
 قانصوه الغزّاوي ، واستمر على ذلك الى
 أن دخل الى الشام أمير الأمراء مراد باشا
 حاكماً بها ، فولاه أمانة البهار . . .

ترجمة ابراهيم بن محب الدين

العنوان : ابراهيم بن محمد بن منصور

العنوان : صاحبنا المرحوم سيدي
 الشيخ ابراهيم بن محب الدين الدمشقي
 الاصل والمنشأ والوفاة .

ترجمة ابراهيم الحلبي

هو ابراهيم الذي ورث الفضائل ،
 كابراً عن كابر . وروى خبر الفتوى عن
 جهابذة أكابر ، حج في سنة عشرين بعد
 الألف . . .

هو الشيخ الفاضل ، جامع اشتات
 الفضائل ، الأصل العريق ، وارث علوم
 الأسلاف بالتحقيق ، نتيجة البيت القديم ،
 صاحب الفضل الجسيم . اجتمعت به لما وردت
 الى حلب المحروسة في سنة سبع عشرة
 بعد الألف . . .

ترجمة أسد الدين التبريزي

الشيخ العلامة ، الكامل الفهامة ،
فريد زمانه ووحيد أقرانه . . . ورد
دمشق مع والده معين الدين المذكور من
تبريز الى ديار بكر ثم الى حلب ثم الى
دمشق واستوطنها . وسار والده الى
قسطنطينية . . . فجرى عليه امر اقتضى
صلبه ، ولم يجد خلاصه من هاتيك
النكبة الصعبة واستمر ولده أسد الدين
المذكور بدمشق الشام . . .

قدم من تبريز مع والده الخوارج معين
الدين التبريزي الى ديار بكر ثم الى دمشق
الشام . فسكن مع والده في صالحية دمشق
مدة . وترك ولده في دمشق وسافر الى
باب السلطنة قسطنطينية . فصدرت من
ابيه احوال مخالفة لقانون الاستقامة من
تلبس في المعاملة ، وتزوير في المكاتبه في
زمن وزارة الوزير الأعظم رستم باشا .
فلزم أن الوزير المذكور عرض أمره على
حضرة السلطان فأمر بصلبه . فصلب في
قسطنطينية . . .

ترجمة أحمد ابن الأكرم

وكان قبل هدم المدرسة كما سبق
ذكره يلبس العمامة البيضاء الحسنة . فلما
هدمت المدرسة عدل عن لبس العمامة
البيضاء الى لبس المئزر الصوف الذي
يلبسه صوفية زماننا ، وترك له ذوائب
شعر من جانبي رأسه ، فبقي من أعاجيب
المخلوقات . رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ولما هدم القاضي احمد الانصاري البناء
الذي أحدثه في المدرسة المقدمة الجوانية
غير عمامته البيضاء الحسنة بعمامة من
الصوف المسمى بالمئزر وترك شعر رأسه ،
وربى له ذوائب من الشعر الأبيض .
وكانت بارزة من جانبي رأسه . وكل
ذلك من صلاحه وعدم تقيده باصطلاح
الناس . فرحمه الله رحمة واسعة .

فهذه الاختلافات تدلّ دلالة قاطعة على أن البوريني قد أعاد النظر في مسوداته الأولى .

والى هذا يُضاف التنقيح الكثير الذي نجده في الألفاظ بما تكشف عنه مقابلات النسخ التي أجريناها . وهذا التنقيح يبدو في قصائد البوريني التي ساقها في كتابه .

هذا حال النسختين القديمتين المتصلتين بالأصول الأولى للتراجم . على أن حال نسخة برلين يثير مشكلة جديدة لم نستطع حلّها . فالتوقع أن تكون هذه النسخة اختتاماً لنسخة عارف حكمة فكاتبها وجامعها واحد ، وقد جمعنا من الجامع السبع ، وتاريخيها واحد ، وخطها واحد . لكن الواقع أن نسخة برلين تتفق في زياداتها أو نقصها أو عباراتها مع نسخة الهند في كثير من الأحيان ، كما تتفق في أحيان أخرى مع نسخة عارف حكمة . بل هي أقرب الى نسخة الهند منها الى نسخة المدينة . ولو أن خط النسختين كان مختلفاً لجزمنا أن الناسخ لنسخة برلين نقل خاتمة النسخة الأولى ، دون أن يذكر تاريخ نسخه هو . وقد قلبنا الأمر على وجوه كثيرة فلم نجد له حلاً .

نزهة التحفيظ

اسقطنا في مقاربات النسخ نسخة دار الكتب لحدائثها ولوجود الأصل الذي نقلت عنه .

واعتمدنا على ثلاث مخطوطات : نسخة المدينة ، ونسخة الهند ، ونسخة بولن .

- ١ - فاتخذنا نسخة المدينة أمثاً
- ٢ - عارضناها بنسخة الهند ونسخة بولن
- ٣ - أضفنا التراجم الساقطة من نسخة المدينة ونبهنا الى ذلك
- ٤ - ما حذف من عبارات في نسخة المدينة ووجد في نسخة الهند أو بولن أضفناه بين [] وأشارنا اليه .
- ٥ - ما كان ساقطاً من نسخة الهند ونسخة بولن وكان موجوداً في نسخة المدينة جعلناه بين خطين قائمين | | ليُعرف ما أضافه البوريني بعد كتابه مسودة التاريخ .
- ٦ - اذا اختلفت التراجم تماماً أثبتنا نص نسخة المدينة ، واردفنا به بحرف أدق نص نسخة الهند .
- ٧ - اذا اختلفت عبارات بعينها أثبتنا نص نسخة المدينة وذكرنا في الحاشية عبارة نسخة الهند .
- ٨ - اذا اختلف ترتيب النص في النسخ ، اثبتنا ترتيب نسخة المدينة ونبهنا أن في الترتيب اختلافاً .

- ٩ - إذا اختلفت الألفاظ في النسخ اثبتنا أصوبها وأحسنها موقفاً ،
وراعينا أن نحافظ أغلب الأحيان على نص نسخة المدينة .
- ١٠ - إذا كان ترتيب التراجم يختلف في نسخة الهند ونسخة المدينة
فقد اثبتنا ترتيب نسخة المدينة .
- ١١ - صححنا بعض أخطاء الرسم دون أن نشير الى ذلك .
- ١٢ - اثبتنا اختلاف النسخ . وكثير منه لا يرجع الى النسخ بل
جاء كما نعتقد من المؤلف نفسه .
- ١٣ - عطينا بالأماكن المتعلقة بدمشق ، التي وردت في النص ،
فدللنا عليها أو أحلنا على المراجع التي تحددها .
- ١٤ - اتبعنا النص بملاحق وفهارس متنوعة .

شكر

ونختم هذه المقدمة بشكر معالي الاستاذ الجليل خليل بك مردم بك
رئيس المجمع العلمي العربي الذي اهتم بهذا الكتاب ، وقدره حق قدره ،
وتكريم فجعله في مطبوعات المجمع . وقد تلطف فعرضنا عليه القصائد
الواردة في هذا الجزء وأفدنا من ملاحظاته .

والشكر للصدیق الاستاذ عبد الهادي هاشم الذي بذل لهذا الكتاب
الكثير من عنايته ، وأشرف على تصحيح تجارب طبعه ، بسبب غيابنا في
القاهرة .

ولئن استطعنا اخراج هذا الكتاب ، فالفضل في ذلك راجع الى معهد
المخطوطات بجامعة الدول العربية الذي وجدنا فيه مخطوطتي المدينة والهند ،
ولولاها لما استطعنا أن نعمل شيئاً .

الرموز

م نسخة المدينة (خزانة عارف حكمة) . وقد نوزم اليها بحرف
« ص »

ه نسخة الهند (مكتبة الجمعية الآسيوية)

ب نسخة برلين (مكتبة الأمة)

[] بينها ما أضيف الى نسخة المدينة من النسخ الأخرى

| | بينها ما سقط من نسختي الهند وبرلين

< > بينها ما أضفناه من عندنا من حرف او لفظ أسقطه الناسخ
سهواً .

الفقيه محمد بن محمد بن الحسين
القاضي يعقوب بن اناطولي
المعمور

من خط الحسين
ابراهيم بن محمد بن
عقيل

تأليف تراجم الأعيان في أبناء الزمان
تأليف أئمة الناقلين من علماء
والمعالم بطرق المنطق والفقه في
التاريخ وزيارة المنتدسين
مولانا ابو الفياض الحسين بن
بدر الدين البوريني الشافعي
الاشعري القاري
لطف الله به

١٩٣٦
مكتبة دار
١٨٨



الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة عارف حكمة بالمدينة

قول العبد الفقير فضل الله بن محمد الله ابن محمد الدين الشامي
كان الله تعالى له حافظا وحاميا هذه خدمة تضاعف عليه بها يزيد
النعمة ولعمري هو شرف خادما وفخر جامع هذه التراجم وراقها
كيف لا وهو بامر وحيد دهره سودا وعلاء نسيج وحده اشتغلا
على الفضائل واستيلاء الذي يضيق نطاق كل يبلغ عن احصاء بعض
اوصافه وعلومه بل كل نطق على انه صير عبارة تنفع عن نطاق
كلامه ومفهومه فرد الوجود في الفضل والجودة ولي نعمي المولى شيخ
محمد عزق حفيد المولى شيخ الاسلام المرحوم زكريا ابن يراع بلغة
الله تعالى اطول الاعماره وحرسه بالملائكة الابرازه وقد قامت
ما امرت به بالقبول وبذلك فيه مجهودي ولم آل جهدي في تحصيله

وجعلته مقصودي ولو قدرت جعلت الورق من جلدي بل من صحن
خدي والقلم من بناني والمداد من ما احفاني لكان ذلك قليلا
في جنب ما امر به وطلبه ومن عبده وداعيه تطلبه وقد تقيدت
بجمعه من سبع مجاميع ولم يتيسر جمع الجميع فانه مفقوده بل ليس
له وجود فان بعض الاعيان لم يتوجههم المؤلف المرحوم الشيخ
الحسن البوريني الشامي علامة الزمان والبعض كان في هذه
السنين بزوايا الجيايا كمين فابقي الله تعالى مدى الايام من
كتبت هذه النسخة باسمه ووسمت بشريف اسمه كما كان
السبب في احيا اسمها هذه السادة ونشرها انطوى

من اخبار تلك القادة بجاه خاتم الانبياء

ذمبلغ الانبياء ما ختم كتابت وروح صحابه

وكان الفراغ من مباشرة ترتيبه

وكتابتته وتهديته في اويل

رجب المرجب سنة

ثمان وسبعين الف

من هجرة سيد

عليه افضل الصلاة

والسلام

خاتمة نسخة عارف حكمة بالمدينة

مكتبة
٥٠

تراجم الأعيان من ابن الرومان

للشيخ الفاضل وأخيه الكامل الأديب عمه

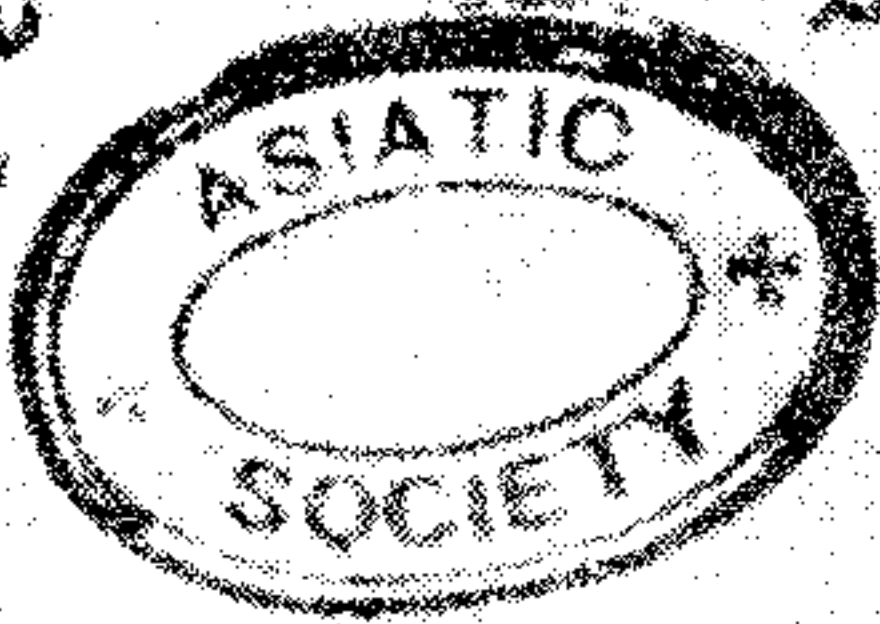
ووحيد دهره أبي الضياء الحسن

بدر الدين ابن محمد البوريني

المطابق رحمه

الله

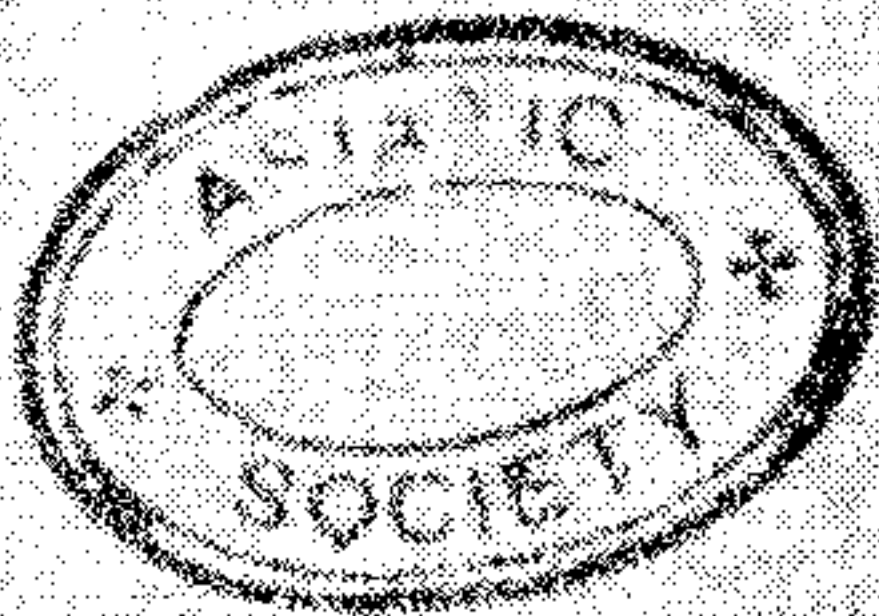
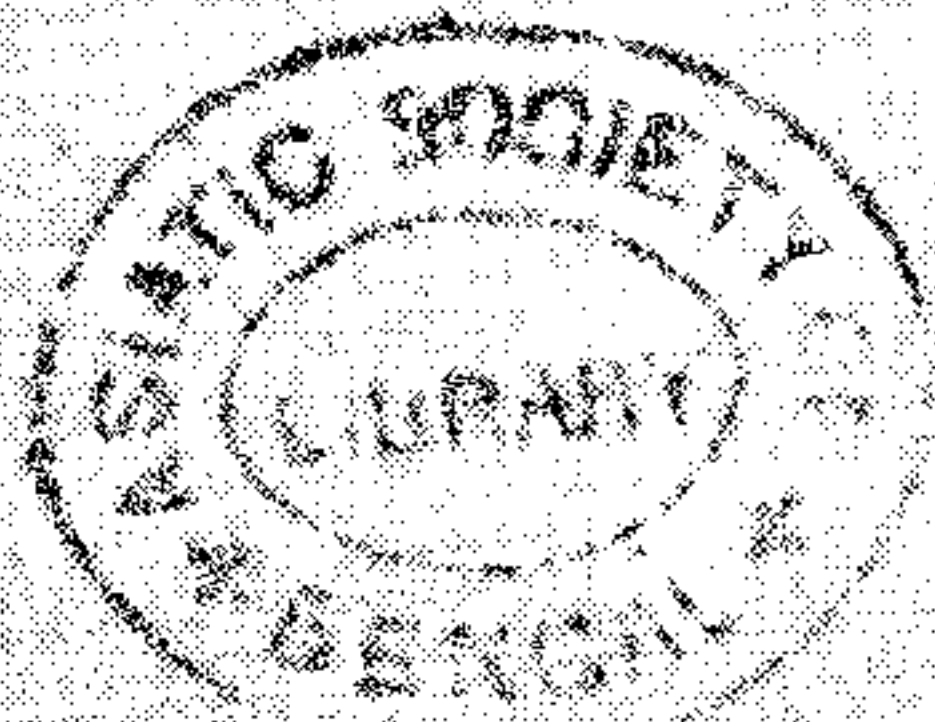
١٥
تراجم الأعيان
تاريخ بوريني



مكتبة الجمعية الآسيوية
بنال

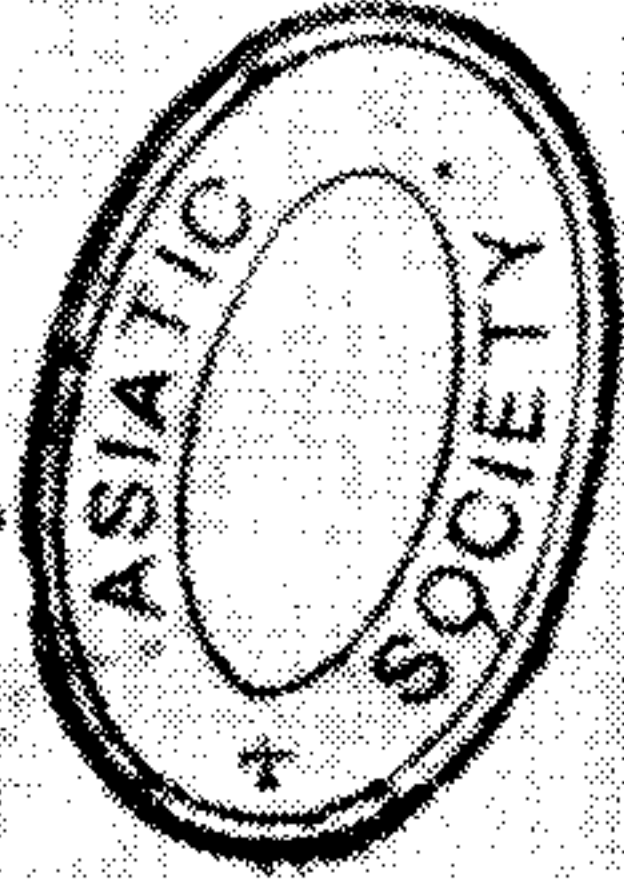


[Faint handwritten signature or text]



الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة الجمعية الآسيوية بالهند

ان في قتله تاريخ صحيح ، دم الرجال اهداه الشريف
هـ هذا احدث ما وجد من تاريخ العلامة الايب الشيخ هـ
هـ بغير الدين حسن البوري الشافعي المسمى بتراجم هـ
هـ الأعيان من ابناء الزمان سلفا من سواد هـ
هـ التاريخ المذكور للولف احداها برسم هـ
هـ محمد پاشا المنجكي والاخرى برسم هـ
هـ محمد ايبان الرفاعي غيرها هـ
هـ وجد فيه مخالفتا هـ
هـ يقع منفولا في هـ
هـ بعضها مع هـ
هـ عن التاريخ هـ
هـ المذكور هـ
هـ كونه منقولا عن اخرى هـ
هـ مسودتيه فقط هـ
هـ والخلاصة وحده هـ
هـ وصلواته على هـ
هـ سيدنا محمد هـ
هـ والحمد لله هـ
هـ والسلام هـ
هـ



من نخط كلمة حسن البوريني

بحق متظوم ورومن ثناياكا وبقا قاني عبد من عاباكا
 باناسيا عهدنا الماضى ذكرا سلم مهله فان فوادى ليبرياكا
 بعين ~~الشيخ~~ الشا ميني بيتا هذا وخلق طول الدهر من عاباكا
 مولا من نوحا هدت عينك كالذي ليل الهوم ووفق امه ارباكا
 من كان افتكرك الجوان ذوا ذيب من ذاك الذي ~~بالحسن~~ افاكا
 افا ذكر امه من ليل بيت به برى النجوم من نزلت لفضنا
 يا ما لکن جميد كنت اعملن جاشا كرنيد لم بالستوا عاشاكا
 يا ما كانى للورى رقا ففكر لا بحر فعلت بمن والناصرا
 حضرت فيك تقوم لافلا قلم ما كنت اعرف فم في الدهر لولاكا

قفلت عند سيد اكب الحبيب ليل البست من شهر سنوا
 وارسلت تعلقى في الحجج الشريفه عا ساكنها افضل الصلوة والسلام

خليلي بالود القديم تحمله سلامى الذاكر الجناح للعظيم
 لدا جيتي ارضيا بالسعد الهنا ونبيل الحنى والعنوة من لکن تجرم
 قبلت ما تقصد ان بزور لغير النبى الهاشمى المكرم
 نقول يا رضى الشام عبد تقدر اقام حليفا لاسى والتقدم
 اسير ~~من~~ انت احسن منقد جرم فوادى دانت انفع من
 تقدم بيتا لهدى منه تشوقا والى الجت جبر تقدم
 اقام بارضى للشام كنى جسمه ~~البلد المشوق للميت~~
 اروعك يا فخر القائلين ~~من~~ اذ اهرت في قبر من الضيق نطق
 وارجو كيا غوشا العباد بوقوف بعون لهور فيه كل شوق
 فكن سعدى في يوم يوم سعدا وكن منقذ ~~من~~
 حيك سلام الله مارا في ذلوت مسير ~~الى~~ المكرم

انودج من نخط الحسن البوريني مأخوذ من كتابه

تراجم الأعيان

من أبناء الزمان

[مقدمة المؤلف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الباقي وما سواه فان ، الدائم وغيره معدوم بحوادث الحدَثان .
تعالى عن الزوال ، وتقدس عن التحوّل^(١) والانتقال . حكم على
طوائف الأمم بما حكم به من العدم ، واختص بالبقاء والدوام والقدم .
فسبحانه من إله تنزهت ذاته ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، أحمدُه
حمد من ذكر وشكر ، وأشكُرُه على نعم لا يحيطُ بها النظر ،
ولا تحصيها الحواطر ولا الفكر .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده . وأشهد أن سيدنا محمداً الذي
جعله الله خاتماً للأنبياء وما أرسل أحداً بعده . صلى الله وسلم على ذاته
الطاهرة ، وعلى آله وأصحابه الذين هم النجوم الزاهرة . وعلى التابعين
لهم في الآداب ، إلى يوم البعث والحساب .

أما بعد : فإني قد رأيت كثيراً من العلماء الأعلام ، الذين بهم
افتخار الليالي والأيام ، قد اشتغلوا بعلم الأخبار ، ودوتوا في الكتب
محاسن الأخبار ، لاسيما علماء الحديث ، فإنهم اجتهدوا على ذلك في
القديم والحديث . وأنت عالم بما صنّفه ابن كثير^(٢) ، وبما ألفه في ذلك

(١) هـ ، ب « التحويل »

(٢) يشير إلى كتابه « البداية والنهاية » . توفي ابن كثير سنة ٧٧٤ هـ . انظر

كتابنا المؤرخون المشقيون ص ٥٥

العلامة العزُّ ابن الأثير^(١) . وإن نظرت إلى الشهاب بن خلِّكان^(٢) رأيتَ من ذلك ما لا يحتاج إلى البيان . وهذا العلامة يوسف بن شدَّاد^(٣) ، الذي كان في زمنه من العلماء الأجداد ، قد ألَّف أيضاً في ذلك . والعلامة أبو شامة^(٤) سلك من ذلك أقوم المسالك . وأما الشهابُ ابن حجر^(٥) شيخُ الاسلام ، فإنه قد جمع من ذلك ما^(هـ) هو مشهور بين الخاصِّ والعام . وذلك أمرٌ معلومٌ ، واضحٌ غير مكتوم . وقد كنتُ عزمتُ من مدَّةٍ مديدة ، وأعوامٍ عديدة ، على أن أجمع تراجم مَنْ كان موجوداً من الأعيان ، من ابتداء ولادتي وإلى هذا الآن . من عالمٍ عاملٍ ، أو فاضلٍ كاملٍ ، ومن سلطانٍ أو أميرٍ ، أو صاحبٍ فنٍّ هو به شهيرٍ . سواء رأيتُه أو سمعتُ بأخباره من ثقاتِ الدهرِ وأخباره . فإن علمتُ المولدَ والوفاء ، ذكرتُ ما علمتُه من ذلك بلا استثناء . وما شككتُ فيه تركته (٢ ب) وأهملتُه وما ذكرته . ومَنْ كان عند ذكره في الحياة موجوداً ، جعلتُ الاقتصار على أوصافه مقصوداً . ولكن كان يعوقني عن ذلك المرام ، ما يعتري أمثالي من حوادث الأيَّام ، التي تشغل الانسان عن نفسه ، وتفسد عليه ما استقام من فكره وحديثه . فتغافلتُ عن ذلك

-
- (١) يشير الى كتابه « الكامل في التاريخ » . توفي ابن الأثير سنة ٦٣٠ هـ .
انظر وفيات الأعيان ٣ : ٣٣
- (٢) ألَّف ابن خلِّكان كتابه الجيد « وفيات الأعيان » . توفي سنة ٦٨١ هـ .
انظر المورخون الدمشقيون ص ٣٧
- (٣) ألَّف أبو شامة كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » . وتوفي سنة ٦٦٥ هـ .
انظر المورخون الدمشقيون ص ٣٣
- (٤) ألف ابن حجر « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » وكتباً أخرى .
توفي سنة ٨٥٢ هـ . انظر الضوء اللامع للسخاوي ٢ : ٣٦ ؛ ومعجم المؤلفين ٢٠ : ٢
- (٥) ب ، هـ « مما » .

أعواماً عديدة ، وما ملتُ إليه من مدّةٍ مديدة ، إلى أن اتفق
اجتماعي في دمشق المحروسة ، بصاحب الذات المأنوسة ، الكامل في
ذاته ، المدوح في جميع صفاته ، صاحب الكلمات الظاهرة ، والفضائل
الشهيرة الباهرة ، مَنْ جمع بين المحاسن المتباعدة ، وحصل المناقب
الجميلة المتزايدة ، سيدنا ومولانا محمد أمين أفندي ، السابق "الجعفري" ،
الطيار ، صاحب الدفاتر السلطانية ، بدمشق المحمية ، حماها رب
البرية ، من طوارق البلية . وكان ذلك الاجتماع في أوائل سنة ثمان
بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة والسلام .
فتذاكرتُ معه ما كنتُ قصدته من الجمع المذكور ، وقلتُ له :
هذا أثرٌ يبقى على ممرّ الدهور . فحَثَّنِي على الشروع ، فيما كنتُ قصدته
من الجمع . وقال لي : بادِرْ إلى مطلوبك فإنه يصير بعون الله لذةً
للنظر والسمع . وذكر لي أنه خَطَرَ في باله فيما مضى من الزمن ،
أن يطلب مني تأليف مثل هذا الجمع الحسن ، فبادرتُ إلى امتثال
أمره ، ولازمتُ الدعاء له مع حمده وشكره . لأنه الباعثُ لي على
إبراز ما نويته إلى الوجود ، والسبب الداعي إلى تصفية هذا
الحوض المورود .

ثم اعلم أن ولادتي كانت في شهر رمضان المبارك من سنة ثلاث
وستين وتسع مئة ، وقد ابتديتُ في تدوين هذا الكتاب في شعبان المعظم
من سنة تسع بعد الألف من هجرة خير الأنام . عليه من الله أفضل
الصلاة وأتم السلام ، وعلى آله وأصحابه الكرام ، وعلى التابعين لهم
بإحسانٍ إلى يوم القيام .

واعلم أني قصدتُ ترتيب هذا الديوان على حروف المعجم ، إيضاحاً
للكشف على ما هو مُبْهِم . ومَنْ كان مشهوراً بلقبه أكثر من شهرته
باسمه ، داعيتُ في ذلك الشهرة قصداً لتسهيل علمه .

واعلم أني لا أذكر من أوصاف أحدٍ في الغالب إلا الوصف الحمود،
طلباً للثواب يوم تنقسم الوجوه إلى بيضٍ وسُود . وقل أن يخلو رجل
من تخطيط . و"من" هو المعتدل بين الإفراط والتفريط ؟

وأنا أستقبلُ الله العثرة إن زلت القدم ، فيما يُوجبُ في القيامة
الندم . فإن الانسان محلُّ الزلِّ ، في القول والعمل . وإلى الله
الالتجاءُ في أن يوفقَ للانتقام ، وأن يسهلَ بلطفه الختام . بعونه وحوله ،
وفضله وطوله . إنه تعالى إذا دُعي أجاب . وإذا (٣ آ) نودي سمع
الخطاب . وسميته :

تراجم الأعيان ، في أبناء الزمان

[حرف الهمزة]^(١)

الأحمدون الطيبون الثلاثة

فأوتلمهم :

١

أحمد الطيبي الأكبر

هو الشيخُ الصالح ، العالمُ الفالح ، الوليُّ العارف ، صاحبُ المعارف ،
المقريءُ بالقراءات المختلفة ، الموصوفُ من القنع والصلاح بأكمل^(٢) صفة .
ورد والدُه الى دمشق الشام^(٣) ، وكان ولده هذا معه فوق سنِّ
الاحتلام ، فقرأ على مشايخ دمشق^(٤) وتفقّه عليهم على مذهب الإمام
الشافعي رضي الله عنه ، ومهر في الفنين المذكورين ، ولكنه كان على
سنن السلف الماضين في عدم التكلّف والتصلّف . فلذلك جلس في دكان
الطبيبِ بباب البريد^(٥) . وكانت معيشته من ذلك . وكان في الغالب
لا يتناول من الوظائف شيئاً . وكان ضيقَ الخلق جداً حتى إنه كان يضرب
من يغلط من تلامذته في القراءات المختلفة وغيرها . واقتنى بيتاً في محلة

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) م « بالحمل » ، اثبتنا ما في ه ، ب

(٣) ه « ورد دمشق الشام »

(٤) ه « دمشق الشام »

(٥) يعني السوق الذي أمام باب الجامع الأموي الغربي المسمى بباب البريد

مدرسة القيصرية^(١) . ولم يزل مواظباً على ذلك الى أن مات في شيء وستين وتسع مئة ، ولا أعرف الوقت بالتعيين في وفاته رحمه الله تعالى ، ودُفن في تربة مرج الدحداح^(٢) بالقرب من مزار الشيخ أبي شامة رضي الله عنه . وقبره عند قبور أولاده وأحفاده مشهورٌ هناك .

ونشأ ولده :

(١) تقع عملة القيصرية في شرق الجامع الأموي . عن المدرسة القيصرية انظر

النعمي ١ : ٤٤١

(٢) في الناحية الشمالية من دمشق ، خارج باب الفراديس . انظر كتابنا خطط

دمشق ، ص ١١٨ ؛ ومخطط دمشق القديمة لنا .

أحمد بن أحمد الطيبي الكبير (*)

هو جمالُ الزمان ديناً وعلماً ، وابتهاجُ الأيام شرفاً وفهماً | (١)
الشيخُ العالمُ العاملُ ، الفاضلُ الصالحُ الكاملُ ، فخرُ أيامه ، ومن
اشتهر في الفضل قبل احتلامه ، صاحبُ التصانيف المفيدة ، والتحقيقات
الفريدة ، والدرر النضيدة ، والصلاحِ الشهير ، والزهدِ الكثير . كان
من يُستسقى به الفَيْثُ في زمانه ، ومَن يُقاس بالحسنِ البصريِّ
بين أقرانه .

قرأ القرآن على والده ، وحازَ به من الفضل طريقَ المجدِ كَتالده .
وقرأ عليه بالقراءات المختلفة ، وتفقهَ عليه حتى تمرنَ به وعرفه . ثم
شرع يقرأ على الشمس الكفرسوسي ، والشيخ تقي الدين القاري ،
وعلى الشيخ تقي الدين البلاطُنسي ، وعلى بقية مشايخ زمانه ، حتى
تفرّد بالكمال بين خلائه ، وسلك مسالك الصّلاح ، وظهر عليه نورُ
الولاية ولاح .

تولّى إمامة جامع الأموي دهرأ طويلاً ، وخطب به عمراً ليسَ
قليلاً . وصنّف الخطبَ الفصيحةً ، وحبّر النصائح المليحةً ، ونقلها عنه
الخطباء ، ورواها أكبرُ النجباء . وتولّى تدريسَ | المدرسة | (٢) العادلية

(*) الظر ابن العماد ، شذرات ٨ : ٣٩٣

(١) مابين الخطين ساقط من ه ، ب

(٢) ساقط من ه

الصغرى^(١) ، وتدرّس بقعةً بالجامع الأموي اللاذقية . وكانت مع ذلك يكتب أوقاف الأمراء بني منجك في دمشق الشام ، ويُدرك بالكتابة المذكورة الرزقَ التام . وكان يُدرّس بالجامع المنجكي في محلة مسجد الأقباب^(٢) ، ويُعلّمُ هناك جميعَ الطُّلاب . وكانت له الشفقةُ الكاملة ، والألطفُ الوافرة (٣ ب) الشاملة ، على الطلبة لاسيما الغرباء ، وبالجملة فإنه ما تقاعس عن الوصف الجميل ولا أبي ، بل كان عامراً الأوقات ، بالعبادات والبركات . لا يفتر ساعةً عن فعل خيرٍ أو طاعة .

قرأ عليه فضلاءُ دهره ، ونال بذلك نهايةً فخره . فمن قرأ عليه ، وجلس دهرأً بين يديه : الشيخُ الفاضلُ العلامة ، جامعُ أشتات الفضائل والكرامة ، شيخنا بل شيخ الشام ، الذي شاع فضله بين الأنام ، المفتي الجليل ، المرحوم الشيخ اسماعيل ، مفتي الشافعية في زمانه ، وحائز مرتبةَ الصدر بَيْنَ أقرانه ، الشهيرُ بالنابلسي . وستأتي ترجمته عن قريب ، بعون لطف | الله |^(٣) السميع الجيب . وكان يفخر بالقرآنة عليه في مجالس فخره ، ويرى أنه أدرك بذلك صدارةَ دهره .

ومن قرأ عليه ، ونال الفخر بانتسابه إليه . شيخنا المحقق ، وأستاذنا المدقق ، العبادُ بن العباد ، مَنْ عليه في تحقيق المشكلات الاعتماد ، الشيخُ عماد الدين محمد الحنفي . سقى الله ثراه ، وبلغه في الجنة ما يتمناه . وستأتي ترجمته في حرف العين ، صدقاً من غير مَين^(٤) .

وقد قرأتُ عليه . رحمه الله تعالى ، وأنا ولدٌ صغير ، فنظر إليّ نظر الشفقة وقال لأبي : احرصْ عليّ ولدك هذا فإنه سيصيرُ من أهل العلم .

(١) انظر عنها النعيمي ، ١ : ٣٦٨

(٢) محلة معروفة تقع خارج باب السلامة . انظر عن المسجد ذيل ثمار المقاصد ٢٢٢

(٣) ساقط من هـ

(٤) هـ « صدقاً مني من غير مَين »

فقبل والدي بيده . ثم إنه سأل والدي عن بلدته ، فقال له والدي :
أنا من قرية بورين^(١) وهي ملاصقة لأرض مدينة نابلس^(٢) . فقال الشيخ
المذكور لأبي : أنت حينئذ من بلادنا . فقال له والدي : أنتم من
أي قرية ؟ فقال له : نحن من القنْدَقومِيَّة^(٣) . وتعارفا ، وأمرني بملازمته ،
فشرعتُ في القراءة عليه من أول القرآن العظيم الى آخر سورة النساء
تجويداً لأبي عمرو . وشرعتُ مع ذلك في قراءة « المنهاج » إلى باب
صلاة المسافر .

وكان الشيخ أحمد بن المرزقات المقيّم الصالح يقرأ عليه وقت
قراءتي عليه « النشر » لابن الجزري في القراءات العشر . وسنأتي ترجمة
الشيخ أحمد هذا إن شاء الله تعالى .

والشيخ الطيبي هذا علم^(٤) الناس في زمنه تجويد^(٥) القرآن
والقراءات العشر ، وكان في زمنه يُقال له الحسن البصري . ولقد حضر
مرةً ختم التفسير المنظوم الذي نظمه شيخ الاسلام البدر الغزي العامري ،
وكان البدر المذكور قد عقد له المجلس وراء مزار رأس يحيى بن
زكريّا عليهما | الصلاة و |^(٦) السلام ، وحضر علماء البلدة وقاضيا
ومفتيا ، فكان من جملة ما دار في المجلس أنه قال البدر المذكور : أنا
رددتُ على صاحب القاموس في سبعة مواضع منه ، وذكر منها أنه

(١) قرية مشهورة في فلسطين قريبة من نابلس ، ما تزال قائمة .

(٢) مدينة مشهورة في فلسطين انظر (معجم البلدان)

(٣) قرية في فلسطين بين نابلس والقدس .

(٤) هـ « أعلم »

(٥) هـ « في تجويد »

(٦) ساقط من هـ

جعل الخزل (١) بالخاء المعجمة والجزل بالجيم في علم العروض بمعنى واحد ،
والحال أن كلاً منهما بمعنى مستقل غير معنى (٢) الآخر . وفي اليوم
الثاني أرسل إليه الشيخ أحمد الطيبي المذكور صاحب الترجمة ورقة
ينتصر فيها لصاحب القاموس ويقول 'إله' (٣) فيها : إن الدماميني قد
نص على ذلك ولم ينفرد به صاحب القاموس . فأرسل البدر الغزي أبياتا
الى الشيخ الطيبي المذكور يقول منها :

أمولى شهاب الدين يفاضل العصر ويأمن رقى فوق السها كبن والنسر
زعمت بأن الجزل والخزل واحد كما قاله القاموس ذو المجد والفخر
وقلت الدماميني قال بقوله وحققه بالنقل عن فتية غر
وإن الدماميني تلميد ربه وإحسان ظن بالشيخ من البر
وما بالتساوي نرقي واملنا نرد على القاموس رداً بلا حصر

وقد كان الشيخ الطيبي ينظم العلوم . نظم « مناسك الحج »
وجزاً كالماء الزلال من رفته . وصنف في « أشكال المنطق الأربعة »
تأليفاً خاصاً ، وجعل لكل شكل جداول للأشكال المنتجة والأشكال
العقيدة . وهو تأليف حسن . وصنف « المفيد في علم التجويد » .
وشرحه الشيخ أحمد بن المرزفات المذكور آنفاً شرحاً حسناً . وللشيخ
الطيبي المذكور « ديوان خطب » في غاية الحسن .

(١) ذكر في القاموس أن الخزل سقوط الألف وسكون التاء من متفاعلن كالخزل
بالفتح . ثم جاء في مادة « جزل » : والجزل اسقاط الراءم من متفاعلن
(أي الالف) واسكان ثانية (أي التاء) في زحاف الكامل .

(٢) هـ « المعنى »

(٣) ساقط من هـ

وكان يعظ بدمشق .
ولقد أدركته وهو شيخٌ كبيرٌ قد حناه الزمان ، وهصر^(١) قامته
تخالفُ أحوالِ الحدّان ، وهو يندد قول القائل :

وعهدي بالشبابِ وغصنٌ قَدِّي حكى أَيْفَ ابنِ مُقَلَّةٍ في الكتابِ
فصرتُ اليومَ منحنيًا كَأَنِّي أَفْتَشُ في الترابِ على شبابي

★

[وله من النظم قوله]^(٢) :

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي ثَيْلَ كُلِّ الْمُنَى وراحةَ القلبِ مع الأَنْسِ
فَكُنْ مَعَ الْحَقِّ بِلا خَافِهِ^(٣) وكنْ مَعَ الخَلْقِ بِلا نَفْسِ

وله في بيان « يكون »^(٤) لجماعة الذكور - من وكى^(٥) دعاءه
إذا ربطه - فإنَّ صيغتها تُشابهه في اللفظ صيغة يكون الذي هو^(٦)
مُضارع كان قال :

أَيكونُ قومٌ لا يكونُ سقاءهُم في أزيمةٍ مثلَ الذينَ يكونُنا
قدَضِلُّ مَنْ بِالْفَضْلِ ضَنَّ وَظَلَّ في طرْدٍ ومَنْ بِالْعَمْدِ لَيْسَ يَقُونَا
وكان يكتب الخطَّ الحسن . ورأيت بخطه دفاتر كثيرة عند الأمير

(١) هـ « غصن »

(٢) الزيادة من هـ ، ب

(٣) هـ « كلفة »

(٤) وكى القرية يكتبها إذا شدّها بالوكاء أي الرباط ، ويكون هنا المضارع
لحقته واو جماعة الذكور

(٥) م « وكان » هـ ، ب « من وكن »

الكبير^(١) محمد بن منجك في « بيان أوقاف الجوامع التي بدمشق من بناء بني منجك » .

وكان قليل الأكل في آخر عمره . قال لي ولده شيخنا الشيخ أحمد الطيبي الصغير : إن والده المذكور كان يقتصر في آخر عمره على بيضة نيرشت^(٢) يأكلها بعد صلاة العشاء .

وكان يكرم الطلبة الغرباء الذين يردون من الآفاق ، ويتلطف بهم في التعليم ، وإن كان الرجل منهم مبتدئاً .

وكان الشيخ أحمد القابوني الآتي (ب) ذكره في هذا الكتاب^(٣)، إن شاء الله تعالى ، تلميذه الخاص به . وكان يأتي له من بيته بالأكولات الطيبة في الصباح والمساء . وكان إذا لم يجده يضع له الأكل في خزانة له بالمشهد المنسوب لابن قيصر الملاصق لحجرة الشيخ الطيبي المذكور ، بينها وبين مأذنة عيسى عليه الصلاة والسلام . ولقد أخبرني الشيخ القابوني المذكور أنه جاءه يوماً بمحّصٍ مُتَبَلِّ على الصّباح وكان بائناً . فكتب له ورقة صغيرة ووضعها الى جانب إناء الحمّص وفيها :

الأخ العزيز الشيخ أحمد يتفضّل ويتناول هذا الحمّص فإن أهل الشام يقولون : « من أطيب الطيبات » ، الحمّص إذا بات » .

وله من الدين والورع والزهد والتقشّف في العبادة مالا يُدرك . وكان يُذكر السلف الماضين بزهد وورعه . وكان لا يفتي في الفقه أصلاً ويقول : إنّ البدر الغزي أولى بالفتوى مني ، وهو يُعني عني . وبالله لقد

(١) ساقط من هـ

(٢) أي نصف مسلوق وهو ما يسمّى بالفرنسية à la coque . ويحرف الناس

الكلمة في أيامنا فيقولون « بيض برشت »

(٣) انظر الترجمة دات الرقم ٦

رأيته بعيني يدلّ رجلاً على حجرة الشيخ الغزالي المذكور ويقول له :
اذهب الى تلك الحجرة ودقّها فإنّ المقي ساكن فيها . نعم كان يُفتي في
مشكلات الفرائض لانفراده بها في زمانه وبين أقرانه .

ولم يزل قائماً بالحق قائلاً بالصدق ، لا يرى في الله لومة لائم ، ولا يسكت
عنّ مقالة الحق بإكثار اللوائم ، إلى أن تُوفي في سنة إحدى وثمانين
وتسع مئة ، ودُفن في تربة مرج الدّحدّاح بالقرب من مزار الشيخ أبي
شامة . وكانت جنازته من أحفل الجنائز وأعظمها . رحمه الله تعالى (١).

(١) هـ ، ب « تعالى رحمة واسمة »

٣

ولده

أحمد بن أحمد بن أحمد الطيبي الصغير

وَلَدُ الَّذِي قَبْلَهُ شَيْخِنَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ أَحْمَدَ .
وهؤلاء الثلاثة مذكورون في هذا التاريخ على الولاء من غير فاصلة .
وقد قرأتُ على الأوسط وهو الكبيرُ وعلى هذا وهو الصغيرُ ، والأول
هو الأكبر لم أدركه ، غير أن قراءتي على الكبير قليلة^(١) ، وأكثر
ما قرأتُ على هذا الصغير .

ماتَ أبوه في التاريخ المذكور . ونشأ ولده هذا في أيام أبيه على
عزّةٍ وقَدْرٍ رفيعٍ ونعمةٍ واسعةٍ . وتولّى مناصبَ أبيه بعده فصار مدرساً
بالعادية الصغرى ، وبيعة مشيخة الإقراء بالجامع الأموي ، وتولّى
إمامة الجامع الأموي . وكان أفقه من أبيه . أفتى بدمشق نحو عشرة
أعوام ، وسلم له أقرانه ومن قبله أيضاً . وكان فقيهاً محدثاً مفسراً
مقرئاً عروضياً حاصباً فرضياً . قرأ هذه العلوم على أبيه ، إلاّ الفقه فإنه
قرأه على النور السنّي المصري ، ولازمه حتى أجازته بالفتوى والتدريس .
وأجازته بالفتوى أيضاً شيخُ الإسلامِ البدرُ الغزّي . شهدته يوماً وقد
كتب صورة استفتاء وأرسله مع رجل إلى (ه آ) شيخ الإسلام المذكور
ليُفتي عليه . فعرف الشيخ خطّه فأرسله من غير إفتاء ، وقال للرجل :
خذ هذا الاستفتاء إلى كاتبه وقل له : يقول لك الشيخ : أفت أنت على
هذا الاستفتاء ، فإنّ الشيخ قد أجازك بذلك .

(١) م « غير أني قرأتُ على الكبير قليلاً » أثبتنا ما في ه ، ب

فلما جاءه الرجلُ ذهب إليَّ الشيخ وقال لي : اذهب معي يا فلان .
فذهبتُ معه . فاستأذن عليَّ الشيخ . فلما رآه قال له : يا شهاب الدين !
أفتِ ، فقد أذنتُ لك في الإفتاء . فقَبَّلَ الطَّيْبِي يدَ الشيخ وبكى ، وقال :
يا سيدي ! جعل الله في عمرك البركة . أَيْفَتِي وَأَنْتِ في المدينة حيِّ تَرْزُقُ ؟
فقال له : والله يا شهاب الدين إِنَّ نَفْسِي لتطيبُ بفتواك . فَأفْتِ ، فقد
أذنتُ لك في ذلك . فتوقف الطَّيْبِي المذكورُ . فألزمه الشيخُ بالكتابة
على الاستفتاء بحضرته . فكتب عليه امتثالاً لأمر الشيخ ، وعرض ما كتب
على الشيخ ، فقال له : أحسنتَ وأصبتَ في ما كتبتَ .

وخرج من عنده ، وشرع في الإفتاء بعد ذلك من غير توقف .
وكان رحمه الله تعالى يباشرُ الدرس [تحت]^(١) القبة بالجامع الأموي
كلَّ يوم بعد الظهر إلى قريب العصر .

وكنتُ قد قرأتُ عليه « الارشاد » للمولى العلامة اسماعيل بن
المقري . وكان يهتم بمطالعة الى الغاية . ولازمته سنين عديدة ليلاً
ونهاراً . وأحببني وجذبني اليه . وكان يصحبني في نزهته وعند الذهاب
الى بعض قرى دمشق للتنزه . وكنتُ أبيتُ عنده في بيته الكائن في
محلة القيرية . وكان ينظم الشعر كثيراً . وكان قد أحبَّ بعض
أحداثِ دمشق وحصل له بسببه ضررٌ عظيم ، حتى قيل إنه كان سبباً
لتلافه ، وإنه سقاه مسؤوماً فلم يزل يمرض حتى صار كالطفل الصغير .
وكان يُحمل الى الحمام فيرى كالطفل الصغير الذي يحمله أبوه الى الحمام .
وباع غالب كتبه في مرضه . وبالجملة فهو ممن تشرفتُ به دمشق .
غير أنه لم تطُلْ به أعوامه ، ولم تصفُ له أيتامه .
وكان له قريبٌ من أولادِ عفيف الدين يُقال له محمد بن عفيف الدين .

(١) الزيادة من ه ، ب

وكان عهد المذكور قد شهد شهادةً نُسبَ فيها الى الزور واختفى ،
فطلب من الشيخ المذكور ، ولم يكن له به علم . وكان حاكم دمشق
حسن^(١) باشا ابن الوزير محمد باشا ، ولم يكن عارفاً بالشيخ أحمد
المذكور . فلما طُلب إليه زجره وطلب منه الرجل المذكور بإزعاج .
وكان الشيخ اسماعيل النابلسي رئيس الجماعة حينئذ ، ولم يكن محباً
للشيخ المذكور . فقال لحسن باشا : إنه لو حلّ إزاره لسقط عهد بن
عفيف الدين منه . ونال بذلك مكروهاً . وخرج للتفتيش على الرجل
المذكور في قرية جبة العسال^(٢) فلم يجده .

وكان يكتب اليّ الشعر الكثير ، وكنت أجيبه عنه . وسأذكر منه
حصّةً إن شاء الله تعالى .

ولقد قال لي مرةً : لا تتعدّ فانّ (ه ب) عندي سمكاً مقلباً ،
وسأرسلُ لك منه . فنذَهَبَ الى البيت فلم يرَ من السمك إلا قليلاً ،
وكان يظنُّ أكثر من ذلك . فأرسل اليّ الموجود وكتب إليّ هذه
الآيات^(٣) :

أقسمُ بالذي السمواتِ سمكُ
لكنّ في العشرِ الأخيرِ من رجبِ
ورثنا يرزقنا من كرمه
وما يُصادُ السمكُ الطريُّ
ونحنُ منه نرتجي الألفافا
لم ألقَ في المنزلِ غيرَ ذا السمكِ
نسيرُ للعدنِ كي ترى العجبِ
فإنه عودنا بنعمه
إلا إذا ساقه الوليُّ
ونطلبُ الإسعادَ والإسافا

(١) النظر كتابنا : ولاية دمشق في العهد العثماني ، ص ١٨

(٢) « جبة عسال » . وهي قرية في جبل قلهون المعروف قديماً بسنير

(٣) « هذه الآيات شعراً »

لازلت بجرأ قاذفاً بالدرِّ عذباً فميراً دافعاً للضرِّ
مَا غرَدَتْ فَوْقَ الغُصُونِ وَذُقْ ولاح من أرض الحبيبِ بَرَقُ
وكان رحمه الله تعالى قد وعدني بشيء فماتيسر انجازه . فكتب اليّ
معتذراً عن عدم الاتمام وأجاد في النظام :

ياسيدي لستُ والرحمن أنساكا فَإِنَّ في خاطري الوهانَ مَنواكا
ولم أكن تاركاً ما قد وعدتُ به فكيف وهو سبيلٌ إليّ^(١) لِلقياكا
فأسمحُ فديتك من خِلِّ الأوذُ به ولا تَكُنْ حاقداً حاشاكا حاشاكا

و كنتُ قد سرتُ الى قرية منين^(٢) ، في سنة تسع مئة وتسعين ،
فكتب اليّ قصيدة يتشوقُ بها اليّ ، ويتشوقُ بضمونها عليّ . وقصيدته
كانت عندي ففقدتها ، وبالغتُ في التفتيش عليها فما وجدتُها . وبلغني
أنها عند زوجته بنت شيخ الاسلام الشهاب الفلّوجي ، فإنها تقرأ وتكتب ،
غير أنّ جوابي له من نظمي عندي مضبوطٌ . فمن ذلك جوابي له عن
قصيدته التي أرسلها إلى قرية منين | قولي |^(٣) :

واهاً لو وجدِ ماله من براحٍ وَمُعَرِّمِ عانٍ كثيرِ النواحِ
وحرٌّ^(٤) شوقٍ نائرٍ زائدٍ إِنْ غرَدَتْ ورقاء عند الصباحِ
شوقاً الى سكاكٍ قلبي وإن غابوا عن العين وزادوا^(٥) انتزاحِ

(١) ساقط من •

(٢) بالفتح والكسر . قرية مشهورة في جبل سنير ، قرية من دمشق . انظر

(معجم البلدان)

(٣) ساقط من •

(٤) في الاصول « حى »

(٥) « زاد »

كم لي اليهم من حينٍ إذا
 ياليت شمري والمنى ضلة
 وهل سميري بربوع الحمى
 لا صبر لي عنهم وإن^(١) اتخذوا
 باحادياً يطوي الفلا سائقاً
 يتم ربوعاً قد سقاها الهدى
 ربوع شيخ العضر من لم يزل
 شهاب أفق الفضل من قد غدت
 وقل له خلفت صباً له
 وقل له خلفته باكياً
 شوقاً لمن لم يرقبوا ذمة
 يطيعني قلبي إذا سمته
 كيف احتيالي في حبيب يرى
 قص جناح القلب صدأ وقد
 دم يا وحيد الدهر في نعمة

يمزق من الغور تراهي ولاح
 هل لي إليهم من رجوع يتاح
 يذكرني عند الوجوه الصباح
 قلبي بأسياف التنافي جراح
 بجيهم^(٢) تلك المطي الطلاح (٦ آ)
 فأطلعت نبت النجا والنجاح
 يهدي البرايا لسبيل^(٣) الفلاح
 به دياجي البحث ذات اتضاح
 شوق^(٤) اليكم ماله من براح
 يسقي بدمع العين ترب البطاح
 كأن تقض العهد منهم مباح
 شوقاً وفي السلوان يبيدي الجماح
 قتلي مباحاً بعد رمي السلاح
 طار إليه بعد قص الجناح
 ما هيج الوجد هبوب الرياح

(١) ه، ب « ولو »

(٢) ه « لجيم » ، ب « لجيم »

(٣) ه « ليل »

(٤) م، ب، ه « شوقاً »

وما تغنت ذات طوقٍ عليّ أغصانٍ دَوَّحٍ في ضحىٍّ أو رواحٍ^(١)

قلتُ : وقد كنت يوماً في بستانٍ مع بعض الخلائن في سنة ثمان
وثمانين وتسع مئة ، فأرسل إليّ^(٢) الشيخ المذكور ، عليه رحمة الملك
الغفور ، أبياتاً وضمن فيها قول الشاعر :

أيها الماطلُ دَينِي أغنيُّ وتماطلُ ؟
عَلَّيْ القلبَ فإني قانعٌ منك بباطلُ

شكايته من خَلِّ كان يواه ويطلب هواه ، ويُعرضُ بعدة
وصال ، نفصها^(٣) المطال . مع القدرة عليها ، والوصول إليها .

واستدعى الجواب سريعاً ، ولم يكن رسوله لعذر التأخير مبيحاً . فأجبتُه
مرنجبلاً ، واعتذرتُ إليه منه خَجِلاً :

مَنْ لدمعٍ فيك سائلٌ وفؤادٍ منك ذاهلٌ
ياغزلاً صرعَ القلبِ بالحاظِ قوا تِلْ
طرفك الفمَّاءُ سيفٌ وعذاراك^(٤) الجمائلُ
إنَّ في طرفك سحراً سحرَ السَّحَرِ بيابِلُ
قدك العسَّالُ^(٥) رُمعٌ وله لحظك عاملُ
مَنْ لقلبٍ فيك مُضنيٌّ مَنْ لخالٍ فيك حائلُ

(١) م « راح »

(٢) سائط من هـ

(٣) هـ « نفصها »

(٤) م ، هـ « عذاراك »

(٥) عسل الرمحُ عسلاً فهو عسَّال إذا اشتدَّ امتزازه (القاموس)

أسهرُ الليلَ وحيِّي راقدٌ في الليلِ غافلٌ
هلُ إلى رَدِّ رُقادي بعد أن غابَ وسايلُ
غابَ عن عيني ولكن لم يزلَ في القلبِ نازلُ
هدمَ القابَ نواه وهو بالأشواقِ آهلُ
فَسَقَى اللهُ زَماني بالحمى غيثَ الموَاطِلِ
حيثُ من أهوى موافٍ والذي أرضاهُ حاصلُ
يا عَشِيَّاتِ التصابي هل زمني بك آيلُ
زلتِ عني وغرامي وسقامي غيرُ زائلُ
قسماً لولا وثوقي بوفاهُ صدرُ الأفاضلِ
بَعْدَ مَتِّ عَذَاباً (١) حيثُ لم تُغنِ الرسائلُ
يا وحيدَ الدهرِ يامنُ جُمعتُ فيه الفضائلُ
لك يا مولاي نَظْمٌ دونه زهرُ الخائلِ (٦ ب)
قد أتى عقداً يُجلي جيدَ نظمي وهو عاطلُ
مَنْ لِمَنلي أن يساوي نظمكم أو أن يماثلُ
فأعذرُنْ إنَّ بقلبي شغلاً لِّلنَّهْمِ شاغلُ
مِنْ زَمَانٍ قَدْ تَرَقَّى في علاه كلُّ سافلُ
وغدا الفاضلُ فيه ساقطَ الرتبةِ خاملُ

(١) ب « غراما »

فاسلَمَنَ يَافخَرَ^(١) دَهري في ذبولِ العزِّ رَافِلُ
حائِزاً ما ترَجِيه عاليَ الرتبةِ كاملُ
ما تَعَنَّتْ ذاتُ طوقِ في ضحَى أو في أصائلِ

قلتُ : وقد خَلَّفَ بنتين ولم يترك ذكراً . وعمر بيت أبيه الذي في [محلّة] ^(٢) القيسرية ، وأجرى إليه الماء . وأخذ حصّةً من الأرض إلى جانب البيت وجعلها جَنِينَةً ، وزرع فيها غالب الفواكه اللطيفة . وعمر مصنع ماء في جانب الجَنِينَةِ ، وتأنَّقَ | في | ^(٣) البيت بالدهانِ والماءِ والغِرَاسِ ، حتى صار نزهةً للعيونِ وفرحةً للقلوبِ المحزونِ . ثم إنه تأثَّلَ وشرى فرساً أصيلاً وبغلةً تنظرُ بعينيَّ باز . ولما ارتفعت له العلاماتُ عُلَّاماتُ . ولما مرتت إليه الدنيا باعها باعها . ولم يزل يترَضُّ ، ولحفرتُه يميل ويتعرَضُّ ، حتى وقع في شبكة المرض ، وفوِّقَتْ إليه سهامُ المِحَنِ كالغَرَضِ . ولم يزل ينقصُ جسمُه ، ويقلُّ من العافية سهمُه ، حتى أخذته الدنيا بأظافِرها ، وساقته إلى حفرةٍ لم يكن يجافرها . وتوفي إلى رحمة الله تعالى في أوّل سنة أربع وتسعين وتسع مئة .

وكنتُ قد أخذتُ تدريسَ الشافعية ، في المدرسة الدرويشية ^(٤) ، في أواخر سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة . وكان المرحوم صاحب الترجمة يقول لي في مرضه : لا تبدأ بالدرس ^(٥) حتى يزول مرضي ، وتحضر صحتي ،

(١) م « يافخري »

(٢) الزيادة من ه ، ب

(٣) ساقط من ه ، ب

(٤) هي جامع الدرويشية الذي بناه درويش باشا والي الشام . والجامع معروف جداً وما يزال قائماً . انظر كتابنا ولاية دمشق في العهد العثماني ص ١٦ ؛

وذيل ثمار المقاصد لأسعد طلس ص ٢١٦

(٥) ه ، ب « الدرس »

وأحضر معك في درس الدرويشية ، وأجعلُ ممطاً عظيماً لابتداء
درسك . فكان يظنُّ أنَّ الحياةَ له عائدة ، وأنه يرى زائره ويتفقد (١)
عائده . ولم يعرف أنَّ الدهرَ قد غيرَ أحواله ، وأنه قد تسلَّطَ على
لونه فأحاله . ودُفنَ في تربة مرج الدحداح عند أبيه وجدته . ولم يكن
ذا معارضة حتى يكون موته فرحاً لضده .

وكان رحمه الله تعالى حليماً كريماً لطيفاً سليماً ، يعفو عن الظالم
ويتباعد عن المظالم ، ويرى العفو مغنياً والعقاب مفرماً . وتعطلت بموته
الدروس ، وتوحشت بوفاته النفوس . فعليه رحمة الله على الدوام ، وسقاه
من رحيق مسكه ختام والسلام .

(١) ب ز د ي تفقد »

٤

شيخ الاسلام أحمد الفلوجي

شيخُ الاسلام علي الاطلاق ، وحافظُ الشام بالاتفاق . مَنْ طار صيتهُ في الآفاق ، وتناقلتْ أحاديثُ فضله الرفاق . كان قد ارتحل أوائل أمره إلى مصر المحروسة هو وأخوه شيخ الاسلام الشيخ محمد الفلوجي ، وطلب وأدرك درجة الفتوى ، وركب كرسياً الوعظ ، ورمقه (٧٧) كلَّ لحظ . وجرت له وقائعُ مع علماء مصر حتى أنهم رموه مرةً عن كرسى الوعظ . نزل رجل أعمى تحت كرسیه وقام به . وكان الغالبُ عليه حفظ المسائل دون التحقيق . ولم يكن بارعاً في العريّة الى الغاية ، بل كان الغالبُ عليه معرفة متون الأحاديث ، وحفظ المسائل الفقهيّة ، وضبطَ أحوال السّير ، إلى غير ذلك . وكان إليه مرجعُ الفتوى ، ويقول للحاضرين من العوامّ وغيرهم : تعلمون أنّ هذه المسئلة لا يعرفها في البلدة غيري . ويحلفُ على ذلك يمينا مغلظةً .

ومرّةً قال (١) : أنا أعلمُ علماء الشافعية الآن .
فإن قلتَ : لانسلمُ بذلك ، وما الدليل على ذلك ؟
قلتُ : لأنّي مدرّس الشافعيّة بالشاميّة البرانيّة (٢) ، وهي مشرّوطة لأعلم علماء الشافعية . فلو لم أكن أعلمهم لما توليتُها .
وكان إماماً بالجامع الأمويّ ، يقرأ بالقراءات السبع ، ويدّعي معرفة النغمات المختلفة . وكان يجيّل لنفسه أنه يعرفها معرفة تامّة .

(١) هـ « وقال مرة »

(٢) انظر النعيمي ١ : ٢٧٧ ؛ وخطط دمشق ص ٧٣ .

وكان يكتبُ على حواشي كتبه كلمات غريبة : منها أنه كتبَ مرة على حواشي « شرح الروض » قوله : قلتُ وهذه مسألة تقتضي أن بيتنا مُعاف^(١) من العوارض . وكتب في مكان آخر : قلت وهذه مسألة تؤدُّ على خصمي ابن عبد الحق المصري وهي التي كانت^(٢) سبباً لإلقائي عن الكرسي بمصر في سنة كذا .

وحاصل الأمر أنه كان في أيامه بركة للمسلمين وهداية الضالين .

دُفن في تربة باب الصغير في سنة إحدى وثمانين وتسع مئة . رحمه الله رحمة واسعة . وكانت جنازته في غاية الوجاهة والعظمة^(٣) . رحمه الله تعالى .

(١) « معاف »

(٢) ساقط من .

(٣) « العظمة » .

٥

الشيخ أحمد شهاب الدين الغزوي

شيخ الاسلام ابن شيخ الاسلام ابن شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد
ابن بدر الدين محمد بن رضي الدين محمد الغزوي العامري القرشي . ولد شيخ
الاسلام البدر الغزوي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

شيخٌ درج من حَجَرِ العلوم ، ورضع من ثديها درَّ المنطوقِ والمفهوم ،
تحنَّك بالفصاحة عندما كان طفلاً ، وارتدى برداءِ الكلماتِ بافعاً وكهلاً .
كان رحمه الله تعالى قد نشأ في حجر والده ، وأنفق عليه ماملكته يده
من طريقه وتالده ، الى أن صار في العلم علماً ، وأصبح الحُجَّاجِ كعبةِ
الفضلِ حرماً . ودرّس بعدة مدارس ، ورَبَعَ كماله بالتقوى ليس بدارس ،
حتى إنه مات وهو مدرسٌ بالمدرسة الشاميَّة الجواتانية (١) . وعنه أُعطيتُ
لوالده ضمنية الى المدرسة التقويَّة (٢) . كما ذكرنا ذلك في ترجمته . وكان
الغالبُ عليه طريقَ الانطراح وعدمِ التكلِّف . كان يجالسُ الفقراء الذين
لا يؤوبه بهم . وكانت دمعته سريعة . كان فقيهاً أصولياً فرضياً (٧ ب)
عالماً بموادِّ التفسير . وله الشعرُ الحسنُ والكلماتُ المقبولة . وقرأ على والده
جميع مصنَّفاتهِ . وله في آخر كلِّ كتابٍ منها اجازة خاصة .

ولقد رأيتُه مرَّةً خرج من عند أبيه من حجرته الحليَّة ويبيده
كتابٌ وهو يضحك . فسأله الحاضرون عن سبب الضحك فقال : أضحك

(١) انظر عنها النعيمي ١ : ٣٠١

(٢) انظر عنها النعيمي ١ : ٢١٦

فرحاً برضى سيدي ووالدي عليّ . كتب لي إجازةً في آخر مؤلفه هذا
وصرح فيها بالرضى عني ، والحمد لله على ذلك .

وأعطاني الكتاب في يدي فنظرتُ إليه فإذا هو نظمٌ « جمع الجوامع »
المسّمى « بهنّج الهوامع » ، نظم جدّ صاحب الترجمة . هو القاضي رضيّ
الدين . وشرحه ولده البدر الغزيّ . وقرأ الشرح على مؤلفه البدر ولده
الشهابُ صاحب الترجمة وكتب له بذلك إجازةً بخطّه منظومة ، وصرّح
فيها بالرضى عنه . وكان فرحه لذلك .

وبالله لقد سمعته في حال حياته يقول : اللهمّ أمّتي في حياة سيدي .
يريد والده . فاستجاب الله تعالى دعاءه ومات قبله في سنة ثلاث وثمانين وتسع
مئة . وكان أمير الأمراء بالشام جعفر باشا مريني^(١) السلطان . فحضر الى
الجامع الأموي ، وصلى على الشهاب الغزي المذكور . ولم يتمكن والده
الكبير الغزي من التوجه الى المقبرة مع الجنائز لزمّانة كانت قد
لحقت في آخر عمره . فحمّله الناس الى جهة باب الزيادة بالجامع^(٢) .
فصلى على ولده هناك ورجع ، والناس يحفّون^(٣) به ويقبلون يده ويعزّونه ،
وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون^(٤) ، حسبى الله ونعم الوكيل^(٥) ،
ما شاء الله لا قوة إلا بالله^(٦) ﴾ .

ورأيتُ جعفر باشا المذكور يقبل يد الشيخ كثيراً الى أن وقعت
تقبيلة على يد رجل صالح من حاملي الشيخ .

(١) م « سري » خطأ . وكان هذا الأمير يسمّى لالا جعفر باشا . انظر كتابنا :

ولاية دمشق في العهد العثماني ص ١٧ ، ١٨

(٢) هو الباب الجنوبي لجامع دمشق . انظر كتابنا مسجد دمشق

(٣) م « محتفون »

(٤) سورة البقرة ، ٢ : الآية ١٥٦

(٥) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٧٣

(٦) سورة الكهف ، ١٨ ، الآية ٤٠

وكان الشاب المذكور صاحبَ أحوالٍ ظاهرةٍ وكالاتٍ باهرة . كان كثير الزياراتِ للصالحين أحياءً وأمواتاً . وكان يحضر مجالس^(١) الذكر ويبكي بها ويتواجد . وكان ضعيفَ الجسد ، قليلَ الأكل إلى الغاية . وكان متقللاً من مِلَازمة الدنيا . وكان قد أمرني والداه البدرُ الغزالي أن أقرأ عليه ، فقرأتُ عليه بإشارته « شرح الورقات في الأصول » لابن خطيب الكاملية .

وله الشعرُ الحسن . فمنه قوله :

طُورُ التمرِ سُنَّةُ رسولِ الله سُنَّةُ
ينالُ الأجرَ شخصٌ يُحلي منه سِنَّةُ

وله أيضاً | رحمه الله تعالى |^(٢):

إِمَاتَةٌ نَفْسِي فِي مَطَالَعَةِ الْإِحْيَاءِ^(٣) وَاحْيَاءُ رُوحِي فِي مَشَاهِدَةِ الْمَحْيَا^(٤)
فِيَارِبَ هَذَا دَابُّ عَبْدِكَ دَائِمًا وَدَيْدُنُهُ مَادَامَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

وهكذا كان في دنياه ملازماً لمطالعة الإحياء وللازمة المحيَا .

ولقد كان يتعهدُ (آ ٨) زيارة مسجدِ بجملة السليمانية^(٥) شمالي باب الفراديس . وكان قديماً أخبرني أن والده أخبره عن والده القاضي رضي الدين أنه رأى القطب في ذلك المسجد . وكان ناظرُ المسجد كثيراً ما يقفله ويتركه معطلاً^(٦) . فذهبنا مع الشيخ يوماً لزيارة المسجد المذكور ، فدخلنا إليه ،

(١) م « مجلس »

(٢) ساقط من ه ، ب

(٣) يعني أحياء علوم الدين للغزالي

(٤) يعني منار النبي يحيى بن زكريا في المسجد الأموي

(٥) هذه الحجة بقرب العقبة . النظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق .

(٦) م « مفغولا »

فوجد الشيخ حاله مضجِعًا . فقال الشيخُ لناظره : هلاًَّ عَمَرْت هذا المسجد الذي تأكلُ وقفه وتخرّب سقفه ؟ فقال له الناظر : ياسيدي أنا خنزرتُ . يريدُ بنيتُ سنادة^(١) للحائط . وهم يسمّونها خنزرة . وتكرّر هذا الجواب من الناظر مرّات . فقال الشيخ رحمه الله تعالى هذين البيتين وكتبها على حائط المسجد :

وما نِعِ مسجدٍ ذِكراً عليه الظلم أنكرتُ
إذا ما قلتُ عمّره يقولُ الكلبُ خنزرتُ

ومن لطائفه أنه رأى يوماً جمال الدين الجمال الفرفوريّ الآتي ذكره إن شاء تعالى وفي يده كتاب . وكان الجمالُ المذكور صاحبَ الجمال الذي يُبهر الأعمارَ بأنواره ، والروضَ عندما يتجلّى بنوَّاره ، حسناً وجمالاً ، ولطفاً وكلاماً . فقال له : ياسيدي ما كتابك ؟

فقال : « ألفيّة ابن مالك » في النحو .

فقال : في أيّ باب تقرأ ؟

فقال : في أفعال القلوب .

فقال له : كم لك في القلوب أفعال !

ومن لطائفه أيضاً أنّ صاحبنا الشيخ مصطفى العجمي الحلبي ، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، طلب من الشيخ إعادة « شرح المرادي على ألفيّة ابن مالك » . وكان به يَعدّه ، وهو بالطلب يتعهّده . فقال له عند تكرّر الطلب في النادي : مرادي منك نسيانُ المرادي . فلم الإشارة من قوله هذا .

وآخرُ لفظٍ سمعته [منه]^(٢) حديثٌ شريفٌ . وذلك اني كنت

(١) ه ، ب « ستارة »

(٢) زيادة من ه

جالساً قريباً من باب السلسلة^(١) من جانب الإيوان الشرقي ، فرأيتُه مقبلاً من جهة حجرة أبيه منفرداً ، وعليه آثارُ الضعف . فاستقبلته وقبّلتُ يده . فدعاني وقال لي : رَوَيْنَا بِالسَّنَدِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ ، وَتَأَدَّبُوا مَعَ مَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ . وَمَضَى .

ففي اليوم الثاني دخل حَمَّامَ السَّلْسَلَةِ الْكَبِيرِ^(٢) وَقَفَّ الْحَانِقَاهُ الشَّيْصَاتِيَّةَ^(٣) ، فَمَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا مَيْتًا . فَمَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُتَطَهِّرًا مُتَوَرِّدًا ، وَدُفِنَ فِي تَرْبَةِ حَضْرَةِ سَيِّدِي الشَّيْخِ رَسْلَانَ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَقَبْرُ أَبِيهِ هُنَاكَ أَيْضًا . وَلَمْ تَنْظُرْ عَيْنَايَ مِثْلَ جَنَازَتِهِ أَبَدًا لِأَقْبَلُهُ وَلَا بَعْدَهُ . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

ورثاه الشيخُ محمد الصالحى الملاي ، حفظه الله تعالى ، بقصيدة قافية حسنة ومطلعها :

سَفَحْنَا لِدُرٍّ^(٥) الدَّمْعَ قَبْلَ عَقِيْقِهِ إِلَى أَنْ جَرَى الْوَادِيَّ وَسَفَحَ عَقِيْقَهُ

(٨ ب) وَهِيَ قَصِيْدَةٌ لَطِيْفَةٌ فِي بَابِهَا . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ .
وَأَنْشَدَنِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَلَا أُدْرِي هَلْ هُمَا لَهُ أَمْ تَمْتَلِ بِهِنَّ وَهُمَا :

(١) هُوَ الْبَابُ الشَّمَالِيُّ فِي الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ . انْظُرْ كِتَابَنَا مَعْجَمَ الْأَمَاكِنِ الطَّبَوغَرَانِيَّةِ بِدِمَشْقِ
(٢) فِي الْمَهَارَةِ الْجَوَانِيَّةِ ، شَرْقَ الْمَدْرَسَةِ الْإِخْنَائِيَّةِ ، فِي الطَّرِيقِ الْآخِذَةِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ
الشَّرِيفِيَّةِ الْخَنْبَلِيَّةِ . انْظُرْ كِتَابَنَا حَمَامَاتِ دِمَشْقِ ص ٢٠

(٣) انْظُرْ عَنْهَا النَّعِيمِي ٢ : ١٥١

(٤) تَرْبَةٌ تَقَعُ أَمَامَ بَابِ نَوْمَا . إِلَى الشَّرْقِ . (انْظُرْ خَطَطَ دِمَشْقِ) تَنْسَبُ إِلَى
الشَّيْخِ أَرْسَلَانَ الدَّمَشْقِيِّ مِنْ كِبَارِ الصُّوفِيَّةِ الدَّمَشْقِيَّةِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ .

(٥) كَذَا بِإِدْخَالِ اللَّامِ عَلَى دُرٍّ .

قصدتُ أبا المحاسن كي أراه بشوق ككاد يجذيني إليه
فلما أن رأيتُ وأيتُ فرداً ولم أر من بنيه أبناً لديه^(١)

وله في مدح صاحبه وتليذه الأمير عبد اللطيف بن منبجك رحمه الله تعالى :

الأسمُ عينُ المسمى دليلُ قولي لمن شكُ

لطفٌ وظرفٌ حواءُ عبدُ اللطيف بن منبجكُ

رحمه الله ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين .

(١) أي لم يجد لديه محاسن .

٦

الشيخ أحمد شهاب الدين القابوني

هو الشيخُ الصالحُ ، الفاضلُ الفالِحُ ، المقرئُ الفقيهُ ، الكاملُ النبيهُ ،
تلميذُ شيخِ الاسلامِ الطيبي الكبير ، المذكور بين الأكبر والصغير ^(١) .

| كان من القابون الأعلى ^(٢) بالقرب من دمشق . فطلب العلم وتفقه على
مذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه . وغالب قراءته على الشيخ
الطيبي المذكور | ^(٣) .

قرأ عليه القراءاتِ والفقهَ والنحوَ والفرائضَ والحسابَ ، ولازمه
ما يزيد ^(٤) على ثلاثين سنة . وكان غايةً في الصلاح . والعجبُ أن
كان يؤمُّ في مسجد القابون الأعلى مدةً ويحضرُ الى دمشق كلَّ يومٍ
لقراءة الدرس على شيخه المذكور ، ويطلع الى القابون بالقباب ويعودُ
الى دمشق . ولم يزل على ذلك حتى انقطع عن القابون ، واستقلَّ بخدمة
شيخه المذكور وبمطالعة الدروس . الى أن درَّس بالمدرسة الكلاسة ^(٥)
بدمشق . وصارت له بقعةٌ تدريسٍ بالجامع الأموي ، وأمٌّ بالمدرسة
المسارية ^(٦) بمحلة القيسرية ، وأعاد عند شيخ الاسلام البدر الغزي الآتي
ذكره بالمدرسة التقوية ^(٧) ، واستمر مُعيداً بها الى أن مات .

(١) ب ، هـ « المتقدم ذكره » بدلاً من « المذكور بين الأكبر والصغير »

(٢) قرية مشهورة من قرى غوطة دمشق . انظر : غوطة دمشق لكردي علي

(٣) ما بين الخطين القائمين ساقط من هـ

(٤) ب ، م « ولازمه على ما يزيد »

(٥) انظر النجدي ١ : ٤٤٧

(٦) انظر النجدي ٢ : ١١٤

(٧) المصدر السابق ١ : ٢١٦

وكان دائماً يخاطبُ الشيخ المذكور بعد تمام درس التفسير بقوله :
أجزتم رضي الله تعالى عنكم لمن حضر وسمع أن يرويه عنكم ، وجميع
ما تجوز لكم روايته بشروطه عند أهله ؟

فيقول له الشيخُ : نعم .

وكان دائماً يتلو محاسن شيخه الطيبي المذكور حتى كأنها وردت .
وكان يبكي عند ذكره .

حكى لي من لفظه أنه كانت له خزانةٌ صغيرة بالجامع الأموي .
وكان الشيخ دائماً يجعل له الطعام من بيته بمحلة القيسرية الى الخزانة .
فيأتي من القابون فيجد الطعام فيأكله . ففي يوم من الأيام لم يكن عند
الشيخ طعام سوى الحمص المتبل ، فأحضر له منه حصّةً الى الخزانة وكتب
له ورقة صغيرة يقول فيها :

الأخ الأجد ، الشيخ أحمد^(١) ، يتصرف في الطعام ويعذر ، فإنّ أهل
الشام يقولون : أطيب الطيبات ، الحمص إذا بات .

وسار شيخنا العماد الحنفي رضي الله عنه الى قرية بالمرج^(٢) ومرّنا معه ،
وسار معنا الشيخ الشهاب القابوني . وكانت الجماعة يتذكرون الأشعار الحسنة .
وكان (٩ آ) الشيخ القابوني المذكور ساكتاً لأنه كان بالنسبة الى الشعر من
قوم لا يشعرون . فقال له شيخنا : يا شيخ شهاب الدين ! ما بالك ساكتاً ؟
فقال : اسمعوا لي ما أحفظه للبهاء زهير ، فأنشد :

مالي أراك أضعتني وحفظت غيري كلّ حفظ
فظّ عليّ ولم تكن يوماً على أحدٍ بنظ
هذا لعمركُ أياك من جور الزّمان وسوء حظي

(١) وردت هذه العبارة من قبل في الترجمة الثانية هكذا « الأخ العزيز الشيخ احمد »

(٢) يقصد المرج الملاصق لنوطة دمشق .

فاستحسن الحاضرون منه ذلك ، وتعجبوا من كونه يروي مثل هذا
الشعر ، مع أنه كان دائماً يقول : أنا فقيهُ جبيل . وكان شيخنا يقول له :
نعم ، أنت جبيلٌ من حجر .
وكان يفرحُ بذلك ويقول : استغفر الله يامولانا .
الى غير ذلك من مكارم أخلاقه ، لازال فائزاً بالرحمة من خلّاقه .
دُفن رحمه الله تعالى بتربة مرج الدحداح رحمه الله تعالى .

٧

الشيخ الصالح المسلك الفالح الشيخ
أحمد بن سليمان^(١) الدمشقي الصوفي القادري

كان والد المذكور الشيخ سليمان رجلاً صالحاً يتقوت من كسب يمينه في نسج الصوف . وكان تشرّف بدين الاسلام . وكان ولده الشيخ أحمد المذكور ينقل عنه كراماتٍ عجيبة يعلمُ الله تعالى حقيقتها . ونشأ ولده هذا على مجاهداتٍ وعبادات . واستمر في محلة السلاحة^(٢) بدمشق . وانتقل الى القليجية^(٣) بدمشق . وعزّل التراب الذي كان بها من بقايا الحراب في فتنة اللنك ، وقطن بها ، وأسكن في حجراتها^(٤) عدةً من الفقراء . وكان عاقلاً واسعاً ، قليل التردد الى الحكام . وكان يُقيم حلقة الذكر بالجامع الأموي يوم الجمعة بعد الصلاة عند باب الخطابة^(٥) . وكان يقيها بالمدرسة المذكورة يوم الاثنين بعد العصر .

والمدرسة المذكورة تُعرف الآن بجزار سيدي سيف الدين . وسيف الدين هذا هو الأمير سيف الدين الاسفهلار الأمير الكبير المجاهد المرابط .

(١) انظر المحبّي ، خلاصة ١ : ٢٠٧

(٢) محلّة تقع اليوم من شمال قبر السيدة رابعة الى قرب باب السلامة . انظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق . وقد ذكرها ابن طولون في حارات دمشق .

(٣) انظر النعمي ١ : ٤٣٤

(٤) م « حجرتها »

(٥) انظر كتابنا مسجد دمشق

كان من الأمراء النورية . وكانت له فضيلة " زائدة " . وبطل على تربته
شبتا كان ، على رأس كل واحدٍ منها حجرٌ فيه أسطرٌ منقوشة . فأمّا
الأوّل فعليه من الكتابة هكذا : « قال ^(١) الأمير الكبيرُ المجاهدُ المرابطُ
الاسفهلار [السعيد الشهيد] ^(٢) سيف الدين بن علي بن قليج [بن عبد الله] ^(٣)
رحمه الله تعالى هذه الأبيات وأمر أن تُكتب على قبره » .

وعلى الحجر الثاني الأبيات وهي :

هذه دارنا التي نحن فيها دارُ حقٍّ وما سواها يزولُ
فأعتمرُ ما استطعت داراً اليها عن قريبٍ يُفزي بك التحويلُ
وأعتمدُ صالحاً يؤانسك فيها مثلما يؤنسُ الخليلَ الخليلُ

(٩ ب) واستمر الشيخُ أحمد المذكور بالمدرسة المذكورة مدة عمره .
وكان يتعاطى الاصلاح بين الناس . وكانت له حَفْدَةٌ ^(٣) يأخذون بمنّ
يحضر عندهم بعض دراهم ويقولون : لأجل زيتِ الزاوية . وخلف الشيخُ
ولداً صغيراً يُقال له عبد القادر . وهو من بنت قاضي القضاة ابن الفرفور .
فإنّ الشيخ المذكور قد تزوج ثنتين من بنات الفرفور ، فأعقب من الثانية
الولد المذكور . وهو الآن مقيم مع والدته وبعض أتباعهم بالمدرسة المذكورة .
ويتعاطى الذكر على عادة أبيه .

وحاصل الأمر أنّه كان من محاسن دمشق . وكانت له كلماتٌ في

(١) انظر *Répertoire d'épigraphie arabe* الجزء الحادي عشر : ١٧٨ ؛
وذيل ثمار المقاصد ص ٢٤٦ ؛ وخطط دمشق ص ٩٦ والمصادر
المذكورة فيه .

(٢) الزيادة من الكتابة نفسها التي رجعنا اليها . وانظر المصادر السابقة .

(٣) م « حضرة »

التصوف راثقة ، وعبادات رشيقة فائقة . ودفن في مدفن الأمير سيف الدين بالمدرسة المذكورة .

ولقد شاهدت له واقعة ربما تدل على كرامة . وهي أنه كان له مرید ملازم له مدة طويلاً يُقال له ناصر بن عبدان . وكان ناصر هذا دنيء المقام في أوّل أمره . فلما اختصّ بخدمة الشيخ المذكور صارت له وجاهة بين الناس . فكان يُغلظ الكلام على بعضهم بسبب حضورهم لهصالحه . فأثر ذلك في خوراطر بعض الناس حتى إن الشيخ نفسه كان ينصحه في ذلك فلم ينتصح . فلزم أن خاطر الشيخ تغيير عليه ، فوقع بينها كلام أدّى الى سوء أدب من ناصر في حقّ شيخه . فقال له الشيخ كلاماً معناه : يا ناصر ! أنت في حياتي ماعليك خوف ، وإنما أخاف عليك بعد وفاتي . فقال له ناصر المذكور : أنا بعدك ماأجلس في دمشق .

فما انقل الشيخ بالوفاة الى رحمة الله تعالى أقلع ناصر عن بعض وقوعه في الناس ، ، ولكنّ الطبع أغلب . فصدرت ماجرية بين الشيخ عمر القاري والسيد محمد بن المرحوم السيد حسين بن حمزة بسبب وقف بني مزلقى أدت الى مخاصمة بينهما . وكان ناصر من أتباع السيد محمد المذكور . فلم تزل نار هذه الفتنة تشتعل لأمر يطول شرحها حتى أدت الى القبض على ناصر المذكور . وجعل القاضي محبّ الدين قاضياً ، وصدرت^(١) الدعوى على ناصر بأنه مفسد في الأرض . وأبرز المدعي عليه حكّمين سلطانيين بصلبه . وكتب عليه ما شهدت به الشهود الذين أحضروا للشهادة . فصلبه الباشا المذكور تحت قلعة^(٢) دمشق في سنة ثمان بعد الألف . فخطر للناس ما حذر به شيخه في حال حياته ، بل أخبرني بعض

(١) م « صارت »

(٢) انظر عن « تحت القلعة » نزهة الانام للبدرى ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ ومعجم الاماكن الطبوغرافية لنا .

الناس أنه أخبره بهذه الواقعة على الصورة التي حصلت ، فدَلَّ ذلك على كرامة الشيخ .

وبالجملة لقد طالت خدمته لطريق الله جلَّ وعلا . وكان يلازم الإصلاح بين الناس ، وعظم صيته وارتفع قدره ، الى أن صارت الأمراء والحكام يقصدونه للزيارة . وكان رحمه الله تعالى من أحسن أهل الطريق في زمانه . رحمه الله رحمة وافية ، وأسكنه الجنة العالية (١٠ آ) ، بمنته وكومه آمين . وكانت وفاة الشيخ أحمد المذكور في رمضان من سنة خمسٍ بعد الألف . رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وسقى قبره سحائب الرحمة الهامعة . آمين .

٨

الشيخ الصالح أحمد ابن الشيخ حسين ابن الشيخ حسن
الشهير بابن سعد الدين الجباوي الحوراني

كانوا أولاً في قرية جَبَا^(١) تبعاً لجدّهم الأعلى الشيخ سعد الدين الجباوي
قدس | الله |^(٢) سره العزيز ، فارتحل الشيخ حسن المذكور الى قرية يقال
عنها بيت جن^(٣) : ثم ارتحل إلى دمشق فسكن في محلة القُبَيْبَات^(٤)
وعمر هناك زاوية^(٥) وقطن بها .

فلما توفي الشيخ حسن المذكور جلس على سجاده وولداه الشيخ حسين
المذكور فطالت مدّته ، وحمدت سيرته .

ثم لما توفي الشيخ حسين المذكور جلس على سجاده وولداه الشيخ أحمد
صاحب الترجمة . فنشأ غايةً في الدين والصلاح ، والكرم والصلاح .
واشتهرت له كراماتٌ بين الناس ، وكان في الكرم حاتم زمانه ، وفريد أقرانه .
أخبرني عنه غير واحدٍ ممن رآه أنه كان يتعرّى من قميصه ويتصدق
به . وكان متقللاً من اللباس إلى الغاية . وطالت مدته وهو شيخ على
طريقة أسلافه . ومن طريقتهم أن الشيخ منهم يحضر إليه من يريد الإنابة

(١) قرية في حوران

(٢) ساقطة من هـ

(٣) ناحية في جبل حرمون المعروف الآن بجبل الشيخ . انظر كتاب الريف السوري

(٤) محلة تقع اليوم في الميدان الفوقاني . انظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق

(٥) انظر عنها : ذيل ثمار المقاصد ، ص ٢٥٣ ؛ و

Sauvaget *Monuments Historiques de Damas*, p. 81

والنعمي ٢ : ٢٢١

بين يديه فيجلسه أمامه ويقص له خصلةً من شعر رأسه ويقول له :
أعاهدك عهداً الله تعالى على أن تكون فقير الشيخ سعد الدين ، قدس
الله |^(١) روحه ، على الدين والتقوى ، والحائز نجوئه الله تعالى . فيقول
المريد : نعم . ثم إن المريد يتواجد . وقد يقع على الأرض بعد التواجد
كالخشب . فيأتي إليه نقيباً يقولان له : قم على بركات الشيخ سعد الدين
قدس الله روحه . فيستغفر الله تعالى ويقوم . وهكذا يفعل كل مريد
لهؤلاء الطائفة عند الوقوع والتواجد .

ومن طريقهم أن الشيخ منهم يخط خطوطاً في ورقة لا يعلم منها
حروف في الظاهر ، ويدفعها للمريض فيأخذها معتقداً ، ويأمره الشيخ
بالحمية . وقد يقص له الورقة على مقادير صغيرة ويأمره بأن يشرب كل
يوم واحدة . وفي الغالب تنتج أوراقه ببركة السلف .

ويقال إن من كان مملوساً من الجن يكتبون له ويحمونه من
الزفر^(٢) فيشفى .

وكذا يقال عن بعض المقعدين أنه يقوم بتعويذاتهم كما يأمرونه في
شروطها .

وحاصل الأمر أن طريقهم شائعة في بلاد الشام .
واستمر الشيخ أحمد المذكور ملازماً على الجلوس بزوايتهم بمحلة
القبيبات خارج دمشق الى أن توفاه الله تعالى في سنة ثلاث وستين وتسع
مئة . ودفن خارج دمشق (١٠ ب) باب الله بترية^(٣) القبيبات . وقبره هناك
معروف يُزار ويتبرك به .

(١) سائط من هـ

(٢) تطلق هذه الكلمة في اصطلاح الدماشقة على المآكل الدسمة .

(٣) انظر كتابنا خطط دمشق ص ١١٨

وحكى عنه أهل زمانه كراماتٍ عجيبة وأحوالاً غريبة ، تدلّ على أنه كان والياً على مصر (كذا) الولاية ، بالغاً الى رتبة العناية .

فمن جملة ما نقل عنه من الكرامات ما رأيتُه في الكتاب المسمى « بالمحمدية »^(١) في أحوال الفقراء السعدية . قال مؤلفها : مرنا معه الى بيت المقدس في سنة شيء وخمسين ، فبينما نحن سائرون في القرب من طبرية وإذا بغزال كبير مطرود دخل بين الجماعة فمَسكوه . وإذا بعبدٍ أسود في يده خنجر مسلول ، وهو يقول : اين الغزال ؟ فتقدّم ليأخذه قهراً . فقال الشيخ أحمد لبعض جماعته : اضربه على يده التي بها السكين . فضربه ، فوقعت السكين من يده . ويبتدئ يده حتى ما يستطيع تحريكها . فبكى وذهب الى قريته وأتى بأهلها . وكان سيّده شيخ القرية المذكورة . فطلبوا من حضرة الشيخ أن يرضى عن العبد . فقال : في الذكر . فطبخوا الغزال وأكلوا منه . وقام الذكر فدخل العبدُ الحلقة . ولما حمي الذكر كبّسَ الشيخُ يد العبد فرجعت الى ما كانت عليه . ووقع كبقية الفقراء . وصار من أصلحهم . فاعلم ذلك .

ثم جلس بعده على سجّادته أخوه الشيخ سعد الدين الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

٩

شيخ الإسلام مفتي الأنام أحمد بن يونس العيشاوي^(١)

هو^(٢) الشيخ الذي ظهر فقهه كالشمس في رابعة النهار ، وجر صلاحه حتى علم به غالب أهل الأقطار . وهو مفتي دمشق وابن مفتيها ، وخطيبها وابن خطيبها . ووالده الشيخ يونس العيشاوي ، وسنذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى .

ورد أبوه من قرية عيـثا - وهي من قرى بقاع العزيز - من نواحي دمشق الشام . ونشأ في بعض مدارسها ، ونشأ ولده صاحب الترجمة أحمد كاسمه ، مستقيماً كفه .

قرأ الفقه على والده ، وحاز به طارف المجد كتالده . ثم قرأ أيضاً القراءات وغيرها على الشيخ أحمد الطيبي الكبير . ولزم درس الشيخ النور السنفي المصري بتقديم السين ، حتى اجازه بالفتوى . ولما قدمت مع أبي من زيارة بيت المقدس في سنة ثمانين وتسع مئة حضرت إليه طالباً قرآنة الفقه عليه . فقال لي : اقرأ « المنهاج » تقسيماً مع الإخوان ، وبذلك يحصل المرام بالعجلة من غير توان .

فقلت له : سمعاً وطاعة ، لا مخالفة لأمرك ولا إضاعة .

فشرعنا في القراءة على أربعة أقسام ، وكانت حصتي الربع الأخير

(١) انظر المحي ، خلاصة الاثر ١ : ٣٧١

(٢) يوجد اختلاف كبير في نص هذه الترجمة هنا ونصها في ب ، ه . اثبتنا نص

ه ، ب في ذيل هذه الترجمة ، للموازنة بينها .

من « منہاج النووي » الإمام . فأتمناه في مدّةٍ قصيرة ، وحصلنا بقرآته فوائد كثيرة . وكانت القراءة بالمدرسۃ الظاہریۃ^(١) ، المشروطة للشافعية . وكان صاحبنا (١١١ آ) البدر بن الموصلي* يحضر الدرس ، وله قسمٌ خاص ، بل هو من أكبر القراء الخواص ، لأنه ابن أخت الشيخ أحمد المذكور . وسيأتي ذكره بلطف الملك الغفور . وهو اليوم في هذا التاريخ - وهو سنة تسع عشرة بعد الألف - مفتي دمشق على مذهب الإمام محمد ابن إدريس ، وواعظها وصاحبٌ نصيحتها بالتحقيق من غير تلبس . وقد أجازني بالفتوى من سنة ألف من الهجرة . ولما أنسى لطفه في ذلك ولا جبره . فإنته خاطبني بذلك غير طالب ، وعدّ ذلك في اهتمامه به من أعظم المطالب . وصدرت منه لي لطيفةٌ ، وذلك أنه اطلع على أنني طالبٌ للإحصان ، فقال لي : عندي حصان . وهي أختٌ أمٌّ أولادي ، وهما بنتا الشيخ محمود الصناديقي . فإن رمت أن تكونَ عديلي ، كما أنك خليلي ، فاعزم على ذلك ، واجزم بما هنالك . فأجبتُه على سؤاله ، وتقرّبتُ الى كماله . وعقدتُ نكاحي على أخت زوجته ، وكان ذلك من فضله وفي بيته . وبنيتُ بها في سنة اثنتين وتسعين وتسع مئة ، وجعل لي عرساً عظيماً ، وكان بي في الكلفة رحماً . لا يكلفني سوى الطاقة ، ولا يجعلُ في مطلوبِ صعبٍ عليّ عاقبةً ، بل كان يزن من كيسه مظهرًا البشاشة لا التعيسة . وكان العرسُ في بيته القديم في حكر كمال الدين^(٢) . ثم سكنتُ في بيت أهلي بمحلة النحاسين^(٣) . وحصل بقربه البركة ، في السكون والحركة . وكان قد ضعف واعتلّ ، وطالت ملازمته للفراش حتى ملّ . فأعدنا عيادته ،

(١) انظر النعمي ، ١ : ٣٤٨

(٢) لم أهد الى معرفة مكان هذا الحكر اليوم .

(٣) كانت محلة النحاسين مكان زقاق النقيب شمال المدرسة المقدّمية الجوّانية بالعمارة .

انظر معجم الاماكن الطبوغرافية .

وطلبنا من الله سلامته . فلما ظهرت عليه امارات الشفا ، حمدنا الله الذي
أعطاه الصحة وسقى . وأرسلتُ إليه هذين البيتين وهما :

شباب المعالي وبذر^(١) الهدى ومن منه كلُّ الورى يستفيد
نذرتُ الصيامَ ليومِ الشفا وكيف يصومُ الفتى يومَ عيد

وقد قرأ عليه كثيرٌ من الفقهاء واستفادوا منه ، بل كلُّ مَنْ يطلب
الفة على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه فإنه يأخذ عنه .
أخذ عنه الشمسُ الميداني أحدُ مَنْ يُفتي الآن بدمشق على مذهب
الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وأخذ عنه أيضا صاحبنا البدرُ الموصلي ، وهو ابن اخته ، وهو الآن
مدرس بالمدرسة الجوزية^(٢) .

وأخذ عنه أيضا صاحبنا الشمسُ الجوخى المدرس بالمدرسة الغزالية^(٣) .
وأخذ عنه كاتب الحروف الفقير حسن البوريني المدرس بالمدرسة
الناصرية الجواتية^(٤) .

وأخذ عنه بليده الكمال العيثاوي الشافعي . وهو أيضا يتعرض
للفقوى على مذهب الشافعي .

وبالجملة فهو مفتي دمشق وواعظها ، وبركتها وإمامها ، ومرجع أهلها
في الأمور الدينية . وإذا أُجذب أهلُ دمشق فهو الذي يصلّي بهم صلاة
الاستسقاء ، ويخطب (١١ ب) خطبة الاستسقاء . وهو اليوم قاطنٌ بالترية

(١) م « رب »

(٢) انظر النعمي ، ٢ : ٢٩

(٣) انظر المصدر السابق ١ : ٤١٣

(٤) انظر المصدر السابق ١ : ٤٥٩

الأشرفية^(١) . الملاصقة لجامع بني أمية من الجهة الشمالية . جعل الله في عمره البركة ، وأعطاه التوفيق في السكون والحركة ، إنه سبحانه سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات^(٢) .

(١) انظر النعيمي ٢ : ٢٩١ .

(٢) وها هو ذا نصّ الترجمة كما ورد في ه ، ب . انظر ما ذكرناه في مقدمتنا عن الاختلاف بينها :

شيخ الاسلام احمد العيشاوي

هو أحمد بن الشيخ العلامة شيخ الاسلام يونس العيشاوي ، نسبة الى عيشا ، قرية من قرى البقاع العزيز من نواحي دمشق الشام . كان والده المذكور قدم من قرينته المذكورة كما سيأتي تفصيل حاله إن شاء الله تعالى . وولد له أولاده منهم الشيخ أحمد المذكور . وهو حيّ إلى يوم تاريخه . فتفقه على والده ، ولازم درسه كثيراً ، ثم قرأ في الفقه على شيخ الاسلام النور السنفي المصري الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . ولازمه مدة طويلة حتى برع في الفقه ، وأجازته بالفتوى . وقرأ على شيخ الاسلام الشهاب الطيبي الكبير المتقدم ذكره . ودرّس بعدة مدارس منها : العمرية بصالحية دمشق ، ومنها العزيزية بالقرب من الجامع الأموي ، ودرّس آخراً بالظاهرية الشافعية وجامع بني أمية .

وهو أحد الوعاظ بدمشق بالجامع الأموي . ويفلب على وعظه تعليم الفروع الفقهية ، وتقرير الأحكام الضرورية .

اجتمعت به في سنة سبع وسبعين وتسع مئة . ولازمته في تفسير المنهاج في الظاهرية مع جماعة من الفضلاء وانتفعت بدرسه . وانتفع به خلق كثير ، سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى .

والغالب عليه السكون ومكارم الأخلاق والحلم والشفقة على الغريباء .

وله من نحو سنة أربع وثمانين وتسع مئة الى سنة تاريخه ، وهي سنة تسع بعد الألف ، يُفتي على مذهب الامام الشافعي . وفتواه مقبولة ، وإلى الآفاق منقولة ، وإلى الحكام محمولة .

وهو من محاسن العصر . وقدّم مرة إلى خطبة الاستسقاء بدمشق في زمن الأمير حسن باشا ابن الوزير الأعظم محمد باشا . فخطبها في جامع المصلّي خارج دمشق . وحضره الأمير المذكور بنياح ليست مكلّفة . وحضره أهل دمشق . وخطب أيضاً .

- خطبة استسقاء في سنة ثمان بعد الألف في سطح المزنة ، وفي مسجد المصلى حصلت الإغاثة بعون الله تعالى .

وإليه مرجع الفتوى يومئذ بدمشق .

وقد عادته في تزوج أخت زوجته . والأختان بنتا الرجل الصالح الشيخ محمود ابن الشيخ أحمد الصناديقي رحمها الله تعالى . وكان ذلك بإشارته . وصدر العقد بمنزله المعمور بدمشق ، في محلة حكر كمال الدين . وحصلت جمعية العرس بمنزله المذكور أيضاً ، وكان سعيه في ذلك مشكوراً . شكر الله سعيه في الدارين .

ومرض مرة مرضاً شديداً ، ورجف الناس به . واتفق أن الله شفاه وعافاه ، فكتبتُ إليه مهنئاً شعراً :

شهاب المالِ وربّ الهدى وامنّ منه كل الورى يستفيد

نذرت الصيام ليوم الشفا وكيف يصوم الفتى يوم عيد

وهو اليوم مفتي دمشق وامامها وواعظها وناصحها ومعتقدها .

١٠

شيخ^(١) الاسلام الشيخ أحمد
ابن أبي الوفا ابن مفلح الحنبلي الدمشقي

هو الشيخ الفاضل ، والعالم الكامل ، بركة الأنام ، ومقتدى^(٢) أهل الشام . له السكون والحلم ، والعبادة والعلم . وله الآثار الحسان ، وتلاوة القرآن .

استغل على عدة مشايخ بدمشق منهم شيخنا شيخ الاسلام الشيخ أبو الفداء اسماعيل النابلسي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى | وقرأ في الفقه على شيخ الاسلام الشيخ موسى الحجازي صاحب « الاقناع » ، وعلى بقية تلك الطبقة من ذوي الانتفاع^(٣) . وبرع في أنواع العلوم ، وأحاط بقنون المنطوق والمفهوم ، مع السيرة التي تذكر^(٤) الحسن البصري وأمثاله ، وتحسن من كل موقفي أحواله . متقلل من اللباس ، متجنب غالب الناس . لم يمل إلا إلى عبادة ، ولا تراه إلا في محراب أو على سجادة . وهو من بيت مفلح البيت الشهير بالعالم الكثير ، المعروف بالتصنيف والتأليف بين الكبير والصغير . من أجداده شيخ الاسلام البرهان بن مفلح صاحب « الفروع » وغيره من بني مفلح المفلحين ، والعلماء العاملين ، والقضاة

(١) في ب « مولانا وسيدنا شيخ الاسلام ... »

(٢) ب « مقتدى »

(٣) ما بين الخطيين القائمين ساقط من ه ، ب .

(٤) ه ، ب « تذكر الانسان بالحسن »

العادلين . لم تُعرف له صبوةٌ ، ولا نُقلتْ عنه كبوةٌ . ملازمٌ على تعليم العلوم بأنواعها ، وتفهم الفنون بأوضاعها . له المتانةُ الجيّدةُ في علمي الفرائض والحساب ، والإحاطةُ الشاملةُ في الفقه بلا ارتياب . مع المهارة في علم العربية ، وحفظ التواريخ النقلية ، وغير ذلك من بقية العلوم .

وبالجملة فهو مقفي الحنابلة في هذا الزمان ، واليه مرجع المشكلات في مذهب الامام أحمد عليه الرضوان .

درس بعدة مدارس بالشام . وهو الآن مدرّس بدار الحديث^(١) بصالحية دمشق بالقرب من المدرسة الأتابكية^(٢) . وله بقعة تدريس بجامع بني أمية . وله مصاهرةٌ مع الشهاب العيثاوي المذكور قبله . وما تأهل من نسله إلا لكونه أهله . وبالجملة فيها الأحمدان المحمودان . لهما الدين الكامل ، والعلمُ الشامل ، والفلاحُ الشهير ، والعلمُ الغزير .

ولقد شهدتُ له مجلساً يفتخر به زمانه ، ويبتهج به أقرانه ، وذلك أنه لما انتقل بالوفاة القاضي محمد سبط الرُّجَيْحِي الحنبلي ، وكان أكبر قضاة الحنابلة بدمشق ، انحلَّ مكانه وبقي زماناً بغير قاضٍ . وكان قاضي القضاة بدمشق مولانا مصطفي افندي ابن مولانا حُسَيْن افندي [ابن مولانا سنان افندي]^(٣) صاحب « حاشية التفسير » . فاستدعى الشيخ احمد صاحب الترجمة ليجعله قاضياً في منزلة سبط الرُّجَيْحِي المذكور . (١٢ آ) وكنتُ أحد الحاضرين بالمجلس . فبالغ في ملاطفته ليقبلَ منصب القضاء فامتنع ، وألحَّ عليه القاضي فتهرّم وما انخدع . وبالع الحاضرون في الطلب ، وبالع هو في الهرب ، حتى إنه قال آخرأ :

(١) هي دار الحديث الأشرافية البرّانية ، انظر النعمي ، تنبيه ١ : ١٢٩

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ١٢٩

(٣) الزيادة من ه ، ب

يامولانا ! أنا رجل ثقيل السمع لا أسمع ما يقول المتداعيات بسهولة وذلك يقتضي صعوبة فصل الأحكام ، بين الأخصام . ولم يزل يتلطف بالقاضي حتى عفا عن ذلك الطلب ، وقضى من امتناعه العجب . وخرج من عنده خائفاً من تكرار طلب القضاء . فأيد الله عليه الرضاء وأحياه وحيّاه ، وأعطاه وإيانا في الجنة مناه .

| ولعمري إنّه شيخُ المذهب والمتحلّي من التقوى والعبادة بالطراز المذهب ، السالكُ من طريق الصّلاح في أقوم مذهب ، الذي عطر الكون نسيم لطفه 'مذ' هب' . قد علا قدره ، وسما فخره ، ومع ذلك يتواضع للكبير والصغير ، ولا يقيم في الغالب إلاّ بأمور الآخرة . وهو مع ذلك واسعُ الانفاق ، موصوفٌ بالإرفاق ، من أوقافِ نالها ، وأدرك منالها . وذلك لامرأةٍ تزوجها من بنات ذوي الأوقاف ، واستولدها فأدركته بذلك الألطاف . وصار يقسم غلّتها ، ويسدّ من نفسه خلّتها ، لطفاً من الله بعباده الصّالحين ، وإحساناً منه لحزبه المفلحين .

وهو الآن مفتي المذهب الأحمديّ ، والقائمُ بفروض البيت المفلحي . وله شعرٌ قليلٌ أنشدني ولده سيدي عبد اللطيف منه هذه الأبيات :

شبيهةٌ بدو التيمّ بالله أنجزني وفاءً لمشتاقٍ به الضنكُ والبَلوى
لقد ضاق ذرعاً بالعباد ومن يكن محباً لليلي لا تليقُ به الشكوى
رعى الله أيام الوصالِ وعطفها عليّ فما أحلى سناها وما أشهى

أخبرني الشيخ أحمد المذكور من لفظه أنه ولد في سنة خمسين تقريباً . كذا أخبرني بذلك في غرّة سنة اثنتين وعشرين وألف في منزلي بمحلة النحاسين | .

(١) كل ماسيأتي سانط من ه ، ب . يبدو أن هذه الزيادة أضيفت بعد سنة ١٠٢٢ هـ كما ستري .

١١

الشيخ أحمد الشويكي

هو الشيخ الفاضل ، العالم الكامل ، القاضي شهاب الدين أحمد الشويكي الحنبلي . وهو من بيت نجابة ، وفتوى وخطابة .
ولد بصالحية دمشق الشام وكان يحفظ القرآن العظيم ، وحفظ « المقنع » أيضاً على مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه ، واستمر نحو ستين سنة يُفتي على مذهب الإمام المذكور فما عُرفت له زلته ، ولا أبطل أحدٌ نقله . وتولّى القضاء نيابة بدمشق مدةً مديدةً ، وأعواماً عديدة . وترك الصالحية في أواخر عمره (١٢ ب) وقطن بدمشق قريباً من الجامع الأموي ، وخطب مدة طويلة بجامع منجك^(١) بمحلة ميدان الحصار . وكان صوته حسناً وتلاوته حسنةً . وامتنحن في عمره مرّات . وسافر إلى قسطنطينية في بعضها ، وسُرقت ثيابه وما كان يملك غالباً في منزله بدمشق ، ويُقال إن ذلك بسعاية صبيٍّ روميٍّ يُقال له أحمد العقّاد .
كان الشيخ المذكور مال إليه ثم تركه . وكان رحمه الله تعالى يُنسب إلى نوعٍ مساهلةٍ في الدين ، وإلى قلّةٍ عفتهٍ في الفتوى والقضاء . فذاق بذلك ماضقاً به صدره ، ونقص بين الناس قدره . ولقد صار مثلاً مشهوراً بتجويز بقاء التزويج بعد الطلاق الثلاث . وقرّر بعد ذلك لأزواجهنّ كثيراً من الأناث . وكان يحكم ببيع الأوقاف ، ويرتكب في ذلك طريق

(١) هو في الميدان الفرقاني . انظر النيمي ٢ : ٤٤٤ وذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٥ .

م (٤)

الاعتساف . فصار آخر عمره مذموماً ، متروكاً مصروماً . ولقد كان العوام يضربون المثل بردّه الطلاق البائن ، وبعدهون له ذلك من جملة المحاسن . غير أنّه كان غزير العلم ، سريع الفهم ، فصيح العبارة ، جميل الشّارة^(١) . يتوقّد ذكاؤه ، وينفجر سخاؤه . سلّم له فقهاء مذهب أحمد ، ورأوا الانقياد لما يقوله فيه أولى وأحمد . وحل^(٢) الى مصر فاستفاد بها ما أراد . ورجع منها فائزاً من العلوم بالمراد .

كان ابتداء اجتماعي به في المدرسة الحاجية^(٣) بالصالحية المحيية . وهو إمامها في سنة خمس وسبعين وتسع مئة . ورأيته يُقرئ بعضَ الحنابلة متن « المقنع » إقراءً حسناً . وأظهر للعاشرين فصاحةً ولِسناً . وتقلّبت به الأحوالُ وأحاطت به الأهوال ، حتى فارق وطنه بالصالحية ، وقطن بدمشق طالباً أن يسلم من البرية .

واقد اجتمعتُ به على إثر محنةٍ صدرت له من بعض الأعداء فشكا ، وحكى وبكى . وأنشدني لأبي تمام معدّة أخي^(٤) الملك العزيز (كذا) العلويّ الفاطميّ قوله :

أما والذي لا يعلم الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان السرائر مؤلماً لإعلانها عندي أشدّ وآلم
وبي كل ما يصيب الحليم أقله وإن كنتُ منه دائماً أتكتم

وتوفي في ستة بعد الألف في يوم عرفة من السنة المذكورة عن نحو سبعين سنة ، وُدفن بصالحية الشام رحمه الله تعالى .

(١) ب ، هـ « الاشارة »

(٢) هـ « دخل »

(٣) انظر النعمي ١ : ٥٠١

(٤) م ، هـ « أخو »

١٢

الشيخ أحمد ابن الأكرم

هو مولانا وسيّدنا العريقُ الاصيلُ ، صاحبُ المجد الأثيل ، والمكارم العيبة ، والألطف الغزيرة الجسيمة ، الذي كان له من شهرته بالأكرمية أوفى نصيب . ومن السماء كما قيل تنزلُ التسميةُ والتلقبُ ، (١٣ آ) فهو الكريمُ ابنُ الأكارم ، والعظيم ابنُ الأعظم .

كان والده الشيخ محمد بن كريم^(١) الدين بن الأكرم ، في أواخر دولة الجراكسة أميراً من أمرائهم ، وكبيراً من كبرائهم ، فلما ذهبتْ دولةُ الجراكسة وجاءت دولة الأروام أعطاه السلطان سليم الفاتح لبلاد العرب زعامةً بأربعين ألف عثماني فاستمر مباشرةً لزعامته ، ومؤدبياً لما يلزم من خدمته . الى أن عيّنوه خادماً للسلطنة في جميع أموال العرب فكتب مكتوباً الى حضرة الشيخ العارف الشيخ علوان الجموي قدس الله سره العزيز يذكر فيه استيافه اليه بعبارات حسنة ، وإشارات مستحسنة . ولوّح في المكتوب المذكور الى ما هو مبتلى به من خدمة السلطنة ، وأشار الى استفهامه عن هذه الأحوال هل يخص صاحبها عند الله تعالى . فكتب اليه الشيخ علوان الجموي رويح الله روجه مكتوباً يقول فيه : ولا بأس بخدمة السلطان إذا كانت على طريق الاستقامة وأيضاً فإن الرأي أن تكونَ حيث أنزلك . حتى يكون الله عنه نقلك . [وايضاً فإن الله

(١) « بن القاضي كريم ... »

لو لم يُرد لك هذا الأمر الذي أنت فيه ماسهته لك . وساق من ذلك فصلاً . وكتب بعده في حاشية المکتوب [(١)]

ومع ذلك فإني أقول :

سُجِنُوا لِطَيْبِ لُغَاتِهِمْ يَالَيْتَهُمْ كَانُوا صَمُوتٌ
مُوتُ النُّفُوسِ حَيَاتُهَا مِنْ رَامِ أَنْ يَجِيَّ يَمُوتُ

فلما وقف على هذين البيتين علم الإشارة ، فنزع ثيابه كلها وعتق بماليكه . ودخل في عدلٍ ثخين لبسه ، وجلس في محلة العنابة (٢) في مسجد العين (٣) ثلاثة أيام لا يكلم أحداً ، ولا يأكل ولا يشرب ، وترك الزعامة والدولة .

واستمر في بيته بمحلة العنابة جالساً منفرداً عن الناس لابساً ثياب الصوفية ، الى أن توفاه الله سعيداً ، ولكنه قصد السلطان سليمان ، عليه الرحمة والرضوان ، لما قدم الى مدينة حلب . فأعطاه في جوالي دمشق أربعين عثمانياً . واستمر يتناولها الى أن مات .

وكانت طريقته في التصوف علوانيةً بشكوى الخواطر (٤) من المرید والجواب عنها من الشيخ .

أخبرني صاحب الترجمة الشيخ أحمد أن والده اجتمع بالشيخ عمر العقبي عند الشيخ علوان ، وكان الشيخ عمر خليفةً للشيخ علوان . فقدّم الشيخ علوان ابن الاكرم على الشيخ عمر وقال له : يا ولدي يا عمر ! لا يكن عندك في القلب شيء من تقديم ابن الأكرم فإنه خرج عن أربعين مملوكاً

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) تقع هذه المحلة خارج باب السلامة ، ويوصف هواؤها بالجودة .

(٣) لعل هذا المسجد هو المسمى بمسجد العنابة الذي ذكره ثار المقاصد ص ١٤١ .

(٤) ه « يشكو الخاطر » ، ب « بشكوى الخاطر »

بجواهر الفضة . وأما أنت فإنك خرجتَ عن قطعةِ خشبٍ ، وهي التي كنت تقطع عليها المداسات . فهتته أعلى من همتك .
ونشأ ولده هذا أحمد شهاب الدين سالكاً في طريق أرباب العلوم ، باحثاً عما يبحثون عنه من منطوقٍ ومفهومٍ ، فدرس بالمدرسة الحقيقية^(١) بدمشق الحمية ، شمالي جامع بني أمية . ودرس آخراً بالمدرسة المقدّمية الجوّانية^(٢) ، المنسوبة إلى مَنْ هو منتسبٌ إليه . وهو أمير الأمراء شمس الدولة بن المقدّم ، الذي كان من كبار أمراء الملك العادل نور الدين الشهيد [ثم صار من كبار الأمراء الصلاحية . وحجّ فوقع بينه وبين أمير الحجّ العراقي طائشكِين . فضرب ابن المقدّم بسهم وقع في عينه فمات من غده .]^(٣)

وكان الشهاب هذا ساكناً بمحلة التيمرية ، في بيوت ابن الحارة . ثم عنّ له آخراً أن يسكن بالمدرسة المقدّمية المذكورة [لأنه كان يُدعى الشهاب الأكرمي ، هذا لأنّ تدريبه بالمقدّمية كان عن وراثة وشرط واقف ، وأنه من الذريّة . وأظهر على ما ادّعاء عدّة تمسكات . وولده الشيخ محمد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الميم مدرّس بها اليوم بالشروطية أيضاً . فلما ثبت تدريس المقدّمية بيد الشهاب المذكور ، شرع يعمّر لنفسه وأولاده بها مساكن ، لأنه لم يكن مالكاً في دمشق بيتاً ، لكون بيوتهم كانت بمحلة العناية كما سبق ذكره [^(٤) فغير صيغتها ^(٥) في الجملة لما في كتاب الوقف الذي بيده ، أنّ التوليّ على الوقف من

(١) انظر النعيمي ١ : ٤٨٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ٥٩٤ .

(٣) الزيادة من ه ، ب

(٤) الزيادة من ه ، ب

(٥) ه « صفتها »

الدريّة يتصرف في ذات المدرسة وفي أوقافها وجهاتها كما يريد . وكان تغيير الصيغة المذكورة في زمان قضاء مولانا أحمد افندي الأنصاري . فسمع بتغييرها فأرسل نائبه مصطفى أفندي ، وهدم منها ما ثبت أنه تغيّر عن الترتيب السابق . وقد حضرتُ الكشفُ على البناء المذكور ، ورأيتُ صنّاع البناء وهم يهدمون بعض جدرانها . والشيخ أحمد المذكور يلومه في ذلك ويقول له : اصبر . تَأَنَّ يا مصطفى افندي ! . وهو لا يُبالي بذلك .

ثم دخل الناسُ بينه وبين القاضي المذكور فرضي أن تكون العبارة المذكورة وقفاً على المقدمة أيضاً ، يتصرف فيها مَنْ يأتي بعده من المدرّسين والمتولّين كما يتصرفون في بقية أوقافها . وكتب بذلك تمسكاً شرعي . وشُرع في البناء كما أراد ثانياً . [فعمر بها قاعة داخلة وقصراً منيفاً على دهليز المدرسة . وفعل ما فعل . وسكن بها مدة دون السنة .

[وكان في نفس الأمر من عجائب الدنيا ، لانه كان مع هذه الصفة التي وصفناه بها من العلم بتزيّناً بزيّ أكابر العلماء الرؤساء . وكانت له همة | عالية |^(١) .

[ومن لطائفه أنّه كان حاضراً مرّة في جمعية عرس . وكان حافلاً جامعاً للعلماء وغيرهم . فقرأ الشيخ بعث الله الأعمى المصري ، قارىء الموالد بدمشق ، قوله : فظهرت أنوار سيد المرسلين ، بنصب سيد المضاف إليه ، مع وجوب خفضه . فقال الشيخ يوسف العلوي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى : انوار سيد المرسلين ، بجر سيّد ، لكونه مضافاً إليه ، والنصبُ لحنٌ من القاريء . فقال له الشيخ أحمد صاحب الترجمة : اسكت ! لفظ سيّد هنا منصوب على العظمة . وسمع ذلك غالب الحاضرين من العلماء .

(١) سائط من ب

وكان ذلك سبباً لانبساط نفوسهم وذهاب كدرهم وبؤسهم فسماه علماء عصره بعد ذلك : المنصوب على العظمة .

[واه لطائف من هذا النوع كثيرة .

[وكان مع ذلك من أكرم الناس نفساً ، له مكارم أخلاق وافرة ، ونجملات فائضة متكاثرة ، مع الحشمة الزائدة والأنفة المتزايدة .

[وكان قد تولى الخطابة بجامع السلطان سليم بصاحبة دمشق فلما وضع رجله اليمنى على الدرجة الأولى سقطت وساخت تحت رجله وسمع لها صوت عالٍ سمعه كل من بالمكان . وتحدث الناس بذلك ، واشتهر وانتشر ، حتى كان سبباً لانفصاله عن منصب الخطابة . فنظم كل واحد من فضلاء دمشق في ذلك أبياتاً يخبرون فيها بالواقعة ، فمنهم الشيخ شمس الدين ابن المنقار الآتي ذكره ، إن شاء الله تعالى ، فإنه قال في ذلك شعراً :

خُصِفَ الجَامِعُ السَّلِيمِيُّ لَمَّا حَلَّ فِيهِ الخَطِيبُ جِهلاً بِشاشه
وعدا قائلاً وينشد جهراً هدني جهله وجره قاشه

والأولى السكوت عن بقية ما كتبت في هذه القصة من واقعة الحال وحال الواقعة ، لأن بعض أبياتها يوحش لفتحها سامعه ، ويقتضي أنه يسد مسامعه . ومثل ذلك لا ينقص مقداره ، ولا يطفىء انواره ، فمازالت الأشراف تهجى وتمدح . [(١)

ولقد رأيت عجيبة (٢) من الشهاب أحمد المذكور . وذلك أن قاضي القضاة أحمد افندي الأنصاري المذكور طلب منه أصل كتاب الوقف

(١) الزبادات من م ، ب

(٢) م « عجباً »

الذي يتعلق بالمدرسة المقدمية . فقال له : سأحضره . ثم حضر إليه بعد أيام .

فقال له : ابن كتاب الوقف ؟

فقال له : يامولانا : لنا قريب يُقال له الشيخ أبو البقاء ، وهو مجذوب في الجملة ، وكان كتابُ الوقف عنده فوضعه في إناءٍ به قَطْرُ نبات . فلم يزل في الإناء حتى امتزج بالقطر وصار بمنزلة التفتّاح الذي يتربى في القطر فكان يأكلُ منه كلَّ يوم حصة حتى أتى على آخره أكلاً . فهو في باطن الرجل المجذوب . وما عنده إلا نسخٌ منقولة من أصل كتاب الوقف المذكور الذي صار ممتزجاً بالقطر .

فضحك القاضي من هذه القصة .

وكان رحمه الله تعالى كريم الاخلاق جداً ، كنت جالساً عنده في الحجرة الحليّة التي كانت سكن الشيخ بدر الدين الغزّي ، في الجانب الشرقي من جامع بني أمية . وأُذِنَ لصلاة العصر وأُقيمت الصلاة .

فقلت له : يامولانا قد أُقيمت الصلاة ، أفلا نطلع الى الصلاة مع الجماعة ؟

فقال لي : اسمع ، الشيخ ابراهيم قفّة المؤذّن يشتمني ويدعو عليّ ، وهو يظن أنني لست بالحجرة . (١٤ آ) فإن طلعتنا في هذا الوقت وأنا فيحصل عنده حجاب ، فالأولى أن نصبر الى أن يذهب ونصلي بعد ذلك مع الجماعة الثانية .

فقلت له : يامولانا هذا غاية مكارم الاخلاق .

فقال لي : هو رجلٌ كبير والأولى الإعراض عن ما يصدرُ منه مطلقاً .

واتفقتُ لي معه في ذلك المجلس الطيفة . وهي أن الشيخ ابراهيم ابن

شيخ الاسلام بدر الغزّي حضر عنده في الحجرة المذكورة فجاء مجلس

من تحتي فجذبته من كتمه وأجلسته فوقي . فنظر إليّ الشيخ الشهابي المذكور
وتبسم ، وأنشده (١) :

وأكرم أحداق الحدائق منشداً لعين تجازي ألف عين وتكرم
كانت يشير بذلك إلى أن إكرام الشيخ ابراهيم المذكور لأجل
والده شيخ الاسلام البدر الغزي .

| ولما هدم القاضي أحمد الأنصاري البناء الذي أحدثه في المدرسة المقدمية
الجواتانية غير عمامته البيضاء الحسنة بعمامة من الصوف المسمى بالثزر ،
وترك شعر رأسه ، ورتب له ذوائب من الشعر الأبيض ، وكانت بارزة
من جانبي رأسه . وكل ذلك كان من صلاحه وعدم تقيده بأصطلاح
الناس . فرحمه الله رحمة واسعة (٢) |

وتوفي رحمه الله تعالى في سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة ، ودُفن عند
تربة أبيه بمرج الدّاح في الجانب الغربي من قبر أبي شامة . رحمه الله
تعالى وأعطاه في الدنيا (٣) الكرامة . آمين .

(١) « وأنشد »

(٢) من قوله : ولما هدم الى هنا يختلف عما ورد في ه . وهذا نص ه : « وكان
قبل هدم المدرسة كما سبق ذكره يلبس العمامة البيضاء الحسنة . فلما هدمت المدرسة
عدل عن لبس العمامة البيضاء الى لبس الثزر الصوف الذي يلبسه صوفية زماننا
وترك له ذوائب شعر من جانبي رأسه . فبقي من أعاجيب المخلوقات . رحمه
الله تعالى رحمة واسعة » ا هـ

(٣) « الدارين »

١٣

الشيخ^(١) أحمد بن عبد القادر بن المعمار الدمشقي الشاغوري العوفي
- نسبة إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه - الشافعي

هو الشيخ الصالح ، الكامل الفالح . العالم الفاضل ، الفقيه النبيه .
كان والده الخواجا عبد القادر من أغنياء دمشق ومن ذوي الثروة . ونشأ
الشيخ أحمد هذا طالب علم . قرأ في الفقه على مذهب الإمام الشافعي
رضي الله تعالى عنه على الشيخ تقي الدين القاري الآتي ذكره إن شاء
الله تعالى . وحصل فيه طرفاً صالحاً ، لكن توفي والدّه سنة سبع عشرة
سنة . وهو في قلب الاشتغال بالعلم . فاشتغل بعائلتهم ، وكانت كثيرة .
فلزم أن خفّ اشتغاله ففاته ما كان يرجوه من الارتقاء إلى الدرجة العالية
من العلم .

أخبرني والدّه المرحوم الخواجا محمد بن المعمار أنّه كان يقوم غالب
الليل في العبادة ، وأنه عاشره ما يزيد على خمسين سنة فما علم له كبيرة
ولا صغيرة .

ومن فضائله أنّ قاضي القضاة محمد بن شيخ الاسلام المفتي أبي السعود
رضي الله عنه الآتي ذكره إن شاء الله تعالى لمّا كان قاضياً بدمشق دعا
الشيخ أحمد المذكور والنس منه أن يكون نائباً^(٢) في القضاء على مذهبه .
فامتنع ، (١٤ ب) وألح عليه فما انفرّ بالدنيا ولا انخدع .

(١) ٥ ب « مولانا الشيخ ... »

(٢) ٥ « قاضياً »

وأخبرني سبط الرُّجَيْحِيّ القاضي محمد الحنبلي أنّه ذهب الى بيت الشيخ أحمد المذكور مع القاضي كمال الدين الحزاوي وجماعة من أعيان دمشق وألحُّوا عليه في قبول القضاء من قاضي القضاء المذكور ، فاعتذر اليهم وصمّم على الامتناع رحمه الله تعالى .
توفي في شهر رمضان سنة أربعٍ وثمانين وتسع مئة . وأولاده أولاده ونسله الى الآن بمحلّة الشّاغور^(١) بدمشق وهم من أعيانها كثر الله منهم ومن المساهين أجمعين آمين .

(١) محلّة بالباب الصغير بدمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة (معجم البلدان)

١٤

الشيخ أحمد بن قاسم المصري

شيخُ الإسلام على الإطلاق ، وعالم العصر بالاتفاق ، الجامعُ بين العلم والدين ، المدودُ من أهل الوصول بيقين . الأسعد الأجد ، مولانا الشيخ أحمد بن قاسم المصري .

المحقق المدقق المقرر المحرّر ، مَنْ قاسه أهلُ زمانه بالسعد^(١) والشريف . وكان زمانه بسعد شرفه متصفاً بغاية التشريف .

رجلٌ كان غالبُ أوقاته مصروفة في تحصيل الثواب ، إما بالبحث عن العلم أو بطلب الرضوان من الملك الوهاب .

نشأ بمصر وبها وُلد وطلب العلم بها وتصدر للائقراء والتأليف ، والتحرير والتصنيف ، وعمّر | عمراً |^(٢) طويلاً . نال به خيراً جزيلاً . كيف لا وهو لا يصرفه إلا في مدارسة أو مؤانسة ، أو إفادة أصل أو مقايسة . كان غايةً في العلم والعمل . ونهايةً في أوصاف تبتهج بها الدول . ما قدم أحد من مصر إلى الشام إلا وصفه بأنه مفرد الأنام ، وابتهاج الأتيام ، وعلم العلماء الأعلام . كان - مع أنه كان في المكان الأعلى من التحقيق ، وفي المحل الأسنى من مراتب التدقيق - يحضر إلى مجلس الاستاذ البكري في النصوف ، من غير تحجب ولا توقف ، ويرى فوت ذلك سبباً للتأسف ، وداعياً إلى عظيم التلهّف . وكان أيضاً يحضر في

(١) يعني السعد التفتازاني والشريف الجرجاني . وفي ب « السعد الشريف »

(٢) ساقطة من هـ

حلقة الشمس الرملي^١ فقيه الزمان ، وشافعي^٢ الدوران . وكان جلوسه خلفه للتعظيم ، ويلتفت إليه عند الخطاب والتكليم ، ولقد صنّف « حاشية على شرح جمع الجوامع في الأصول » . جمع فيها بين تحقيق المعقول وتحرير المنقول . سماها « الآيات البيّنات » . يجمع فيها بين الحاشيتين للكهال ابن أبي شريف وللقاضي زكريا . وله بينها المحاكمات العادلة ، والإفادات الشاملة .

واجتمعت بالمولى الفاضل ، العالم الكامل ، مولانا توفيق أفندي ، العالم الربّاني المنسوب إلى بلدة سيدي عبد القادر الكيلاني . وكان اجتماعي به بدمشق في منزل المولى محمد أمين أفندي الدفترى بدمشق ، فتذاكرنا تعريف المسألة وطال الكلام في انتهاه هل يجب أن تكون أمراً (١٥ آ) كلياً أم يجوز أن تكون أمراً جزئياً ، وكنتُ ذاهباً إلى الثاني ، وكان المولى المذكور ذاهباً إلى الأوّل . وقال : المسألة مما يجب أن يبرهن عنه في العلم . وقد شرطوا في البرهان إيجاب الصغرى وكنية الكبرى فلم نجد نقل المسألة في كتاب من الكتب المشهورة ، إلا في الحاشية المذكورة المسماة بالآيات البيّنات . وحاصل ما ذكره فيها أن اصطلاح أرباب المعقول يقتضي وجوب كونها كليّة كما ذهب إليه المولى المذكور . وأما اصطلاح أهل العربية ، والأصوليين وما شابههم فيجوز أن تكون جزئية ، كما ذهبنا إليه . والمقام يحتاج إلى زيادة تفصيل في الكلام . والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

ولصاحب الترجمة أيضاً حاشية عظيمة المنافع ، تسرّ النواظر وتطرب المسامع ، على شرح « المنهج » للعلامة شيخ الاسلام قاضي القضاة زين الدين زكريا^(١) . جمع فيها كل فائدة ، وحشد إليها كل عائدة . وله غير ذلك مما أفاد فيه وأجاد ، واستحسنه الفكر واستجاد .

(١) في « زكريا الانصاري »

وأظنُّ أنه قرأ صغيراً على شيخ الإسلام القاضي زكريّا ، لكن
لستُ على يقين من ذلك .

وكان يحجّ كثيراً : حجّ في سنةٍ من السنين وهي سنة اثنتين وتسعين
وتسع مئة ، وجاور تلك السنة بمكة ، فمات بها في السنة المذكورة رحمه
الله تعالى وعطر مثواه ، ونوّر مرقده ومأواه .

وبالجملة فلقد كان بهاءَ زمانه ، ووحيد أمثاله وأقرانه . لم يخلف له
مثيلاً ، ولم يترك له عديلاً . وتأسّف عليه المصريون أسفاً كبيراً ، وراوا
لموته حزناً كبيراً والحمد لله وحده .

١٥

أحمد^(١) بن عبد القادر الشهير بابن التينة المؤدب

كان يؤدّب الأطفال بمسجد المجاهدين^(٢) عند باب الفراديس . اشتغل
وتفقه على التقي القاري . وقرأ التجويد والقراءات على الشيخ علي القيبري .
وكان فاضلاً صالحاً ورعاً زاهداً .

وكان نفسه مباركاً على من يقرأ عليه .

وكانت فراسته في الأولاد عجيبة . وكان يقول : هذا يصير شيخ
الإسلام ، وهذا صاحب حرفة ، وهذا لا ينتفع بشيء . فكان الأمر
يصير كما يقول .

وكان الولد يخرج من عنده حافظاً للشاطبية ، والأجرومية ، والجزرية .
وكان كثير التلاوة والتجويد . وكان من أولاد العلماء ويبتهم بيت
وعظ وقرآن . وتوفي سنة تسع وسبعين وتسعمائة ودفن بمقبرة الشيخ
أرسلان قدس الله سرّه العزيز .

(١) ه ، ب ، « الشيخ شهاب الدين أحمد »

(٢) هو في المدرسة المجاهدية البرانية (النيمي ٩ : ٤٥٥) ومسجد المجاهدة حرف
فجعل مسجد المجاهدين . وباب الفراديس هو باب الهامة ، من شمال المدينة
(انظر كتابنا : دمشق ، أسوارها ، أبوابها ، أبراجها)

١٦

أحمد أفندي الشهير بابن حسن بك قاضي دمشق

هو الفاضل الأديب ، الحافظ اللبيب . وَرَدَ دمشق قاضياً بها في سنة أربع وتسعين وتسع مئة ، بعد أن (١٥ب) تولى القضاء بمدينة حلب . وكان محمودَ السيرة في المدينتين . حلف لي يمينا مغلظةً أنه ما ارتشى في مدة قضاؤه قط .

كان والده حسن قاضياً مشهوراً من 'قضاة الروم وتولى قضاء الشام ومصر وقسطنطينية ، وقضاء العسكر .

ونشأ ولده هذا صاحب الترجمة مخدوماً ، كريماً حليماً . ولم يزل يتنقل في مدارس السلاطين بقسطنطينية حتى ترشح للقضاء فولي قضاء حلب ، ثم قضاء الشام ، في زمن سلطنة السلطان مراد بن سليم رحمهما الله تعالى . لكن قدم الى دمشق ضعيف المزاج ، محتاجاً الى العلاج . فلم يزل كذلك يتعلل ويتلألأ الى أن توفي الى رحمة الله تعالى وهو قاض بدمشق الشام ، سقى الله ثراه قطر الغمام .

وكانت وفاته في سنة خمس وتسعين وتسع مئة . ودفن بالقرب من مدفن المرحوم السلطان نور الدين الشهيد ^(١) [تجاهه من جهة الشمال] ^(٢) وقبره الآن معروف بدمشق . وتأسف الناس عليه كثيراً . وحضر جنازته الوزير الأعظم المرحوم سنان باشا حين كان محافظاً لبلاد الشام .

(١) دفن نور الدين محمود بن زنكي في تربته في المدرسة النورية الكبرى . انظر

النبي ١ : ٦٠٦

(٢) الزيادة من ب ، هـ

وكذا نسمع به قبل قدومه قاضياً الى دمشق بنحو عشر سنين ، وأنه عارفٌ بالعربيّات ، وحافظٌ للقوائد البليغات ، وأنه ربما زاد حفظه على عشرين ألف بيت من كلام العرب العرباء ، فضلاً عن المولدين . ولما رأيناه بدمشق وصاحبناه رأينا منه بعض آثارٍ من معرفة العربية ، لكن لم نره كما سمعنا . واعتذر لنا عنه بعض أصحابه بأنه ضعيفُ المزاج ، وأنّ ضعف مزاجه قطعه عن الحفظ والتحفظ ، بل عن التكلم والتلفظ . دخلتُ عليه يوماً والسماءُ قد سمحت بالغيث ، من غير ريّث . فقلت له : الحمدُ لله حصل مطرٌ ، من غير خَرَرٍ . وبوارقٍ من غير صواعقٍ . فقال لي : نعم . وأنشد قول القائل :

فَسَقِي دِيَارَكَ خَيْرَ مَفْسِدِهَا صَوْبُ الرِّيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي
وأطال في هذا المجال ، من غير إخلال .

وكان عنده من الكتب ما لم نره عند غيره من كبار الموالبي ، في سالف الأيام والليالي . رأيتُ عنده « إحياء علوم الدين » للامام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه ، في جلدٍ واحدٍ بتامه وكماله . ورأيتُ عنده « روضة » الإمام النووي رضي الله عنه في مجلدة واحدة أيضاً بتامها مع « حسن الخط » ، ولطف الضبط . وأما دواوين العرب فقد كان عنده منها نهاية الأدب .

كان والدُه المرحوم حسن أفندي من قسم المالبيك والموالبي ، فترقت به الحال حتى صار من أعظم الموالبي . سمعتُ أنه صار قاضياً بالعساكر المنصورة العثمانية . فتحاكم لديه خصمان أحدهما وكيلٌ عن سيّدته بنت رُستم باشا الذي هو من بمالبيكه . فعلم على سيّدته لكون الحق في جانب (آ٦) خصمها . فقبل له في ذلك فأنشد :

وَإِذَا السَّادَةُ لَأَحْظَتُ عَبْدَ الشَّرِيِّ تَقَدَّتْ عَلَى سَادَاتِهِ أَحْكَامُهُ

وكان حسن بك المذكور محباً لأولاد العرب جداً، حتى أنه كان يقلدهم في لبسهم، ويلبس الفرجية بالأكمام الكبيرة الطويلة على طريقة موالي العرب. ولذلك اجتهد على أن حفظ ولده هذا كلام العرب كثيراً. ولقد مدحت أحمد أفندي صاحب هذه الترجمة بقصيدة عند قدومه إلى دمشق، مشيراً إلى اتفاق سوق الفضائل والآداب في زمانه لكونه فاضلاً فقلت:

اليوم قد سمح الدهر الذي بخلا
اليوم أصبح نغر الدهر مبتسماً
اليوم قامت لأهل الفضل سوقهم
اليوم جاد سحاب الأوس منسجماً
هذا الزمان الذي قد كنت أرقبه
هذا الزمان الذي راقت مشاربه
كان أيامنا من طيبها سحر
صفا لأهل دمشق الشام مورد هم
غنى الحتام على أدواحها سحراً
أضحى لساكنها من نفسه طرب
شكر أفبدر الهدى لاحت أشعته
أضحى جديد الباس الكاملين وقد
قد انجلمت ظلمات الظلم حين بدا
وأُنجز الوعد خصم طالما مطلا
وأقبل العدل يثني عطفه جذلاً
ولم تُبق لهم أيامهم أملاً
واليوم أقبل بدر الجود مكتملاً
ولم أزل فيه للرحمن مُبتهاً
وهب فيه نسبة الوصل متصلاً
كان هم الليالي عاد مُكتهاً
ولم يزل وقتهم باللطف مُعتدلاً
ومال غصن الرباب من شوقه جذلاً
كأنه من سلاف الراح قد ثملاً
من بعد ما كان عن اقلاله أفلاً
مضى عليه زمان لم يزل سماً
بدر العدالة من فاق السماك علا

مولى الموالي إمام الدهر أحمد من
قاضي القضاة ابن قاضيها الذي شملت
مولى تجمع فيه ما تفرق في
من قال إن له في عدله شبيهاً
بمن أشبهه في الناس ممتدحاً
يمل من قلة الراجين أنعمه
لا تطلبن غيره في كل معضلة
يا صاحبي اكتبني في عدله سيراً
فليس يشبهه في جوده أحد
فإن ذلك حكم ليس يحمله
من فاز منه بتقبيل لراحته
ماروضة ضحكت أزهارها سحراً
وصافحتها الصبا تسمى^(٢) بساحتها
والطير غنى على أفنان دوحته
وللمياه أطراد في جوانبها
يوماً بالطف من ذكرى فضائله

قد ألبس الدهر من أفضاله حلالاً
وأطف الفضل منه السهل والجبالاً
كل الورى من صنوف الفرقة الفضلا
إنه عن طريق الصدق قد عدلاً
وهو الذي في جميع العالمين علا
وليس يُظهِر في بذل الأسي^(١) مللاً
فالبحر يغنيك عن أن تقصد الوشلاً
وسيراً فضله بين الورى مثلاً
هذا يقيني وإن شككتها فذلاً
إلا الذي طرفه بالنور ما اكتحلاً
فقد علا في ترقى قدره زحلاً
لما بكأها سحب الأوس منهنملاً
كذي دلال بدت في مشية الخيلاً
كأنه عاشق قد رتل الغزلاً
كالأيم أسرع لما شاهد الوجلاً^(٣)
ونشره في جموع العصابة الفضلاً

(١) م « النهى » ، واللى العطايا .

(٢) م ، ه ، ب : « نسفى » .

(٣) كذا في النسخ ، ولعلها « الوعلا » .

هذا المهام الذي من عز سطوته
هذا الذي مُدَّ بدا في الشام صافحها
هذا الذي يُبَاغُ الراجي مكارمه
من دُرِّ منطقته أو نورِ طلعتَه
قد انجلى عنده كلُّ الأمور كما
بالله بالله يا مولى الأنام ومن
يا أحسن الناس يا من أصله ^(١) حَسَنٌ
انظر إلى كبدٍ ذابت عليك جوى
مازلتُ أطلبُ من مولاي قربكم
مولاي جار عليَّ الدهرُ واتصلتُ
قد احتملتُ قديماً جورَ سطوته
حَمَلْتُ منه على ضعفِي نوائبه
هذا وأصعبُ ما يلقاه ذو أدبٍ
يُبدون صمتاً إذا أبديتُ مسألةً
بأيِّ حكمٍ زمانٍ صار مُرتقياً
لكن إذا كنتَ يا فخر الكرام لنا

أمسى الذي رام ظلم الخاق مُبتدلاً (١٦ ب)
كفُّ السرور وعنهما لهم قد رحلا
وجود راحته من قبل ما سئلاً
طول الزمان يجلي السمع والمقلا
عن الرعايا ظلام الظالمين جلا
في كلِّ فنِّ علي كلِّ الوردى كمالا
قاضي المساكر من لاخذ قد وصلنا
ومقالةٍ دمعتنا من بعدكم هملا
والحمد لله ما قد رمته حصلاً
منه العوادي على صبرٍ قد انفصلا
والآن يا سيدي لم يبق محتملاً
فأيُّ جسمٍ لما حَمَلْتَهُ حملاً
سقوطه عن مقامِ الفرقة الجبلاً
كأنَّ غيلانَ ميِّ يسألُ الطللاً
من ليس يعرفُ لاعماً ولا عملاً
فألهم عن حيننا ما زال مرتحلاً

(١) م « أصله » .

مَنْ كَانَ مِثْلَكَ يَا مَوْلَايَ ذَا فَظْرٍ وَفِطْنَةٍ أَظْهَرْتَ الْحَاظِهُ الزَّغْلَا
فَانظُرْ إِلَيَّ بَعِينَ مِنْكَ تَجْعَلْنِي مِنْ التَّرَابِ إِلَى الْأَفْلَاكِ مُنْتَقِلَا
وَأَغْنِ كَفِّيَ إِنِّي الْيَوْمَ مُفْتَقِرٌ يَا مَنْ إِذَا وَهَبَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَخِلَا
وَأَسْتَقِ غَرْسِي سَحَابًا مِنْ نَدَاكَ فَقَدْ أَرَبِي عَلَى سَاكِبِ الْأَنْوَاءِ إِذْ هَطَلَا
وَقَدْ أُتَيْتُكَ عَبْدًا عَلَّ تَقْبَلْنِي فَكُنْ بِحَقِّكَ يَا مَوْلَايَ مَنْ قَبِلَا
لَا زِلْتَ مَا وَخَدْتَ وَجَنَاءُ سَارِيَةٍ وَسَارِحَادِي الْمَطَايَا مُنْشِدًا رَمَلَا
تَرْقِي عَلَى هَامِ فَرْقِ الْفِرْقَدِينَ عَلًّا وَالذَّهْرُ يُنْشِدُ فَيْكَ الْمَدْحَ مَرْتَجِلَا
وَلَا تَرَالُ لَكَ الْأَيَّامُ خَادِمَةٌ وَدَامَ أَمْرُكَ طَوْلَ الدَّهْرِ مُنْتَمِلَا

ولما أنشدته هذه القصيدة بالغ في امتداحها ، وصرح بابتهاج ساحة
الطافها وانفساحها . وعطف علي ، والتفت إلي ، وقال مامعناه : أنتم
قصدتم إظهار رتبتيكم في الشعر ، وإلا فنحن ، مانحن أهلاً لهذا المقام ،
ولا نستحق المدح بهذا النظام .
فقلت له : أستغفر الله ! أنتم تشرّفون المدح والمادح . وما أنتم إلا
من باب قول القائل :

وَمَا أَنْتُمْ مِمَّنْ يُهْنَى بِمَنْصَبٍ وَلَكِنْ بِكُمْ حَقًّا تُهْنَى الْمَنَاصِبُ
وبالجملة فقد كان من محاسن قضاة الزمان حتى إن الله يسر له الدفن
في الأرض المقدسة ، وبالقرب من تربة هذا الولي الكبير سيدي نور الدين
الشهيد رحمه الله تعالى
وكان رحمه الله تعالى أحسن الشكل إلى الغاية ، وكان حسن المحاضرة
إلى النهاية .

حكى لي مرة عن والده واقعة تدل على كمال دينه وصلاحه ، وهي

أن والده مرّة كان جالساً في بيته بقسطنطينية . فدخلت عليه امرأة^١ معها كتابٌ تعرضه للبيع . قال : فنظر إلى الكتاب فاذا هو « المتنوي (١٧ آ) الفارسي » للشيخ جلال الدين الرومي ابن سلطان العلماء . ووجده نسخةً لانظير لها خطأ وضبطاً ولطفاً . فسامه من صاحبه فقالت : أطلب فيه ألف عثماني فأعطاها وخرجت من عنده . فتأمل الكتاب فوجده نفساً يساوي أكثر من ذلك . فطلب المرأة ثانياً فرجعت . وقال لها : كتابك يساوي أكثر من ذلك . فأعطاها ألفاً أخرى فخرجت . ثم تأمل الكتاب أيضاً فوجده يساوي أكثر من ألفين فطلب المرأة أيضاً وقال لها : كتابك يساوي أكثر من ذلك . وأعطاها ألفاً ثالثة .

وهذه الحكاية تدل على كمال دينه وصحة يقينه .

ومدحه صاحبنا الشيخ عبد الحق ابن الشيخ محمد الحجازي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى بقصيدة | بائنة نفيسة و |^(١) مطلعها :

سقى الربع هطالاً من الدمع ساكبٌ وجادت عليه الساريات السوارب

وصدر تاربخ قدومه الى دمشق في سنة أربع وتسعين وتسعمئة كما سبق وكان ذلك بحساب الجُمَّل : هكذا خير مقدم . ونظمناه في قولنا :

أتيت دمشق الشام كالغيث هاطلاً فأهلاً وسهلاً بالوفا والتكريم

ولما منحت الخير للناس كلهم قدومك قد أرخته خير مقدم

فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأنزل على قبره سحائب الألفاظ الهامعة .
بمنه ولطفه آمين .

(١) ماين الخطين سافط من ه

١٧

مولانا أحمد أفندي

الشهير بطاش كبري زاده ، بلغه الله الحسنى وزياده

وهو الإمام المشهور ، المحمود الشكور ، الذي هو بلسان الدهر
مذكور ، وعلى أحزاب أعداء الله منصور . هو الفاضل الذي طنت
حصاته وشرفت صفاته ، وعمرت أوقاته ، وطابت أقواته . طلب العلم
طفلاً وكهلاً ، وقال له لسان القبول : أهلاً وسهلاً . فاشتهر اشتهاً الشمس
في رابعة النهار . وظهر ظهور | قطر |^(١) السحاب^(٢) في سائر الأقطار . أدرك
من العلوم مطلوبه ، وحاز من التحقيق محبوبه . وتولى تدريس مدارس
كثيرة في بلاد الروم . وبحث فيها مع الطلبة عن^(٣) أسرار المنطوق
والفهوم . وصنف وألّف . وحصل وأصل . وتفضل وأفضل . وتكتمل
وأكمل . فمن جملة ما ألّف كتابه المسمى « موضوعات العلوم »^(٤) ، الذي
حارت في محاسنه راسخات الفهوم ، وتناقضته أيدي الرفاق في الآفاق ، وفاقت
بسببه جميع معاصريه وفاق . ولقد حضر الكتاب المذكور مع ولد المؤلف ،
هو المولى كمال الدين محمد بن أحمد ، الى دمشق الشام حين قدم اليها قاضياً ،
وطلبته منه لأنظر فيه ، فوجدته نطاً عجيباً ، وأسلوباً (١٧ ب) غريباً .
يتضمن فوائد فرائد ، وعرائس زيتتها القلائد . ونقلت منه مطالب

(١) ساقطة من ه ، ب

(٢) ه ، ب « لسحاب »

(٣) ب ، ه « على »

(٤) هو المسمى أيضاً بفتح السعانة

عزيزة ، تُرَخِّص عند الذهبي إبريزه . من ذلك ما نقله عن بعضهم أن كل نبي من الأنبياء إنما يُوحى إليه بالعربية ويعود بعد ذلك النبي يترجمه لقومه بلسانهم الذي به يفهمون وله يفقهون . وتولى قضاء بروسة المحروسة فاتفق أنه ضرب فيها رجلاً من عسكر السلطان ، وأظنه من حاملي السلاح للسلطان . فثار الجند عليه وقصدوا قتله ، فما نجا منهم إلا بعد جهدٍ جهيد ، ورأى رحمه الله تعالى أن المبادرة الى ضرب الجندي المذكور كانت من ضيق عطنه بسبب أكله للتركيب المشهور المسمى يومئذ بالبرش^(١) لأنه عند انفصال حرارته يوجب له ره ضيقاً عجباً الى الغاية . فحلف يمناً مغلظةً أنه لا يأكل البرش بعد ذلك اليوم . وهذا أمرٌ مخالف للقاعدة العقلية . وما ذاك إلا أن عادة البرش توجب مداومة على أكله ويتكلف آكله كلفةً كبيرة ، حتى يستطيع تركه . وأغلب ما يكون ذلك بالتناقص من غير ضرر .

وأنشد له بعضهم متمثلاً :

ان تكن عازماً على قبضِ رُوحِي فترفقُ بها قليلاً قليلاً

فما طواع على أكله بعد اليقين أبداً . فلزم من ذلك نزول المواد الرطوية على عينيه ، لأن أكل البرش كان يجبس المواد عن النزول لما فيه من التجفيف . فلم يزل ذلك يتزايد إلى أن أوجب له العمى ، وهو قاضٍ حينئذ بقسطنطينية المحمية . فلزم بيته مسلماً لأمر القضا ، تاركاً منصب الحكم والقضا . وعاش بعد ذلك مدة طويلة ، صنف فيها كتباً جليلة .

(١) تركيب مخدر كالأفيون ، وأفادني الأمير جعفر الحسيني أن الصيادين كانوا يمزجونه مع الطعام ويقدمونه للطيور لتخديرها وصيدها . وانظر :

Dozy, Sup. Dict. Arabe I, 71

ولم أجد الكلمة في كتب المفردات .

كلها على طريق الإملاء . ومن ذلك كتابه المسمى « بالشقائق النعمانية » ،
في أحوال الدولة العثمانية « ، وله تصانيف تتعلق بعلم الكلام والمنطق
والحكمة . تضمنت تحقيقات سديدة وتدقيقات عديدة ، تُظهر أن مؤلفها
قد ملك عنان الفضائل ، وحاز في الزمن الأخير مالم تحزّه الأوائل ، وكان
له في العربية الباع الطويل ، والمعرفة التي أذعن لها الحليل . وكان مع
ذلك كله ينظم الشعر العربي المليح ، ويُنشيء الإنشاء البديع الفصيح .

أخبرني ولدّه المولى العلامة الكامل كمال الدين محمد بدمشق حين كان
قاضي القضاة بها في أوائل سنة | خمس |^(١) بعد الألف أن المولى المفتي
أبا السعود الآتي ذكره نقح في تفسيره الكلام على قوله تعالى ﴿ عفا الله
عنك لم أذنت لهم ﴾^(٢) وبالغ هنا في الردّ على جار الله الزمخشريّ
ما فرط منه في تفسير هذه الآية الكريمة من سوء الأدب بالنسبة الى الجناب
الرفيع ، وأرسل كلامه في هذا المحل الى والده أحمد أفندي صاحب هذه
الترجمة . فنظر فيه ، من قوادمه الى خوافيه ، واستحسن ما حققه في الردّ
على جار الله الزمخشريّ . فكتب الى المفتي هذه الابيات يمدحه بها ويشير
الى الردّ المذكور ، في النظم المسطور . وهي :

بنفسي جناباً حاز كلّ فضيلةٍ وصارَ لإظهار الحقائق ضامناً
وأيد رُوحُ القدس حسانَ طبعه فجلبى من الأسرارِ ما كان كامناً
ونافح عن عرض النبيّ تأدباً فتهي الحشر تلقاءً من الخوف آمناً
بك الملة الزهراءُ أضحت مُنيرةً وفي الكوكبِ السيارِ قد صرتَ ثامناً

وقال لي مولانا الكمال المذكور : قرأتُ الموضع المذكور على حضرة

(١) ساقطة من ه ، ب

(٢) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ١٣

المفتي : فقلت له : هذا هو الموضوع الذي عرض على والدي ؟ فقال المفتي :
نعم . وما أحسن البيت الرابع المختوم بثامن . انتهى .
وفي نفس الأمر كان صاحب هذه الترجمة من محاسن علماء الزمان ،
ولو لم يُرمَ بالعمى لأظهر من الفضل ما يكفل عن وصفه اللسان .
وخلّف ثلاثة أولاد : كمال الدين ، وشمس الدين ، وحامد .
فأما شمس الدين فإنه صار من قضاة القصبّات ، ومات بجهاة
ودُفن بها .

وكذلك حامد فإنه صار قاضياً بصفد ، وأظنه مات بحلب .
وليس فيهم نجيب إلا العلامة الكمال . فإنه قد تطابق فيه الاسمُ
والمسمى ، ووصل من الفضائل الى المحلّ الأسمى . وستأتي ترجمته في حرف
الكاف إن شاء الله تعالى .

وقد توفي والد صاحب هذه الترجمة في قسطنطينية ، ولا أعرف سنة موته .
وولده أحمد أفندي صاحب هذه الترجمة في شهر ربيع الأول من سنة
إحدى وتسع مئة كما نقل ذلك من خطه ، لكنّه ذكر في كتابه المسمى
« بالشقائق النعمانية » أنه أتمّه في سنة خمس وستين وتسع مئة .

١٨

صاحبنا أحمد جلي بن اسكندر الرومي

نزيلُ دمشق . ورد اليها في سنة ثمانٍ وثمانين وتسع مئة مع قاضي
القضاة مصطفى [افندي] ^(١) بن يستان . وكان أحد جماعته الذين ينوبون
عنه في القضاء ، ويُقال لهم دَانِشْمَنْدِيَّةٌ بدال مهمله ونون مكسورة وشين
ساكنة وميم مفتوحة ونون ساكنة فدال مكسورة وياه مشددة للنسب .
والمفرد دَانِشْمَنْدِ أَي صاحب الدانش ، والدانش بلغة الفرس معناه المعرفة ،
وَمَنْدُ بمعنى صاحب ، ومعناه صاحب المعرفة . فلذلك يُسمي الأروامُ
تلامذتهم بذلك .

ولكن كان أحمد بن اسكندر هذا مقرباً لديه تقريباً تاماً ، ونال منه
حظاً وافراً عامماً ، بحيث أنه كان يضي غالب الأمور (١٨ ب) بإشارته
ويجيبُ غالبَ الفضلاء بعبارته . وكان يعتمد عليه اعتماداً صادقا ، لأنه لم يزل
بصداقته واثقاً .

وكان مع ذلك كله كاتب عرّضه . ومعنى كاتب العرض في اصطلاح
'قضاة الأروام وحكّامهم أن' كل صاحب منصبٍ من إمارة أو قضاءٍ
أو وكالة عن حضرة السلطان أبدّه الله تعالى أن يكون له كاتبٌ عارفٌ
بالإنشاء والكتابة بلغة الرومية يكتب له المهمّات التي يلزم إرسالها إلى
عنه حضرة الملك لتعرض على عتبه العلية ، ويُضي فيها ما تقتضيه آراؤه
السلطانية من عزل وقبولٍ وردٍ ، غير أن الغالب فيها القبول ، لأنهم

(١) الزيادة من ه ، ب

عرفوا من عادة من يعرض لحضرة السلطان إنما يذكر الصدق العقول ،
الذي تشهد بلطف موقعه العقول . ويكتبون في أوائلها ألفاظاً مفخمةً
تليقُ بجانب السلطنة العثمانية ، ويكونُ معنى تلك الألفاظ أن العبد الداعي
على الدوام يعرض بذلك الباب الذي له من السعادة والسطوة ما يشابه
دوران الأفلاك ، ويقارب مرتبة الثرى والسماك ، ماهو كذا وكذا ،
ويشرحون ما يريدون ويختمون بما معناه : والباقي مرسوم الباب الموصوف
بالسعادة العظمى . ولكن وصل أحمد بن اسكندر هذا في فن كتابة العرض
الى مرتبة مالقتها أحد غيره فيما أعلم . أخبرني عبد الكريم أفندي الذي كان
يتولّى أوقاف العمارة السلطانية بدمشق المحيطة ، وكان عارفاً بأحوال
الإنشاء التركي مشهوراً بذلك ، أنه لم يظفر حاكم بكاتب عرض مثل هذا .
ويشير الى أحمد بن اسكندر صاحب هذه الترجمة وفي نفس الأمر حصل
منها النصب الأوفر ^(١) الأوفى ، والمقام الأزهر الأزهى .

ولقد شاهدته غير مرة يكتب العروض المهمة من رأس القلم من غير
تسويد ، ويكون مقبولاً عند العارفين بهذا الفن . وذلك مع حسن الخط
الذي لانظير له حلاوةً وحسناً .

وسببُ مهارته في هذه الصناعة أنه أتقن الألسن الثلاثة العربي والفارسي
والتركي اتقاناً كاملاً . والمقبولُ الآن من انشاء التركيّة ما كان مرصعاً
من الألسن الثلاثة ، مع ذلك الذكاء الكامل والاجتهاد الشامل .

ولقد قرأ [علي] ^(٢) مقامات الحريري رحمه الله تعالى رواية الحارث
ابن همام عن أبي زيد السروجي كاملة ونصف مرة قراءة متقنة محررةً
معنونةً وأجزته بها وبما تجوز لي روايته بشرطه . وقرأ علي حصةً من
أوائل « الشرح المختصر » للمحقق التفتازاني علي « متن التلخيص » للامام

(١) هـ « الوافر »

(٢) الزيادة من هـ ، ب

جمال الدين القزويني رحمه الله تعالى . وروى عني كثيراً من الأشعار البليغة الحسنة . ولازم صاحبنا العلامة مجد البغدادي المدرس الحنفي بالمدرسة الدرويشية وقرأ عليه علم الهيئة (١٩ آ) وعلم الكلام وغير ذلك . ومهر في فنون العلوم ، وبجث عما تضمنته من منطوق ومفهوم . فصار من أعلام زمانه ، ومن مفردات عصره وأوانه . درّس بالمدرسة الجوهريّة (١) . وابتنى بيتاً في مقابلة الأشرفيّة (٢) ، دار الحديث بالقرب من قلعة دمشق . غير أنه قد خاض في شيء لا يعنيه ، وقصد مالا يلزمه أن يخوض فيه . وذلك التنقيب على كلمات القوم الدقيقة ، والاعتراض على عباراتهم الرشيقة . وجعل نفسه غرضاً لسهام الأغراض (٣) . ورام أن يطفئ الحواطر الروحانية بالأقوال المراض . فقال : إن ابن الفارض وابن عربي ومنّ هذا حذوها | وذاق من الطعوم حلوهما | (٤) قد حاد في عبارته عن طريق الحق والصواب وخالف الحق فيما اعتقده من صفات ربّ الأرباب . وصرّح بذلك في الملامع العام . وعرف بذلك واشتهر بين أهل الشام ، من الخواص والعوام . ولعله بعد بذلك عن بعض القلوب ، والعلم في ذلك لعلام الغيوب . ولكنه هو لا ينوي إلاّ خيراً ولا يدفع في اعتقاده الا ضيراً . ولكن الأولى مثله ومثلي من المقصرين أن يسلم للقوم الواصلين . وما أحسن رأيتّه ببعض المجاميع :

لا تكن مُنكراً فتمّ أمورٌ لكبار | الرجال | (٥) لا للصغار

(١) انظر النعيبي ١ : ٤٩٨

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ١٩

(٣) هـ « الاعتراض »

(٤) ما بين الخطين ساقط من هـ ، ب

(٥) ساقط من هـ ، ب

وإذا لم ترَّ الهلالَ فسلم لأفاسٍ رأوه بالأبصار

[وأيضاً : (١)]

أتيت بيوتاً لم تُنل من ظهورها . وأبوابها عن قرعٍ مثلك مُدَّت
ولعري لو أقصر عن هذا لكان أسلم ، والله تعالى أعلم ، بغيبه
وأحكم .

ولقد كتب أحمد بن إسكندر صاحب هذه الترجمة رسالة على لسان
المرحوم الشيخ شرف الدين الخطيب الشهير بابن الحكيم رحمه الله تعالى تتضمن
بالنسبة إلى الشيخ شرف الدين المذكور تعريضات ، بقبیحٍ أو تلمیحات ،
أو إشارات أو تلويحات . وعرضها عليّ ، وقرأها لديّ ، وقال : أحبُّ أن
تقرّظها بشيء من كلامك ، تمزجه بقليل من نظامك . فقلتُ مجيباً لإرادته
ومحققاً لإشارته :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي جعل ذوي الفصاحة أمراء
الكلام في الأنام ، وأعلى أعلام أولي البلاغة على رؤس العلماء الأعلام ، وجعل
العلماء ورثة الأنبياء . فبلغها الأبناء لمن زاغ عن سبيل الرشاد ، وملتهم
من الحجج القواطع سيوفاً قوامع لأرباب البغي والعناد .

والصلاة والسلام على من بلغته كلماته البليغة شرقاً وغرباً ، ففلتت
من سيوف | ألسن | (٢) المعاندين حداثاً وقطعت لهم غريباً . وعلى آله
الذين أثار بآثار علومهم الكون بعد الظلام ، وأصحابه الذين كانوا ابتساماً
في ثغور الليالي والأيتام . ما انجلي ليل الجهالة بإشراق شمس المعارف ، وارتوى
ظمان الفؤاد من غيث الأدب (١٩ ب) الواكف .

(١) من ه ، ب

(٢) ساقطة من ه

هذا وقد وقفتُ على هذه الرسالة وقوفَ وامقٍ على مرابعِ عذراء ،
وأجلتُ طرفَ طرفي في مضمارِ بلاغتها إجمالة ابن عباد^(١) لحظة في
مراتع الزهراء ، ونادمتُها والليلُ مُرُخٌ ستوره . كأنني جميلٌ زارَ ربع
بُيُوتِها . فما زلتُ اغترف من حياضها واقتطف من رياضها ، راوياً عنها
غيث الأدب الذي انسجم ، ناقلاً عنها لفصحاء العرب ما يُزري بلامية العجم
قائلاً لله درُّ مؤلفها : فلقد فتح من البلاغة باباً مقفلاً ، ومنع من صحاح
الفاظه لأهل الأدب جملاً ومفصلاً . وسلك طريقاً بديعاً يعجز عن سلوكه
البديع ، واستباح بجيش أفكاره من معافل البلاغة الحمى المنيع . ودخل
باباً من الأدب ما لأحدٍ به طاقة . وامتنى صهوة جوادٍ ما أدرك
الفاضل لحاقه .

له الكَلِمُ العُرُّ التي لو تجسَّتْ لكانت لوجه الدهر عِينًا وحاجِبًا

فلله ما اشتملت عليه من التلميح الذي ينقص عنده أبو تمام ، وما تضمتته
من التلميح الذي يعبث منه ابن بسام . يئد أنها ترجمت عن أوصاف
صادقة على موصوف ، وحدثت عن اعتراف من هو بالنكر معروف .
فتعجبت من بُعد البنى عنه مع قرب المعنى . وأفكرت في كمالٍ يجتمع
مع النقص ، في منزلٍ ومعنى . فقلت : أمّا الأوصاف فإتيا عليه صادقة ،
وأما الألفاظ فإتيا بفضيلته غير لائقه . فعلمت أن ذلك كما يحكى عن
أبي زيد . الذي كان تعارُجُه لكيدٍ وصيد . ومن أين هذه التراكيب
إن انحل تركيبه ، واختل ما بين أهل الكمال ترتيبه .

وأين الثريا وأين الثرى وأين الحسام من المنجل

ولعمري لقد حدثت عنه لسان الرسالة فأبان من الكثير قليلاً ،

(١) يعني المعتمد بن عباد الأندلسي

واختصر في إيضاح بيانه والتميز يحتمل شرحاً طويلاً . على أن في اعتذار المؤلف عن عدم التكرير ، بقوله - والقطرة تنبيء عن الغدير - إعلماً بأن البعرة تدل على البعير ، وإشارة إلى وفور السقطات ، وكثرة المخازي والجهالات .

فمن ذلك روايته للحديث من غير معرفة كلام العرب ودخوله في قوله ﷺ من كذب^(١) . هذا مع عدم الاجازة المجوزة لرواية الحديث لافي زمنه السابق ولا في وقته الحديث .

ومنها أنه يدعي الوعظ وليس متعظاً . ويزعم الحفظ وليس محتفظاً^(٢) وما أحسن قول من قال ، وأجاد في المقال :

يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه وبارز الرحمن لما خلا
ومنها مداومته على اغتياب من شماله أندى من يمينه . وغشيه
ما زال أنفع من سمينه (٢٠ آ)

فإلى متى يقرض الأعراض السليمة ؟ وهلا اشتغل بأحواله الحائلة السقيمة ؟
ليت شعري أي باب من الذلل مادخل إليه ؟ وأي نوع من الخطل
ما اقام عاكفاً عليه ؟ على أن من يغتابه من المذمة سليم خالص ، وما زال
يتسل بقول الشاعر :

« واذا أتتك مذمتي من ناقص »

ومنها جلوسه بين زعنفة لم تحمكهم التجارب ، ولم يزيدوا في الفضل
على صبيان المكاتب . موهماً أنه انتظم في سلك الأفاضل ، محيلاً أنه ورد

(١) يشير الى الحديث النبوي « من كذب عليّ عامداً فليتبوا مقعده من النار »

(٢) « محتفظاً »

من مياه الفضل أغدب المناهل ، مفاخرأ بالأشعار التي لو أنصف لدفعها الى أهلها ، ولما تكلف ، من غير انتفاع بها ، مشقة حملها . فهو كجالس بين القبور طالباً للنزال ، أو كملهوف الى الورود قانعاً بالآل لا الزلال .

وإذا ما خلا ألبان أرض طلب الطمن وحده والتزالا

ومنها أنه يشخ بأنفه على عصاة هم جمال الأنام ، وبمثلهم تفخر الليالي والأيام ، مع حقارة متاعه ، وقصر باعه . فيالله العجب ممن سقط عن مرتبة^(١) الطلب ، كيف يترقى الى معالي الرتب .

ما لمن ينصب الحباثل أرضاً ثم يرجو أن يصيد الهللا

فيا أيها الناكب عن طريق الصواب ، الذاهب في غير مذاهب أولي الألباب . ويحك الى متى تتوكأ على العكاز ؟ وتدعي بين الناس أنك من أهل البراز . ويلك هلا وقفت في مجازك ، وما تعدت عن حقيقتك الى مجازك ؟

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

ولعري لقد كاد زيفك أن يروج ، وتقربت على عرجك من العروج لكن قبض الله لك ناقداً بصيراً ، وعالماً كاملاً خبيراً . فأظهر عوارك الذي كنت تخفيه ، وأبدي من حالك ما لم تكن تبديه . وذلك | من هو |^(٢) علامة المحققين بلا نزاع ، وخاتمة المدققين | من غير دفاع |^(٢) من طلع في سماء المعالي فأصبح بدرها الكامل ، وأروى قلوب المتلهفين بغيث فهمه الوايل ، ونصب شبك الأفكار فاقتنص شوارد المسائل^(٣) من

(١) « رتبة »

(٢) ما بين الخطين ساقط من هـ

(٣) « المصائد »

مكاتها^(١) ، وغاصَ لُجَجَ بَحَارِ الْعُلُومِ فَاسْتَخْرَجَ دُرَّ الْمَعَانِي مِنْ
مَعَادِنِهَا . هُوَ مَنْ أَقُولُ فِيهِ ، مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَلَا تَمْوِيهِ :

هَذَا الْمَهَامُ الَّذِي مِنْ عِزِّ سَطْوَتِهِ أَمْسَى الَّذِي رَامَ ظُلْمَ الْخَلْقِ مَبْتَدِلًا
هَذَا الَّذِي مُذْ بَدَأَ فِي الشَّامِ صَافِحًا كَفُّ السَّرُورِ وَعَنْهَا الْمَهْمُ قَدْرًا
قَاضِي الْقَضَاةِ ابْنِ بَسْتَانَ الَّذِي شَمَلَتْ عَوَاطِفُ الْفَضْلِ مِنْهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
قَدِ انْجَلَتْ عَنْهُ كُلُّ الْأُمُورِ كَمَا عَنْ الْبَرِيَّةِ ظُلْمَ الظَّالِمِينَ جَلَا
مَنْ دُرٌّ مِنْطِقِهِ أَوْ نُورٍ طَلَعَتْهُ طُولَ الزَّمَانِ يَجْلِي السَّمْعَ وَالْمُقْلَا (٣٠٠ آ)

فِي شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَعِلْمِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَقَاضِي الْقَضَاةِ بِدِمَشْقِ الشَّامِ ،
وَمُصْطَفَى الْأَفْضَالِ الْكِرَامِ ، أَدِمَ إِبْعَادَهُ عَنْ مَنَازِلِ الْقُرْبِ ، فَقَدْ قِيلَ :
تُعْدِي الصَّحَاحُ^(٢) مَبَارِكُ الْجُرُوبِ . لِأَزَالِ حَكْمِكَ نَافِذًا فِي الْقَضَايَا ،
وَلَا يَبْرَحُ عِلْمُ عِلْمِكَ مَنشُورًا بَيْنَ الْبِرَايَا . وَبَقِيَتْ قَامِعًا لِأَهْلِ الْعَدْوَانِ ،
وَاصِلًا إِلَى مَا تُرِيدُ بِفَضْلِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ . مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ ، وَاخْتَلَفَ
الْمَلَوَانِ ، وَانْتَقَلَ الدَّهْرُ مِنْ آنٍ إِلَى آنٍ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ،
وَالْفَرَعُ إِلَيْهِ فِي سَائِرِ الْأَهْوَالِ .

(١) م « مكاتها »

(٢) م « الصحاح » خطأ .

١٩

القاضي أحمد افندي الأياشي

بهمزة مفتوحة وشين معجمة وياء مشددة للنسب

هو قاضي القضاة أحمد بن سليمان الأياشي قاضي حلب ، ثم قاضي دمشق . ورد الى دمشق في سنة سبع بعد الألف قاضياً بها خلفاً عن مولانا القاضي عبد الوهاب فما حمدت سيرته ، لاسيما وقد كان مولانا عبد الوهاب في غاية | من | (١) الاستقامة ، فورد هذا بعده في غاية السقامة . فكانا في طرفي نقيص ، وكم بين صحيح ومريض . وبضدتها تميز الأشياء . ولقد اشتهر في أيامه أكل الرثشا ، وظهر التزوير وفشا . فلزم أن العوام قد رجته عند خندق القلعة بين سوق الأروام (٢) ومدرسة أحمد باشا شمسي (٣) الآتي ذكره ، وأفحشوا في رجه ، ولولا مدافعة بعض الجلاوزة عنه بالسيف ، لثال منه العوام (٤) غاية الأذى والحيف . ولقد بلغني أن بعض الناس رجه ببيض فكان بعد كسره في عمامته يسيل بياضه وصفاره على عمامته وعلى أكتافه . وحاصل الأمر أنه وصل الى غاية النكابة ، وصار في العالم أشهر حكاية . ولم يستقم حاله بعد الرجم أبداً . وكان رجه يوم دخول أمير الأمراء

(١) ساقطة من ه ، ب

(٢) سوق الأروام هو أول سوق الحميدية اليوم .

(٣) تسمى اليوم مسجد الأحمدي . انظر عنه ذيل ثمار المقاصد ص ١٩١

(٤) ه « القوم »

السيد محمد باشا الوزير العجمي إلى دمشق حاكماً بها ، وذلك أنه طلع لاستقباله فكان الناس يشيرون إلى الباشا بالشكاية عليه في وجهه ، وينادون : الشام خراب ، القاضي خربها . وهو ساكت . فلم يزل الناس بمسكين أيديهم عن الرجم الى أن دخل الوزير المذكور الى دار الإمارة بدمشق ففارقه القاضي المذكور . فاستقبله الناس عند انصرافه بصيحون في وجهه ويقابلونه بكلمات لاتليق . وأعقبوا ذلك بالرجم ، من غير رحم^(١) ، حتى | إنته |^(٢) ساق فرسه هارباً منهم ، وأدركه مع ذلك ما أدركه من الأحجار .

وقد هجاه الشيخ درويش سبط آل طالو الشامي ، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، بقصيدة طويلة سماها « رفع الغواشي عن ظلم الأياشي » ولقد قسمها فصولاً ، وجعل كل فصل في حال من أحواله . ولقد أنشدنيها مؤلفها المذكور حين ألقها فعلق في خاطري منها بعض أبيات .

فمن ذلك قوله مشيراً الى ظلمه مع وكيله لرجل بدمشق^(٣) يقال له ابن عقيص ، مات وخلف ثلاثة آلاف قرش ، أخذ منها ألفاً فقال في ذلك :

كيف استحلّ ألف قرشٍ له وجلةُ المال ثلاثُ كبارٍ
ومنها :

وجلةُ الأوقاف في عهدِهِ تُباع في الدلال ببيع الحياز
ومنها :

ويَدعي الرقة في طبعه مثل مخاديم الموالى الكبارِ

ومنها مشيراً الى قصة صدرت لبعض جماعة في مدرسة سيدي نور الدين الشهيد عليه رحمة العزيز المجيد :

(١) • « وجم »

(٢) • ما بين الخطين شاقط من هـ

(٣) • « لرجل من أهل دمشق »

وليلةِ النورِ الشبيدِ التي سطا على القاضي بها الجوخدارُ
واستلَّ في المجلسِ مسكينةً مُخلَّصاً من كفه لاله زار
وهي التي كانت تُقَدِّرُ الطللاً والأمرُ الحياطُ كانَ المدارُ

وحاصل الأمر أني حفظت منها أبياتاً ليست مرتبة لأنها علفت في
فكري من إنشاد القصيدة مرّة واحدة ، وهي حسنة في بابها غير أن
قائلها قد بالغ في بعض فصولها ، وذكر بعض أشياء تتعلق بجريم القاضي ،
وكان الواجب الإعراض عن ذلك ، لأنه افتراءٌ قبيح يُوقع قائله في
مهاوي المهالك .

وكان للقاضي الأياشي المذكور رجلٌ من جماعته يقال له قبلان ،
بقاف وباء موحدة ، ومعناه النمرُ بلغة التركية . وكان وكيله يسى
أرسلان^(١) ومعناه بلغتهم الأسد ، فهجاه درويش الطالوي المذكور بأبياتٍ
بشير فيها إلى ما ذكرناه ويشيرُ إلى نائبه الحنفي القاضي محب الدين ، وإلى
نائبه المالكي كمال الدين بن الخطّاب ، وإلى نائبه الشافعي مجد بن جانبك
الكنجي ، والأبياتُ هي قوله :

وحوشُ أياشٍ دُبها وحميرها وتبَاعها أسدُ الرُّبى ونمورها
وزنديقها خطأها وكُنيجها وتعبانها جارُ الغواني وزيرها
توشحُ كلُّ بردةِ الجملِ والرُّشا فبعضُ يسديها وبعضُ ينيرها
وأسودمُ ذاك المعاوي لدرمِ يضاهيه في وسطِ السماءِ بدورها
متى بصّه في كفِّ راشٍ قضى له وبات بتلك العين وهو قريرها

(١) ه ، ب « اصلان » .

إِذَا مَا تَوَلَّتْ فِي دِمَشْقٍ فَأَصْبَحَتْ
وَأُضْحَتْ بِرَوْضِ النَّيْرِ بَيْنَ رِوَامِقًا
وَسَارَتْ عَنِ الشَّامِ الْفَضَائِلُ مُدَاثَتْ
وَدَدَتْ أَنَّ الدَّهْرَ يَنْظُرُ مَرَّةً
إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ تَحَبَّطَتْ
وَمَشْرُبُهَا بَعْدَ الْأَجُونِ نَمِيرُهَا
وَمَسْكِنُهَا بَعْدَ الْفَلَاةِ قَصُورُهَا
فَلَمْ يَدْرِ أَهْلُ الْفَضْلِ أَيْنَ مَسِيرُهَا
بَعِينَ جَلَا عَنْهَا الْغِيَابَةُ نُورُهَا
وَجُنَّتْ فِئَاسَ النَّاسِ مِنْهَا حَمِيرُهَا

والبيتان الأخيران متقدمان للغير ، وقد ذكرهما الشاعرُ المذكور للتضمين ، لكنه لم ينبه عليها ، فكان ذلك سرقةً لعدم شهرتها أيضاً . وهذه عادةُ هذا الشاعرِ حججهم (٢١ ب) على بيوت الناس من غير تحاشٍ ، فإنَّ عُرِفَتْ قال : أخذتها تضميناً وإن لم تُعْرَفْ قال : هي شعري ومن نظمي ، وستأتي أوصافه مفصلةً إن شاء الله تعالى في حرف الدال .
(١) ومطلعُ القصيدة ذات الفصول العديدة ، أعني الأباشيَّة الطالوية ، وهي مشهورة عند الفضلاء والأدباء النبلاء .

الشَّامُ تَبْكِي بِدَمُوعٍ غِزَارٍ^(٢) بَكَاءُ تَكْلِيٍّ مَالِهَا مِنْ قَرَارٍ
بِكَاءٍ مَظْلُومٍ لَهُ نَاصِرٌ لَكِنْ بَعِيدِ الدَّارِ وَالْحَصْمِ جَارٍ
وهما قديمان وقد أخذهما على عادته في سرقة .

فِي عَامِ سَبْعٍ بَعْدَ الْآلِ^(٣) مَضَتْ
حَلَّ بِهَا قَاضٍ^(٤) عَلَى جِهَلِهِ
لَيْسَ لَهُ دِينٌ وَلَا مَذْهَبٌ
مِنْ هَجْرَةِ الْمُخْتَارِ زَاكِي الْفَخَّازِ
أَظْلَمُ مِنْ قَاضِي سِدُومِ الْحَمَارِ
إِلَّا الرُّشَا وَالْإِنْتِشَا مِنْ عُقَارِ

(١) من هنا ساقط من ه ، ب .

(٢) م « غرار » .

(٣) م « الألف » .

(٤) م « قاضي » .

وآخرُ الفصول في استغاثة أهل الروم على عزله :

فيا موالي الروم يا مَنْ بهم تستكشف الجُئى ويُجلى النهارُ
العلمُ والفضلُ بأعتابكم وفيكم النجدةُ والانتصارُ
قولوا لصنعِ الله ركنِ الهدى بجرِ الندى والعلمِ طودِ الوقارِ
العالمِ العاملِ مَنْ رأيه في ليلِ هذا المحطَبِ صبحُ أنارِ
مفتيِ الفريقينِ إمامِ التقى شيخِ الأصواتينِ الرفيعِ المنارِ
حامى حىِ الشرعِ بسُمرِ القنا لها كفعلِ البيضِ ذاتِ الغرارِ
يُعرفُ السلطانَ مولىِ الورى فوْثَ ملوكِ الأرضِ قطبَ المدارِ
ظلَّ إلهِ العرشِ مَنْ دوختُ سطوتهُ قهراً ملوكَ الحجارِ
محمدُ أعدلُ (١) مَنك سَمَا من آلِ عثمانِ حماةِ الدمارِ
أحوالَ قاضٍ إن يَدُمُ نَصْبُهُ (٢) بالشامِ يوماً فالفرارِ الفرارِ
هى وليُّ الأمرِ سُطاننا يا مُرَّ عُقْبى عزله بالدمارِ
فإنَّ تقليدَ القضا جاهلاً فيه على الدولةِ إنمَّ وعازُ
لا زال قاضيِ السوءِ من فعله دائرةُ السوءِ عليه تُدارُ
وفوق (٣) هذا غضبِ الله ما أقبلَ ليلٌ وتولى نهارُ
وكان للظالمِ يومِ الجزا جهنمٌ مثوى وبئسَ القرارِ

(١) م « عدل » .

(٢) م « احوال قاضي إن يدوم نصبه » .

(٣) م « وقوف » .

وله فيه وقد شكَا قلة المحصول ، وأنه قليل ومع ذلك متعسر الحصول :

قل لقاضي القضاة أعني الأياشي عقلٌ مولاي ليس عقل معاشي
أشتكي قلة المحاصيل ممن أنت فوضتها الى الأوباش
أنت صيرتها برأيك نهياً بين رند ومردك وقلاشي
وله في نائبه المالكي :

نائبُ القاضي الأياشي عقله عقل معاشي
يرثي قاضيه لكن هو لا يصغي لراشي
هكذا قيل وعندي ما أصيلٌ مثل ناشي^(١)

والعجب أنه قد مدح القاضي الأياشي المذكور قبيل هجوه بأيام
قليلة بقصيدة شنية أنشدنيها بدمشق ومطلعها :

كيف أخشى بالشام أمر المعاش^(٢) وملاذي بها جناب الأياشي
أفضلُ القومِ مَنْ سَمَا للعالي فاعتلاها طفلاً وكهلاً وناشي
فهو بدرُ العلوم صدرُ الموالي مَنْ سمام فضلاً ولستُ أحاشي
خيرُ قاضٍ ربُّ البريةِ راضٍ عنه إذ صان شرعه عن تلاشي
| ساق عدلاً بالشام حتى شهدنا مَشِي ذئبِ الفلاةِ بين الموائشي^(٣)

وهي قصيدةٌ حسنةٌ في بابها على صعوبة رويتها .

(١) الى هنا ينتهي السطر من ه ، ب .

(٢) م « المعاشي » .

(٣) هذا البيت ساقط من ه .

ولقد عُزل القاضي المذكور عن دمشق بُعِيدَ رَجْمَهُ غير بعيد ،
وامتنع ذلك كله وقت عيد ، فصدر تاريخٌ لطيفٌ يشير إلى ما ذكرناه .
والتاريخُ المذكور مشتركٌ بين درويش المذكور وبين رجل آخر من
أدباء دمشق فقالا :

رُجِمَ الأياشي في دمشق وجاءه عَزَلٌ وكان العيدُ عيداً أكبراً
وسُئِلْتُ عن تاريخه فأجبتهم بالعزيز شيطانٌ وجيمٌ دُمِّرا
وأياش المنسوب هو إليها قَصَبَةٌ يُصْنَعُ بها الصّوف في نواحي
أنكورية وأنقرة من بلاد قرمان .

وقد عدّ فضلاءُ الدهر توليةَ المذكور للقضاء من أعظم البلاء . وكان
المعين له على ذلك بعض المقرّبين عند حضرة السلطان مراد بن المرحوم
السلطان سليم .

وهو الآن معزولٌ مقيمٌ في بلده المذكور وربما توجه أو يتوجه الى
باب السلطان أيّده الله تعالى ليتوصّل الى أن يتولى بلدةً ويسعى في
ثبوت قضائها عليه ، ولعل القضاء يدركه ، أو بعد القضاء يُهلكه ، إن لم
يتب الى ربّه ، ويعترف صادقاً بذنبه . فيا خجلته وخجالة أمثاله إذا
كان القاضي عليهم جبار السّموات والأرض وهم صموتٌ لا ينطقون ، ومن
ربقة العذاب لا يُعتقون . والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

١٩

الشيخ أحمد العنباياتي

النايلسي الاصل الدمشقي السكن والدار

| هو أديب الزمان ، وشاعرُ العصر والأوان . جاب الأقطار . ودار في كلِّ دار . وجمال في كلِّ مجال . حتى اغتدى في الأدب علامةً ، وصار له على بلوغ المراتب العالية أصدق علامةً |^(١) وهو الأديبُ البارِع ، الذي توَحَّد في أمر^(٢) الأدب فلم يبق له مُضارع . وساق في حلبة العربية حتى أصبح المجلّي في هاتيك الفرقة الأدبية . ولم نَرَ له من شبيهه ، ولا يحتمل وصفه التشبيه ، إذ لم يكن له في الأدب من نظير ، بل شعرُه الروض النضير .

والده أبو العنبايات من مدينة نابلس . وقطن مكة مدة وتزوج بها . فولد له أحمد هذا بها . وإنما قيل له العنباياتي نظراً إلى والده ونسبةً إليه . وكان ينطق كناطق أهل مكة .

ولم يَقِرَّ زمن شبابه بمكان بل كان يَطُوف الأقطار (٢٢ ب) ويجول في كل ديار . لكن كانت سياحته مقصورةً على حلب ، وطرابلس ، والشام ، وبيت المقدس ، وما بين ذلك من القصبَات مثل حماة ، وحمص ، والمعرّة ، وصفد ، وغزّة . وقدم آخرأ الى دمشق في حدود ست وثمانين أو سبعٍ أو ثمانٍ في ما أظنّ وتسع مئة ، وألقى بها عصا الترحال .

(١) ما بين الخطين ساخط من ه ، ب .

(٢) ه «أمراء» .

الى أن انحنى غصنُ قدّه و مال . فسكن مرةً في مسجد هشام ابن
عبد الملك^(١) في جهة سوق جَعَمَق . ثم ارتحل الى المدرسة البادرانية^(٢)
واستمر بها مجاوراً في حجرةٍ إلى أن مات بها الى رحمة الله ...
وكان يتعمّم بالصّوف الذي يُقال له المتزر . ولم يتزوج في عمره
ولم يضاعف قرينةً تشغله عن صفاء فكره ، في نظمه أوثره ، | وكان
متقللاً في الطعام واللباس . منقبضاً في الغالب عن مخالطة الناس |^(٣) وكان
الغالب عليه الاستيحاش من الأنام ، وينفرد في غاب وقته كالطير
الوحداني في الظلام . وكان يكتب الخطّ الحسن . وينطق باللفظ المكّي
المستحسن ، وينظم من الشعر ما يُزري بزهر الحُمائل ، ويزهو على فرند
السيف إذا أبرزته الصياقل . ويأتي فيه بكل معنى بديع ، ويبرز فيه
من بدائع البديع ، ما يعلو على زهر الربيع .
وكانت عادته في كل يومٍ على الصباح . أن يجيب | في الغالب |^(٣)
داعي الفلاح ، ثم يسير الى بيت من بيوت القهوة ، يكون فيه الماء
الجاري مع المليح الساقى والجلوة . ويشرب من | قهوة |^(٣) البنّ أقداحاً ،
ويرتاحُ بها كأنه عاقر راحاً ، ثم يشرع في الكتابه ، ولا يُبدي لأحد
في الغالب خطابه . وكان في الغالب يقضي نهاره حيث كان وقف الصباح .
ولا يزول منه في الغالب إلاّ إذا راح في الرّواح . وربما كان يبيت
هناك . ويقول | لقلبه |^(٣) خذْ من العيش ما هناك . وكان قليل التكب
بأشعاره . و | كان |^(٣) إذا مدح أحداً لا يذهب الى داره ، بل يرسل
مدحه الى بعض توابعه ، راجياً بالإشارة شيئاً من منافعه ، وكان يدخل

(١) لا يزال هذا المسجد قائماً . وكان يحله يُسمّى الفسقار (انظر تاريخ مدينة دمشق ،
تحقيقنا ، القسم الأول من المجلد الثانية ص ٥٧ رقم ١٦) ونسبته الى هشام

ابن عبد الملك غير صحيحة .

(٢) انظر النيمي ١ : ٢٠٥ .

(٣) ما بين الخطين ساقط من ه .

في جميع طرق الشعر من هجوٍ أو مديح ، أو تغزّلٍ في ذي جمالٍ
مليح ، أو من مواليا ، أو زَجَل ، أو سلسلة ، أو غيرها من
هَزَجٍ ورمَل .

وكان أسمرَ اللون منقبضَ الكون .

وكان الأديب محمد الصّاحي الهلالي يقدحه ، ويذمه ويجرحه ، عملاً بما
عليه الأقران . من النحاسد والخذلان . وكان إذا أغضبه يُنكر حسَبَه ،
ويستلمُ نَسَبَه ، ويقول : هذا لقيطُ سَبِيَّاتِ مكة . وكان في وقت
الرضا ينكرُ معرفته ويُبدي شكته . وما كان ذلك إلا للحسد الذي
لا يخلو منه في الغالب جسَد . (٢٣ آ) لاسياً أهل الفضائل ، فانّ
الحسد عندهم مركز في الطبائع لا يُزائل .

وكان هو أيضاً يسبُّ بعض شعراء عصره ، ولا يسلم زيادة فضيلة
في أبناء عصره . لا سيما الشيخ محمد الصّاحي الهلالي المشار إليه - فإنه
كان شديد البغض له والتعامل عليه . كنت يوماً ماراً في بعض أزقة
دمشق فصادفته يقول لي هل سمعتَ بالخرّاع الذي أبداه محمد الصّاحي ؟
فقلتُ : الى مَ تشير . وعلى أيّ كلامه تبدي النكير ؟

فقال : إنّه يقول في مطلع مرثيته لشيخك العلامة العماد الحنفي
الدمشقي رحمه الله تعالى :

لم أقتض من يوم الفراق شوّوني فقضيتُ إنِّ لم |^(١) أجرِ ماء شوّوني

قال : انظر الى عدم الرابطة بين المصراعين - وأي مناسبة بين الجزئين ،
هذا مع كونه مأخوذاً من مذهب الدين الموصلّي أخذاً شنيعاً . مرقه
وكساه لباساً فظيماً ، لاوشياً بديعاً ، ولا زهراً أظهره الزمان ربيعاً -
فقلتُ : كيف قال المهدّب ، في نظمه المهدّب ؟

(١) ساقطة من ه .

فأنشدني له مطلع قصيدة . منضدة من الدرر الفريدة . وذلك قوله
رحمة الله تعالى

أَعْلِمْتَ حَقًّا أَنْ مَا شِئُونِي سَبَبٌ يَدُلُّ عَلَى خَفِيِّ شِئُونِي

قال : حَشَفًا وَسَوَّ كَيْلَةً . إِنَّمَا خُطَّةٌ سَوِّ فِي أَسْوَأِ قَبِيلَةٍ .
وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ مَعَانِيهِ . وَغَلَطَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسْتَهْجِنِ مَبَانِيهِ .
فَأَمَّا مَنَاقِشَتُهُ فِي الْمَعَانِي فَغَالِبُهَا مَسَلَّةٌ ، وَأَمَّا مَنَاقِشَتُهُ فِي الْأَلْفَاظِ
فَكَالسَيُوفِ الْمُثَلَّةِ ، لَيْسَتْ عِنْدَنَا بِمَقْبُولَةٍ ، وَلَا عَنِ الْأَعْلَامِ مَنَقُولَةٌ . نَعَمْ
إِنَّهُ رَأَى لَهُ ضَبْطَهُ . فِي كِتَابِ خَطِّهِ . وَهُوَ دِيْوَانُ الْأَسْتَاذِ عَمْرِ بْنِ
الْفَارِضِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ قَوْلِهِ فِي النَّائِيَةِ الْكَبْرَى الْمَسْمُوءَةِ بِنَظْمِ السَّلُوكِ :

فَمِى مَرَّةٍ لِبْنِي وَأُخْرَى بِثِيْنَةٍ وَأَوْنَةٌ تُدْعَى بَعَزَّةً عَزَّتْ

فإنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدًا كَتَبَهَا بِعَزَّةٍ عَزَّةً ، وَكَتَبَ الْفُظْيَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ
بِالْتَاءِ الْمَرْبُوطَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَذَلِكَ مُخَالَفٌ لِلصَّوَابِ بَلِ الْحَقِّ كِتَابَةُ الْأُولَى بِالْتَاءِ
الصَّغِيرَةِ وَالثَّانِيَةِ بِالْتَاءِ الْمُدَوْدَةِ عَلَى أَنَّهَا فَعْلٌ مَاضٍ ، وَأَنَّ الْجُمْلَةَ دَعَائِيَّةٌ ،
أَيُّ أَعَزَّهَا اللَّهُ تَعَالَى . وَهَذَا سَهْلٌ لَيْسَ مُسْقِطًا لِفَضِيلَةِ فَاضِلٍ ، وَلَا
مُنْقِصًا لِرَتْبَةِ كَامِلٍ .

وَكَانَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ مَعَ ظُهُورِهِ بِصُورَةِ الْفَقْرِ يُتَّهَمُ بِمَالٍ كَثِيرٍ .
| وَظَهَرَتْ لَهُ بَعْضُ آثَارِ | ^(١) حَيْثُ أَحَبَّ بَعْضُ أَحْدَاثِ دِمَشْقِ وَشَكَا عَلَيْهِ
بِمَبْلَغٍ يَقْرَبُ مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ ذَهَبًا . وَكَانَ الْقَاضِي حَيْثُذَ الْمَرْحُومِ الْعَلَامَةِ
الْقَاضِي مَحَبِّ الدِّينِ الْحَمَوِيِّ الَّذِي سَكَنَ فِي دِمَشْقِ ، وَنَابَ بِهَا فِي الْقَضَاءِ
(٢٣ ب) عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَلَمَّا وَقَفَ
الْعِنَايَاتِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَقْرَأَ الْحَدِيثَ بِالْحَقِّ لَدَيْهِ ، طَلَبَ حَبْسَهُ ، وَاقْتَضَى
مِنْهُ دِينَارَهُ وَفَلَسَهُ .

(١) ساقط من ه .

فقال له القاضي : يا شيخ أحمد ! نجسه عندك ؟
فقال : يا مولاي أنا في حبس حبه وهو في حبس مالي . وحينئذ
فلا له ولا لي .
ودام في ذلك الكلام ، ولم يحصل له منه إلا الكلام . وتفارقا ،
ثم توافقا .

والبقية من المال التي فضلت عن الحدث رام أن يخزنها الى أوان النزول
في الحدث ، فأخفاها كالحَيَال . وكان يقول : لا وَاَلَدَ ولا مال . فخدمه
بعض المريدين ، لبعض التصوفين . فلما غرق في سكرات الموت ، وتحقق
الخدوم أنه شارب شرية الفوت مدَّ الخادم يده إلى ما عنده ، فتناول
من بقياره ، ما أبقاه من دينار ، فيقال إنها مئة دينار ، فذهب وتركه
وحيداً ، وأبقاه في سكراته فريداً . وكان ذلك في المدرسة البادرانية ،
بدمشق المحمية ، وذهب الشاب الذي كان يخدمه الى الصالحية . فقضى عليه
بعد ذهابه وباب الحجرة مغلق عليه - ولم يكن غير الخادم المذكور أحدًا
يترددُ اليه . فلم يشعروا به إلا بعد ثلاثة أيام . وتناول بعض المشيخين
بقية (١) اثاثه ، وما بقي من كتبه وأثوابه . وذهب مجرداً عن الفضة
والذهب ، دخل (٢) اليها مجرداً وخرج منها مجرداً ، ولعله يكون مجرداً
عن الذنوب ، فإن خطاياها سهلة بالنظر الى الطافِ علامِ الغيوب .

(٣) كان ابتداء اجتماعي به في سنة ست وثمانين وتسع مئة بصالحية
دمشق ليلاً في زاوية اسمها الداودية (٤) ، وصورة ذلك أني كنت مع
جماعة من الفضلاء الأعيان في الزاوية المذكورة . وكان لنا مذاكرة فيما
يتعلق بشعر الشيخ الاستاذ سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه - وحيث

(١) هـ « بعض » .

(٢) هـ « كما دخل » .

(٣) من هنا ساقط في هـ ، ب .

(٤) انظر القلائد الجوهرية ١ : ٢٠٣ : والنبيمي : ٢٠٢ .

نارُ المذاكرة والتعمت جمعية المحاورة . وكان غصن شبابي رطيباً ، وبُرْدُ حياتي قشيباً - وإذا برجل من ناحية الزاوية يُشارك في المذاكرة المباركة ، أحسن مشاركة . ويقرأ نظير ما نقرأ من الأبيات ، ويشير الى مأخذها بالإشارات الواضحات . فقرّبناه وأدنيّناه ، وبلطف المؤانسة عاملناه . فتقرب الينا ، وعطف مجوامع قلبه علينا . فسالناه عن اسمه ، ونسبه ، وأصله وحسبه . فانتسب وتسمى ، وأوضح نفسه وما عمتي . وكنا نعرفه بالسماع ، قبل وقت الاجتماع ، فازدادت المعرفة تأكيداً ، وأصبح به لباسُ الصحبة جديداً ، ورافقنا وما فارقنا، وهو الى هذا التاريخ ، وهو سنة تسع بعد الألف لنا مصاحب . (٢٤٤ آ) وبالآداب مناسب كتب اليّ وكتبتُ اليه . ومدحني ومدحتُه . وناظرني وناظرته |^(١) فمن ذلك أنني كنت نظمت في سنة ألف من الهجرة هذه الأبيات وهي قولي :^(٢)

أما ينقضي هذا الغرامُ من القلبِ أما ينطوي هذا الملامُ عن الصبِّ
| ألا حاكمُ بيني وبين عواذلي فيسألهم ماذا يريدون من عتي |^(٣)
ألا راحمٌ في الحبِّ أشكو ظلامتي اليه فقد زادت يدُ البين في حربي
ألا ساعةٌ أخلوبه فأبئته لواعج نيرانِ أقامت علي قلبي
أما في الوري من فيه رقةٌ رحمةٍ فيبدي له حالي ويوصله كُثبي
لقد ضاقت الدنيا علي لُبغده علي رحبها^(٤) من غاية الشرق والغرب

(١) إلى هنا ساقط في ه ، ب .

(٢) في ه ، ب : « وأنشدته مرة أحياناً نظمها في الغزل ، وهي في الحليقة صبية

في بابها ، فريدة بين أترابها وهي قولي : « .

(٣) هذا البيت ساقط من ه ، ب .

(٤) ه ، ب « علي وسها » .

إذا لاح تبدو وقفة في تلفظي
فاني إفصاح ولا فيه رحمة
ولا أنا ذو فكر صحيح يدلني
وإني إلى مولاي أنهيت^(١) حالتي
وأغدو لما ألقاه أحيّر من صب
فيسأل عن حالي ويفرج عن كرب
على سبب التأنيس أو سبب القرب
فغاية شكوى العاجزين إلى الرب

فوقف عليها الشهاب العناباتي المذكور فكتب نظيرها فقال: (٢)

تَعَشَّقْتُ فِي سَكْرِ النِّعَمِ مَغْفَلًا إِذَا جِئْتُ أَشْكُو مَا جَرَى^(٣) مِنْ أذى العَب
أصيحُ به يأسا كن القلب رحمة
وزداد قلبي حرقة فوق^(٤) حرقة
فلا البعد يُسليني ولا القرب فيه لي
ولا والذي يبقيه لم يدر عنتي
فمن ذاق طعم العذب في الحب إنني
ويجلو له شتمي وسبتي لعنه
فيارب لا تكتب عليه خطيئة
سواء كما لم يدر إله بالطب
على الدهر وحدي في عذاب من الحب
بجبتني فيجلو لي على الشتم والسب
وسامحه وأصفح عنه وأحفظه ياربي

(١) هـ ، ب « وجهت » .

(٢) هـ ، ب « فأحب أن يُمارضها على الوزن والقافية فقال ، وأجاد في المقال ،

وحلتي بعقود اللآل : »

(٣) ب « هرا » .

(٤) هـ ، ب « بعد » .

(٥) هـ « فواضيري » ، ب « فواضري » .

وكتبت^(١) ايضاً يوماً دوبيت :

العينُ تعينُ أختها في الدمعِ إن غاب عن الحمى غزالُ الجزعِ
الحزنُ على الفؤادِ في وحشته إذ صارَ يذوبُ مثلَ ذوبِ الشمعِ
فقال الشيخ أحمد العناياتي يعارضه :

قد ذبتُ على هواك ذوب الشمعِ أوديك بنور ناظري والسنعِ
والله وإنها يمينا الشرعِ حي لك يا معذبي بالطبعِ
[وكانت يترددُ إليّ ، ويتفضل بذلك عليّ ، زارني مرة في المدرسة
الناصرية الجوانية ، بدمشق المحمية ، وأنا مجاور بها للقراءة على شيخنا العلامة
العقاد الحنفي الدمشقي ، وكان مدرّساً بها في ذلك الزمان ، فلم يجديني في
الحجرة . فكتب لي في الحائط بالقرب من بابها :

أتيت وبي ليل من الهم عاني أجليه بالانوار من طلعة البدر
فعدت كما عاد الذي شفّه الظما ولم يشفه لقيانه موضع البحر^(٢)
مرّةً مرّةً بالمدرسة الناصرية الجوانية ، فرآني مستريحاً في عالم النوم ،
فكتب علي باب الحجرة التي كنت بها مستريحاً^(٣) :

جاء المحبُّ اليك بعد سنّه رآك عنه محجّباً بسنّه
ياحسناً جاءه المحبُّ فما أوجده سوء حظه حسنه

(١) من هنا يختلف النص في الترتيب بين نص م الذي أثبتناه ونص ه و ب
المتشابهين .

(٢) الزيادة من ه ، ب

(٣) ه ، ب : « وكتب علي باب الحجرة المذكورة أيضاً ، وقد أجاد أيضاً ، وقد
جاءني فوجدني مستريح البدن بفضل الوصن قوله : «

وكتب أيضاً على باب الحجر المذكورة ، وقد جاء يزورني من دُمَلِّ
فما رأني ، هذه الأبيات (١) : (٢٤ ب)

سلمك الله وقد ذمّ لكاً من كلّ سوءٍ وشفى دُمَلِّكاً
ياحسن الجميع من صفاته تبارك الله الذي كَمَلَّكاً
كملت في الخلق وفي الخلقِ فما أعرفُ إنساناً أرى أم مَلَكاً
وكتب أيضاً على باب الحجر هذين البيتين وفيها إشارة (٢) :

يزيدُ لكم جفاكم من ودادي وذنبي عنكم تلك الزيادة
لكم مني مقالُ أبي فراسٍ ولي منكم مقالُ أبي عبّاده
قلتُ : أشار بقوله : لكم مني مقالُ أبي فراس ، الى قول أبي فراس
الحارث بن حَمْدان :

أساءَ فزادته الإساءةُ حظوةً حبيبٌ على ماكان منه حبيبُ
يعد عليّ الواشيان ذنوبه ومن أين للوجه الجميل ذنوبُ ؟
وأشار بقوله : ولي منكم مقالُ أبي عبادة البحتري :

إذا محاسني اللآتي أدلُّ بها ترى ذنوباً فقل لي كيف اعتذرُ
واجتمعنا يوماً معه في جمعٍ عظيم ، في مقامٍ كريم . فقال لي : قد
مدحتكم بقصيدة في عتاب ، وأريدُ عنها الجواب .
فقلتُ له : إن رأيتُ القصيدة ، عارضتها بقصيدة فريدة .

(١) في ٥ ، ب « وسمع مرة أن عندي دُمَلّاً من دم ملا ، فجاء عانداً لم يجدني ،
فكتب على باب الحجر هذه الأبيات : »

(٢) ٥ ، ب « وجاء مرة أخرى وكتب على باب الحجر معاتباً من سبب لعتاب »

فعرض عليّ في المجلس قصيدته التي أشار إليها وعوّّل عليها . وهي هذه (١) :
تجنّى ولما أن عتبتُ تجنّباً وزادَ رضيه عليّ تفضباً
فواحرّبا من حبّ قاسٍ يزيدني على جورهِ وُدّاً له وتجنّباً
غزالٌ نفورٌ قطُّ ماجتُ باسمأ للقيّاهُ إلاّ صدّ عني وقطباً
يراني فيزوي وجهه عند رؤيتي كما شرب المخمورُ كأساً تفضباً
حلا لي فيه المرُّ حتى حسبتُه يريد بإبعادي اليّ تقرّباً
فهل قادمٌ من وصله طال نأيه فيُعدي عليّ هجرَ أقام وطنباً
فقد جار دمي وهو يجري صبابةً وقد ملّ شعري وهو يملّي تَعَباً
وأذهبتُ عمري في تلاقيه علّ أن يصادف عذري في تلافيه مذهباً
فيا راقداً أقرحتَ جفنك مسهداً ويا منماً (٢) أشقيتَ قلباً معذباً
عسى عطفة أحيأ بها أو سنية أراحُ بها من أن أعيش مُذبذباً
ويا منيبيّ إمّا أردتَ منيبي فردي موتاً من صدودك أعذباً
فلو أن رضوى حاملٌ ما تحمّلتُ صفاةً فؤادي عاد (٣) رضوى بهباً
ولولا الهوى مالان للذلّ جاني وكنت عليّ قودِ المذلة مُضعباً
وإني لأبي الضنيم إلاّ من الهوى وكم عاشقٍ سيم الهوان فما أبي

(١) هـ ، ب « قلتُ » : وقد كتب اليّ نحو عشر قصائد من شعره . وقد أجبته عن واحدة منها . فالقصيدة التي أجبته عنها هي قوله : «

(٢) هـ ، ب « ويا ناعماً »

(٣) هـ ، ب « صار »

أدومُ بودي للحبيب وإن جفا
 وخلّ تخلى بعد أن كنت واثقاً
 ألمٌ به تشيخَ حالي وأتقي
 يعاقرتني راحَ المعاني فانتني
 ويمنحني علماً وبراً كأنني
 وليثُ فصيحُ فارسٍ كلَّ شارِدٍ (٢٥٢) بإعرا به أنسى الفصيح (٤) وتعلبا
 إمامٌ أوافيه بنظي منفضاً (٥)
 تماسك عن صوبي بإقباله كما
 أغاث فلما أنبت الودَّ حاد عن
 وزحزح من قدري لديه وقدره
 [وقلبي ينبيني بصحة قلبه
 فيا حسناً مازال بالفضل محسناً
 وأحفظُ عهدِي للصديق وإن نبا
 بميثاقه أن لا تحلَّ له حُباً
 بأخلاقه خير (١) الرجال المهذبا
 براحةٍ لفظٍ تُرجعُ الشيبَ للصباً
 أرى ابن قريب (٢) منها والمهلبا (٣)
 فأبصره من نقده عاد مُذهباً
 تماسك صوبُ الفَيْثِ عن زهر الرُّبا
 رواه فأظماه ولو عاد أخصباً
 بقلبي أوسى من ثبير (٦) وأوسبا
 ولكنه كم قلب الدهرُ قلباً (٧)
 ولما يزل بالعلم والحلم مُحسباً

(١) م ، ب « غير »

(٢) يعني الأصمى ، فاسمه عبد الملك بن قريب .

(٣) يعني المهلب بن أبي صفرة .

(٤) يعني كتاب الفصيح لثعلب .

(٥) م ، ب « منفضاً »

(٦) أي جبل ثبير .

(٧) الزيادة من م ، ب

أَتَسَىٰ مَحَبًّا فِي ذَرَىٰ فَضْلِكَ انْتَشَىٰ
أَعْيَدُكَ أَنْ أَلْقَىٰ رِيَّاحَكَ زَعَزَعًا
عَتَبْتُ بِإِدْلَالِ الْمُقَرَّبِ بِذَنْبِهِ
وَخَيْرٌ لِعَبْدٍ لَمْ يَجِدْ غَيْرَ رَبِّهِ
فَإِنْ تَدْتَقِمُ لَمْ تُحْطِ أَوْ تَعْفُ لَمْ تَرَلْ
كَرِيمِ السَّجَايَا تَنْظُرُ الْعَفْوَ أَصَوَّبَا

فكُتِبْتُ أَنَا إِلَيْهِ الْجَوَابُ ، مُسْتَمِدًّا بِرَبِّ الْأَرْبَابِ فَقُلْتُ (٢) :

إِلَىٰ كَمْ تُرَىٰ بِأَرَاخَةِ الْقَلْبِ | مُغْضَبَا (٣)
أَرَاكَ فَيَغْشَانِي أَوْ تِيَّاحُ إِلَىٰ اللَّقَا
تَجُوزُ وَلَا تُبَدِي إِلَىٰ التَّفَاتَةِ
نَصِيْبِي إِذَا أَلْقَاكَ صَدُّهُ مُبْرَحُ
عَلَىٰ أَنِّي رَاضٍ بِمَا تَرْضِيهِ لِي
رَعَىٰ اللَّهُ ظَبِيًّا مَا يَزَالُ مَنَعَمًا
يَنَامُ وَلَا يَدْرِي بَيْنَ بَاتٍ سَاهِرًا
لَهُ نَقَسٌ مِمَّا شَجَاهَ تَصَدَّدَا (٤)

أَجْدُكَ أَنْ تَكْسُوهُ ثَوْبًا (١) فَتَسْلُبَا
عَلِيٍّ وَعَهْدِي بِأَرْتِيَّاحِكَ لِي صَبَا
فَكُنْ بِجَوَابِ الْمَانِحِ الْعَفْوَ مُعْتَبَا
يَلَاقِيهِ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْعَفْوِ مُذْنَبَا
كَرِيمِ السَّجَايَا تَنْظُرُ الْعَفْوَ أَصَوَّبَا

(١) ب « عزأ »

(٢) ب « فكُتِبْتُ إِلَيْهِ الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ فِي شَوَّالٍ مِنْ شَهْرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ

وَتِسْعِ مِائَةِ فَلْتِ : «

(٣) سَانِطَةٌ مِنْ هـ

(٤) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَلَعَلَّهَا مُصَدَّدَةٌ .

ومما شجا قاي وهيجَ لوقتي
تطلبَ مني سلوةً ما عرفتها
أريدلُ صبُّ ما صبا لتغبيرِ
ألا فديقصرُ عاذلي من ملامتي
نسيتُ المعالي إن نسيتُ عهده
وقيتُ بعهدي للحبيب^(١) من الصبا
سقتُ سحبُ الأفضال^(٢) أرضَ أحبتي
فقد مرَّ لي فيها ليالي توأصلِ
له حُسنٌ وجهٍ أخجلَ البدرَ مُشرقاً
وأرشفُ كأسَ الأُنسِ وهو مروقٌ
وأنظرُ من حسنِ الأحبَّةِ منظرأ
فرتُ كما مرَّت أوائلُ بارقِ
[فما أشتهيه صار عندي مبعداً
فصبراً على حكم الليالي وجورها
وخلِ أثاني منه عتبٌ كأنه

عذولٌ أطلَّ اللومَ فيه فأسهبها
وأبعدُ شيء في الهوى ما تطلبها
وقابُ حفوظٌ للوفا ما تقلبها
فقد رامَ من سلواي عنقاء مغربا
ولو صار جسدي من تباعده هباً
فكيف سلوي بعد أن صرتُ أشيباً
ولا زال واديهم مدي الدهر مُخصباً
أغازلُ ظبياً أحورَ الطرفِ أشنباً
وقدَّ قويمٌ أخجلَ الفُصنَ في الرُبا
وأرتادُ روضَ القُربِ ريان مُغشياً
وأسمعُ من طيبِ الأغاريدِ مطرباً
وأبقتُ أسيَ بين الضلوعِ مطنبا
وما لستُ أرضاه اليّ مقرباً^(٣)
فرب امرئٍ بالله جبر أدرك مطلبها
أزاهيرُ روضٍ فتحتُها يدُ الصبأ

(١) ه ، ب « للصديق » .

(٢) ه ، ب « الاقبال »

(٣) الزيادة من ه ، ب .

أقاني وجنح الليل مد رواقه وبدر الدجى في أفقه قد تحجبا
فلما فضضت الحتم من عقد دُرّه أضاءت وجوه الأرض شرقاً ومغرباً
يخبر أن الود منه بحاله وأن حُسام^(١) الود مني قد نبأ
وأن الليالي غيرتني وأتني^(٢) بتخذت الجفا والصد والبُعدَ منهباً
أجل غيرت جسمي الليالي وحالي وعقد ودادي لم تُحل له حبي
بقلي له ودٍ قديم حفظته أقام على مرّ الليالي وطنباً
أطلب في إثبات حبيه شاهداً وحسن ثنائي عنه ما زال مُعرباً
أحسب روض الحب جف نباته وورق ودادي لم يكن قط خلباً
[أنساه أو أنسى زماناً به مضى صفالي ما قد كثر العيش مشرباً]^(٢)
أليس إماماً شاع بالفضل ذكره فشرق في كل البلاد وغرباً
أليس سليل الغر من كل ماجدٍ يضي سنه في دجى الجهل كوكباً
[أليس ابن من دان الزمان لحكمه فأضحى ذلولاً بعد أن كان مُضعباً]^(٢)
[أليس وحيداً في الزمان وأهله وإن كان كلّ الجمع فيه تكتباً]^(٢)
تعب كي يُبقي المودة بيننا ومن رام إبقاء الوداد تمتباً
شهاب المعالي إن غدا الدهر جازاً وفي وجه ما قد رمته منه قطباً
فلا تُعتبته إن ذلك دأبه أبصرت ذا فضلٍ به نال مأرباً

(١) ه « حنام »

(٢) الزيادة من ه ، ب

أجبتك من بعد اعترافي بأنني
وهل يلحق الذُّنُوءُ الضَّعيفُ وإن سمي
فَدُمَّ جامِعاً للعلم والحلم مُفْرَداً
مدى الدهر مادامت بروق من الحمى
وَمِنْ شعره وَمِنْ خطه نقلتُ
سنة إحدى وعشرين بعد الألف :

شهودُ المحبة لا تخفي
فيا مُدَّعي العشق أين الشهودُ
وأين الحنينُ وأين الأنينُ
وما عَرَفَ العِشْقَ إلا فتى
له في الصباية صبُّ الدموعِ
يقلبُ إلى الصبرِ لم ينقلبُ
ومَنْ لم يَذُقْ بالهوانِ الهوى
ولم ينصفِ الصبُّ^(١) إن قال في
فصبراً لأحكام جور الهوى

وبارقة الشوقِ لم تُخْلِفِ
من الدمعِ والجسدِ المُذَنَّفِ
وأين الوفاء لمن لا يفِي
بغير التعشقِ لم يُعْرِفِ
والفةُ لآعجه المتلفِ
وطرفِ على النومِ لم يَطْرَفِ
ويشرفُ بالذلِّ لم يشْفِ
تسليه في الحبِّ مَنْ منصفِي
فما فيه من مُسْعِدِ مُسْعِفِ

[قلتُ : وقد تحاضرنا معه ليلة ، أسال بها الشوقُ سيِّله ، فقرأتُ بالمناسبة ،
أثناء المصاحبة ، قول مَنْ قال ، وأجاد في المقال :

حمام الأراكِ ألا فأخبرينا
لمن تدينين وما تعلمينا

(١) ب « الصبر »

لقد شقَّ نوحك جيبَ القلوب وأجريتِ بالدمعِ منا العيونَا
تعالِيْ نَقاسمِكِ مَمَّ النوى وندبُ إخواننا الظاعنينا
ونسعدُ كُنَّ وتُسدِّدُنَا فَإِنَّ الحزينِ يُواسي الحزينَا

قال الشيخ أحمد العناباتي صاحب الترجمة : أتدري أيها الأستاذ لِمَ هذه الأبيات ؟ فقلتُ له : لا أدري قائلها ، غير أني أعرف أن الوليد أبا عبادة البحتري الشاعر المشهور كان يتمثل بها كثيراً ، ويُجري بها على الحدِّ دمعاً غزيراً . وظهرت من العناباتي عبارة كانت قد صدرت مني على أسلوبها إشارة ، وهي معارضتها بأبيات تجري على مثلها العبرات . فقال مبتدئاً بذلك ، سالكاً هاتيك المسالك :

أجاعةُ الهجرِ في الحبِّ دينا إذا لم تجودي بوصلِ عدينا
بينيك هذا السقامُ الذي خفينا به فخفي الله فينا
وقولي لأحظك القاتلات كم فتكين أما تكتفينَا
ظلمتِ القلوبُ أما تتقين من ما يفعل الله بالظالمينا !
قلوبٌ بسحوكٍ قد آمنتُ فلا تضعي السيف في المؤمنينا
قلوبٌ إذا ما دعَّتْها العيونُ إلى حينها جثتها طائعينَا]

قلتُ : وقد قال بعضُ الطلبة في دمشق لما مات الشيخ أحمد العناباتي مشيراً إلى عام وفاته : مات العناباتي . فحسبنا ألقاظاً : مات العناباتي بحسب الجمل فكان موافقاً لتاريخ وفاته . مات في سنة أربع عشرة بعد الألف . وهذا من العجائب التي يقلُّ اتفاقُ مثلها . وذلك أن في اللفظ ثمانين بثمانمائة ، وبقية حروف العشرات مائتان وعشرة ، والآحاد أربعة

ألفات بأربعة في العدد فكان ذلك ألفاً وأربعة عشر . وهذا من غرائب الاتفاق الذي يقل وجود مثله .

قلتُ : ومن العجائب أيضاً التي اتفقت في شأن المذكور أن رجلاً من الفضلاء الصلحاء بدمشق رأى الشيخ أحمد العناباتي المذكور في منامه بعد مماته ^(١) . فقال له : يا شيخ أحمد ! قل لي ما فعل الله بك ؟ فقال له هذين البيتين . وجلس الرجل وهو يحفظ البيتين . وهما قوله رحمه الله تعالى (٢٦ آ)

كَلَوْتِي لِلْكَرِيمِ وَخَلَّفُونِي طَرِيحاً أُرْتَجِي عَفْوَ الْكَرِيمِ
لَأَنِّي عَاجِزٌ عَبْدٌ حَقِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَظِيمِ

| ^(٢) وبالجملة فهو شاعرٌ الوقتِ بالإجماع ، وصاحبُ ديوان العرب بلا نزاع ، لا يماثله في نظم الشعر مماثل . ولا يُشاكله في سرعة النظم مماثل . غير أنه ضيق الأخلاق ، خالٍ من لطف المعاشرة مع الإخوان والرفاق . يرى صديقه الأقرب ، فيهربُ منه كأنه عقرب . ويكون مع الصديق مسامراً ، ومع العشيرة معاشراً ، فإذا فارقه برهةً من الزمان ، نسيه حتى كأنه ليس بإنسان ، أو ما رامقه ناظر ولا إنسان . ويلبس الثياب التي لا تليق بأمثاله ، ويتوشَّحها متوشحة حتى تذهب من المزاج وصف اعتداله . وهو يتعمَّمُ بالثزر والصوف على طريقة الصوفية . وماله اهتمامٌ بتحصيل الدنيا الدنية . وما تزوج في عمره الطويل ، ولا مال إلى خلية تحضنه عن خليل . وللناس فيما يعشقون مذاهب . وكلُّ شخصٍ إلى مطلوب نفسه ذاهب . وهو الآن مقيمٌ بالمدرسة البادرانية ، بدمشق المحمية . مدح كثيراً من القضاة والأمراء . وعارض كثيراً من الكُتَّاب والشعراء . ففاز بالقدح المعلّى ، وأصبح من الفصاحة بالحلّ الأعلى . وفقنا الله وإياه ، إلى ما يحبه ويرضاه . إنه سبحانه وتعالى من الداعي قريب ، ويسمع ويحيب ^(٣) .

(١) ب ، ه « وفاته »

(٢) كل ماسياني ساقط من ه ، ب

(٣) إلى هنا ينتهي السقط من ه ، ب

٢٠

الشيخ أحمد المؤذن الضير الحافظ

كان رجلاً يقرأ القرآن كما أنزلَ بالسبع حفظاً عن ظهر قلبه . وكان يقرأ كلَّ ليلةٍ بعد صلاة المغرب في الجامع الأموي جزءاً من القرآن العظيم مرتلاً على كرمي الوعظ ، فيحضره أكابرُ دمشق وأعيانها من سائر الأصناف ما بين رومٍ وعجمٍ وعرب . وبالله لقد حضر قرآته هذه قاضي القضاة أحمد أفندي الأنصاري السابق ذكره . فقال لي : بالله إذا سمعتُ قراءة الشيخ أحمد المذكور أظنُّ أن جبريل يتلو القرآن على محمد ﷺ . وكان مع هذا الحفظ العظيم لطيفاً حسن الخلق . أخذَ القراءاتِ عن شيخ الإسلام الشيخ أحمد الطيبي الكبير المتقدم ذكره ، وأخذ عنه القرآن الشيخُ بعثُ الله قارئاً المولد الشريف بدمشق . وأبنته وهو يقودُ الشيخ أحمد المذكور الى إيوان الجامع الأموي ليقراً عليه . فكنا نعجب من أعمى يقود أعمى . وكان الشيخ أحمد المذكور يمشي على القبقاب العالي ، وما ذاك إلا بالهداية القلبية ، والعناية الربانية . وكان بيته تحت منارة العروس^(١) بالجامع الكبير . ولما مات فقدت الشام منه أنساً ربانياً ، ولطفاً قرآنياً وكان يُعدُّ من (٢٦ ب) محاسن دمشق .

مات في حدود التسعين والتسع مئة فيما أظنُّ . رحمه الله تعالى .

(١) هي المنارة الشمالية من جامع بني أمية . انظر عنها كتابنا : مسجد دمشق .

٢١

الشيخ أحمد الكردي العمادي الشافعي

نزيل الكلاسة بدمشق

هو الشيخ الذي اجتهد على تحصيل العلوم ليلاً ونهاراً ، واتخذها له شعاراً .
وَرَدَ الى دمشق الشام في حدود تسعين وتسع مئة ، ونزل بالمدرسة
الكلاسة^(١) . وكان يتردد إلى المدرسة الناصرية^(٢) الجوانية ،
بدمشق الحمّية . وكان يقرأ عليّ شرح « جمع الجوامع » في الأصول للمحقق
المحلّي ، وكنتُ بعد فراغه من القراءة في الكتاب المذكور أُصرّدُ عليه حصّةً
كبيرة من « شرح المواقف » للعلامة السيّد عبي الجرجاني ، لأنه أخبرني أنّه
قرأه على بعض المحققين في بلاده . واستمرّينا على هذا المنوال الى أن قرأ
شرح « جمع الجوامع » بتمامه ، وقرأتُ أنا موقف المقدمات وموقف
الأمور العامة وموقف الجواهر ، إلّا قليلاً . ولازم بعد ذلك الإقراء
والإفادة للطلبة في جميع العلوم ، واشتهر بدمشق وطار صيته في الآفاق .
وصار للناس فيه اعتقادٌ حسنٌ جداً بحيثُ أنه كان يُذكرُ بكمالِ
الصّلاح في مجالس حكّام دمشق . وصارت له علوفةٌ من الجوالي بدمشق
نحو عشرين درهماً عثمانياً كلّ يوم ، وتوسّل اليه إلى مكانه فينفق منها على
نفسه بالكفاف . وهو الآن أنفعُ الموجودين للطلبة . ولقد اجتمعتُ به بالجامع
الأمويّ ليلاً ، وكان ذلك ليلة الاثنين أواسط جمادى الأولى من سنة

(١) انظر النيمي ١ : ٤٤٧

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ٤٥٩

تسع بعد الألف ، فتذاكرنا معه أحاديث اجتماعنا به ، وخاض معنا في كثير من العلوم ، فوجدته (١) قد ترقى الى الغاية في حفظ العلوم لاسيما المواد الكلامية .

أخبرني من أثقُ به من فضلاء الطلبة أن الشيخ عمر الحرستاني نزيل الحانقاه الشميمصاتية رأى الشيخ أحمد المذكور بعد وفاته في منامه فقال : يا عمر أنت خدمتني في مرضي كثيراً فخذ هذا . وأعطاه شيئاً . فاستيقظ وفي يده دينار من الذهب . وراه كثيراً من الناس وتعجبوا من ذلك .

وبلغني أن رجلاً قال للشيخ عمر المذكور : أعطني هذا الدينار بثلاثة دنائير ، فما أعطاه وأبقاه في يده تبراً كما .

وهو الآن مقيم بالمدرسة الكلامية بدمشق ينفع الناس بالتدريس والدعاء ، سهل الله لنا وله طريق الخيرات ، ودفع عنا وعنه جميع المضرات . وتوفي الشيخ أحمد الكردي العمادي المذكور في يوم السبت التاسع والعشرين من ذي الحجة من سنة تسع بعد الألف ودفن بقرية مرج الدحداح رحمه الله (٢٧ آ)

(١) ب « فرأيتنه »

٢٢

الشيخ أحمد الجوهري

هو أحمد بن علاء الدين بن محمد بن محمد بن عمر بن ناصر الدين بن علي بن عمر البهرا مآبادي الجوهري نسبة الى بهرام آباد ، قرية من قرى إصفهان ، على ما كتب لي ولده سيدي أبوبكر بخطه .

هو الشيخ الذي نبغ من دوحة المجد ، وأدرك الجد السعيد بسعادة الجد ، وهو وإن كان مولده في دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام ، لكن أسلافه وردوا من جناب إصفهان . وقطنوا بدمشق دار اليمن والأمان . ونشأ سيدي أحمد هذا طالباً للعلوم لمجرد تحصيل الكمال ، لا لإدراك شيء من الأموال ، لأنه كان غنياً الى الغاية ، متولياً الى النهاية ، وكتب الخط الحسن المليح ، ونظم النظم الفصيح الصحيح . وسافر الى الأقطار ، وجاب العمران والقفار ، ورجع الى دمشق بمالٍ غزير ، وخيرٍ وافر كثير ، وألقى بها عصا الترحال . وأقام لا ينوي عنها الزبال . وَوَكَل مَنْ يَتَعَاطَى لَهَا أُمُورَ دُنْيَاهُ ، وهو مقبلٌ على طاعة مولاه .

ولم يزل مقيماً بدمشق لا يريم ، واتخذ له أصدقاء كلهم صالحٌ وكريم يتذاكر معهم كلام العارفين ، ويُحاضرهم في أحوال الأولياء السالفين .

وكان حسن الشكل طويل القامة ، ظريف اللبسة لطيف العمامة . وخلف بدمشق أربعة أولاد : علي ، وسليمان ، وأبو بكر ، وحسن .

فأمّا علي فإنه سافر إلى بلاد مصر ، وأقام مدة في الصعيد . ثم رجع

به الحظ السعيد ، إلى أن كانت وفاته بالحرم المقدس الأقصى وأدرك بذلك المقام الأقصى .

وأما سُلَيْمَان فقد أُسِرَ في نواحي البحر عند دمياط ، واستمرّ مقيماً في الأسر بمدينة مالطة نحو ثلاثة أعوام ، إلى أن أحسن الله خلاصه .

وذلك أن رجلاً كان مأسوراً بمدينة مالطة المذكورة وله معرفة بالوزير خضر باشا الحاكم يومئذ بمصر المحروسة فأرسل الوزير المذكور ، من اشترى الرجل المزبور ، من نفس مالطة . فلما حضر الرجل وخلص الى مصر حكى لحضرة الوزير المذكور عن حال الأسورين بمالطة ، وما يجدونه من الألم والجفاء ، وذكر له سليمان بن أحمد [الجوهري] صاحب هذه الترجمة وقال له : إن فك أسير من يد أهل مالطة يعدل عند الله حبة مبرورة . فأرسل الوزير رجلاً بمال فاشترى جماعة من أعيان الأسرى ألقى أسماءهم إليه ذلك الرجل المذكور ، ومنهم سليمان المذكور فخلص وجاء الى مصر .

واجتمعت به وسألته (٢٧ ب) عن حال الأسرى ، فذكر أموراً عجيبة . ورأيتُه قد تعلم لسان النصارى بمالطة . وذكر لي أن غالب أهل مالطة يعرفون العربية لانهم كانوا في الاصل في بلاد ساحل القدس ولما ملك بلاد الشام المرحوم السلطان العادل نور الدين الشهيد والمرحوم الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب خرج ملوك الساحل مع طوائف النصارى الى بلاد الكفر ، فعين لهم ملك النصارى جزيرة مالطة فقتلوا بها .

وأخبرني أن أهلها يقولون : مدينتنا هذه وما يتبعها من البلاد وقف يحيى النبي عليه الصلاة والسلام . وذلك لأنه قد غسل المسيح عليه الصلاة والسلام في نهر الاردن المقارب لفلسطين في يوم المعمودية ، ولذلك أكرمه الملوك ووقفوا عليه هذه الجزيرة .

وذكر لي قصةً عجيبةً تدلّ على كمال خفة عقول النصارى . وهي أنّ أهل مالطة عندهم صنمٌ كبير من الذهب مرصعٌ بالجواهر يُعظّمونه بحيث يعبدونه ، وله خدامٌ من رهبانهم وقسيسهم ، وفي كل سنة يأخذ الصنم المعبودَ رجلٌ منهم ويُلقيه في بستان بين زهر الفول ، ويقولُ للهوك بها والأمراء ولبقية عوام الناس : إن ربكم قد غضب عليكم ورحل عنكم . فيجدون لذلك من الألم ما لا يعلمه إلا الله جلّ وعلا . ويلبسون خشن الثياب ، ويأتون إلى الراهب الذي أخبرهم بغيظ معبودهم ويقولون له : كيف السبيل إلى أن تُرضي معبودنا علينا ؟ وكيف الطريقُ إلى رجوعه إلينا ؟ فيقول لهم : ما آن الأوان ، ولا قرب الزمان ^(١) . فيسترون على الحزن والألم والصيام ولبس خشن الثياب ثلاثة أيام أو ماقاربها ، ويجمعون أموالاً كثيرة للرهبان الذين يخدمون ذلك الصنم ، إلى أن يقول لهم الراهب الموكّلُ به : اليوم يرضى عليكم ويرجع . فيخرجون لاستقباله ، ويذهب الراهبُ ويأتي به من موضعه ، ويدخلُ به المدينة بشهرة عظيمةٍ واستقبالٍ عامٍ ، إلى أن يدخله إلى مكانه وعند ذلك تطمئن قلوبهم ويفرحون بعود معبودهم إليهم ورضاه عليهم . فنعوذُ بالله تعالى من هذا الفعل السخيف الذي لا يرضى به من في عقله ذرّة من الصّحة . اللهم ثبتنا على الإيمان ، واجعلنا من أهل التوحيد والايقان بلطفك وعنايتك بأرحم الراحمين .

وأما أبو بكر فإنه صاحبنا وصدقنا ، وتلميذنا ورفيقنا . قرأ عليّ في أوائل أمره . ولازمني في صدر عمره . وصارت له معرفة كاملة بالعريّة ، والفتون الأدبيّة . وله شعرٌ حسنٌ ، فمن ذلك (٢٨ آ) قوله :

يا مَنْزِلًا بفراديسِ الشّامِ سقى
رُبًا مغانيك هَطالَ يروّيا

فلي بموطنك السامي أخو ثقةٍ فدته روجي مع الدنيا وما فيها
وأنشدني قصيدةً لنفسه يذكر فيها منازل الحج لأجل صديق له حج .
ولولا خوف الاطالة لذكرتها ، لأنها قصيدة حسنة في بابها ، فائقة عند
أربابها .

وأما أخوه سيدي حسن فإنه في هذا التاريخ وهو سنة تسع بعد
الألف مقيم بمصر المحروسة لضيق صدر له في دمشق الشام ، سقاها صوب
الغمام . وله فهم فائق ، وشعر في بابه رائق . كتب الي مكاتيب تدل على
لطف طبعه واستقامة فكره .

ولنرجع الى ذكر والدهم سيدي أحمد صاحب الترجمة فنقول : كان
صاحب كرامات وأحوال ومكاشفات صدرت منه قرب الانتقال . وكان
موسوماً بعلم الكيمياء ، وصرف عليها مالاً كثيراً ، واستمر ملازماً على
العبادة ، عاكفاً على السبحة والسجادة . إلى أن توفاه مولاه وانتقل الى
رضاه . وكان له شعر حسن فمن ذلك قصيدة مطلعها :

بأبي الشوس الفاتكات نواعسا الجالبات الى القلوب وساوسا
لا يدتجى لأسيرهن إفاقة^ر كن من خلاصك إن أسرنك آيسا

وهي قصيدة فريدة مشهورة مذكورة .

وله أبيات حسنة وهي قوله :

هذي المنازل قبلنا كم قد تداولها أناس
كم مدعٍ ووضعاً وكم من مدعٍ وضع الأساس
فرسوا وغيرهم أجتني من بعدهم ثمر الفراس
دولٌ تمر كأنها أضغاث حلمٍ في نعباس

م (٨)

وله كراماتٌ وخوارقُ عادات ، تدلّ على آتِه من أهل الولاية ، وأتِ وصل من الكمال الى النهاية .

والحسنُ الجوهريُّ المشهور في دمشق جدّ صاحب هذه الترجمة لأمتِه . وهو الذي صنع القماري الثلاث العظيمة التي فوق محراب الجامع الأموي بالمقصورة .

ولما دخل المنصور الغازي السلطان سليم الى بلاد الشام استقبله الجوهري المذكور . وكانت له عنده الرفعةُ التامةُ .

وللحسن المذكور بيوتٌ بدمشق ، وعماراتٌ لطيفة ، ومسجدٌ عليه أوقافٌ دارّةُ .

وأخبرني مَنْ أثقُ به من أقاربهم أنّ العارف مولانا عبد الرحمن الجامي ، قدّس الله سرّه السامي ، ورد الى دمشق حاجاً فأنزله الحسنُ الجوهريُّ المذكورُ في بيته وأكرمه الى الغاية .

وحاصلُ الأمر أنّ بيت الجوهريّ بدمشق ، بيتٌ كبيرٌ معروفٌ بالمعروف ، وموصوفٌ بإكرام الضيوف .

وولد صاحبُ الترجمة ، على (٢٨ ب) ما أخبرني ولده سيدي أبوبكر المذكور ، في أواسطُ جمادى الآخرة من سنة ست عشرة وتسع مئة ، وتوفي في مستهلّ شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وتسع مئة ودُفن بدمشق بقبرة الباب الصغير ، وكانت له جنازة عظيمة جداً . رحمه الله تعالى .

٢٣

الشيخ أحمد البهنسي

هو صاحبنا ورفيقنا، وتلميذنا وصديقنا. وهو أحمد بن يحيى بن محمد ابن محمد البهنسي الحنفي. شاب نشأ في طاعة مولاه، ولم يُعرف منه ما يخالف طريق الحق بلا استثناء، بل نبغ في الدوحة البهنسية فريداً، واجتهد في تحصيل العلوم زماناً طويلاً مديداً. اختارني جدته شيخ الإسلام نجم الدين محمد البهنسي لإقرائه وإقراء أخيه | المرحوم |^(١) سيدي محمد. فأما محمد فإنه مات شاباً وما فارق سنّ الشباب، واحترقت في لوعته القلوب والألباب. واستمرّ الشيخ أحمد هذا يطلب العلوم وحده، ويسعى على تحصيل الكمال جهده. بحيث أنه قرأ | علي |^(١) « المقدمة الآجرومية » مرتين بتحقيق وتدقيق وتحرير وتقرير. ثم أقرأته بعدها « القواعد الكبرى » للعلامة جمال الدين بن هشام، فانتفع بها انتفاعاً كثيراً، ورأى منها خيراً غزيراً، وأعادها مرتين فصار لي ولأبيه قرّة عين. ثم أقرأته « شرح البهاء ابن عقيل الحنبلي » على ألفية ابن مالك « فقرأه من أوّله الى آخره قراءةً متقنة المعاني، محرّرة المباني، بحيث لم يغادر منه لفظة واحدة، وأتعب في مطالعته عيناً ساهدة. ثم أقرأته بعد ذلك « شرح الحسام الكافي للمقدمة المنطقية المسماة بإيساغوجي » فقرأه أيضاً مرتين بكمال التحقيق، وغاية التدقيق، ثم أقرأته من « شرح المولى عبد الرحمن الجامي » قدس الله سرّه السامي، حصةً صالحة دلّت على أنه أهلٌ لمعرفة جميع الكتاب من غير

(١) سائطة من هـ

ارتياب . ثم إنه رام الترقى الى مدارج الكمال ، وسام التأهل لمدارك التعظيم والإجلال ، فابتدأ في قراءة « شرح التلخيص في البلاغة » للمولى العلامة سعد الدين التفتازاني ، وقطع عن نفسه عند الاشتغال به العلائق ، فانجالت له عرائس الحقائق ، وابتسمت في وجهه ثغور الدقائق ، فأحاط بقراءة الكتاب المذكور علماً . وأدركه حفظاً وفهماً . بحيث أنه كان يسرد عليّ أنواع الاستعارة صنفاً صنفاً ، ويقرأ ألفاظها حرفاً حرفاً . وعَنَّ له عند فراغه السفر مع والده وأخيه الى جانب دار السلطنة قسطنطينية المعظمة | فحصلوا على المرام^(١) ، وحصلوا ما أرادوا من العلوفات السلطانية على وجه التام ، ورجعوا إلى دمشق سالمين غانمين بعون رب العالمين . وهو الآن مدرسٌ بالعادلية (٢٩ آ) الصفري وخطيبٌ بجامع السلطنة السلطانية^(٢) بدمشق المحيية . وله الحشمة الزائدة ، والحرمة المتزايدة ، بحيث أنه معدودٌ من الأعيان الكرام ، بدمشق الشام . والحمد لله على ذلك ، سلك الله بنا وبه أقوم المسالك . وهدانا الى طريق الخيرات ، وسهل لنا سبيل المبررات . إنّه سبحانه وتعالى سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات . آمين .

(١) ما بين الخطين ساقط من هـ

(٢) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٥

٢٤

الشيخ^(١) أحمد الشهير بابن عبد الهادي

هو أحمد بن محمد الصفوري أصلاً ، العربيّ الدمشقيّ مولد أ. قدم أبوه الشيخ محمد من صفّوريّة ، وهي قرية من قرى الأردن ، وهي الآن تابعة لصنجد صفد . وكانت قديماً من الحصون الكفريّة التي افتتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب الكرديّ الأيوبيّ رحمه الله تعالى . ولها قلعة حصينة جدرانها قائمة متينة^(٢) الى الآن . فظن بقرية عقرباً^(٣) من توابع المرحّلين والغوطة | بدمشق^(٤) ، واتخذ بها بساتين ومسكناً ، وتزوج بنت الشيخ عبد القادر بن سوار شيخ الحيا بدمشق ، وانتفع كل منها بصاحبه ، في حوادث الدهر ونوائبه . فعصل له منها أولاد كثيرون ، منهم الشيخ أحمد المذكور صاحب الترجمة . فنشأ هذا طلباً^(٥) للعلوم والمعارف . واستظلّ في دوحه التقوى بظلّ ظليل وارف . فعصّل منها طرفاً صالحاً على مذهب الامام الشافعيّ رضي الله عنه ، بحيث انه صار أهلاً لتفهم المنهاج الفقهي للطلبة . ولازم الفقير مدّة قليلة . وأوقاتاً ليست بطويلة . فقرأ عليّ من « شرح التلخيص المختصر » للعلامة السعد التفتازاني قطعةً سالحة ، وحصّة ناجحة . وهو الآن في نية العود لإتمام قراءة الكتاب

(١) ه ، ب « الأخ الأجد الشيخ احمد ... »

(٢) م « مبنية »

(٣) من قرى غوطة دمشق . انظر غوطة دمشق لكردي عليّ .

(٤) ساقطة من ه

(٥) ه ، ب « طالباً »

المذكور ، شرح الله منّا ومنه الصدور ، إنّه لطيف غفور .
وبالجملة فهو من بيت عبد الهادي ، افتخار الحاضر والبادي ، وعروقتهم
ثابتة المغارس في قرية صفورية المذكورة . ولهم بها زاوية مشهورة يقصدها
الوافدون للمطالعة العلمية ، والفتاوى الدينية .

والفقير مؤلف هذا الكتاب مولده في القرية المذكورة ، ووالدتي
منها ، وإن كان والدي من قرية بُورين من قرى نابلس . ولما بلغت سنّ
التمييز أخذني والدي إلى زاويتهم بالقرية المذكورة ، فجلستُ لقراءة القرآن
الكريم عند الشيخ نبهان قدس (٢٨ ب) الله سره ، ابن عمّ الشيخ أحمد
صاحب هذه الترجمة . فقرأتُ عنده القرآن بتمامه ، من ابتدائه إلى ختامه .
وكان شيخهم الكبير . الذي يأخذون عنه الهداية ويكتسبون التنوير ، الشيخ
جلال الدين الصفوري الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . ونشأ له ولد عالم عامل ،
صالح كامل ، يُقال له الشيخ تاج الدين رحمه الله تعالى فقدم دمشق وطلب
ودأب ، وقرأ في الفقه والأدب . وحفظ القرآن بطرق السبعة ، وجمع بحيث
حمد العارفون جمعه . ومات بدمشق رحمه الله تعالى .

وهم بيت كبير ، وبالصلاح والعلم شهير . ولهم بالشام أقارب وأهالي .
وبقرية صفورية الأصل ، وغالب الأهل من السادات والموالي .

وأما انتسابهم إلى حضرة الفاروق فهي نسبة صحيحة ، أدلتها واضحة
صريحة ، بحيث تشهد بها أفعالهم الطاهرة ، وأحوالهم الظاهرة . مامنهم إلا
من اشتغل وحصل ، وفرّغ وأصل ، وحفظ وتلا ، وترقى وعلا . فأدام
الله تعالى لهم البركات ، وأجزل لهم المبررات آمين .

وقد توفي الشيخ أحمد ابن عبد الهادي هذا في أواخر ذي القعدة من
سنة تسع بعد الألف ، ودُفن بتربه القصارين في جانب قبر عاتكة رحمه
الله تعالى .

٢٥

الشيخ أحمد بن رجب الشهير بمحيطي
الرودسي^(١) ثم الدمشقي

هو الشيخ الذي استنظر سحاب المعارف ، واستنزل من دوح الفضائل بالظلل الوارف . ولد بجزيرة رودس الجزيرة الشهيرة التي افتتحها السلطان المرحوم السلطان سليمان ، ونشأ طالباً للقرآن العظيم ، ومجتهداً على^(٢) تحصيل العلم ، ومتفقهاً على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه . فارتحل الى دار السلطنة بقسطنطينية ، وقرأ على علماءها على قاعدتهم متنقلاً من مدرّس الى أعلا منه ، الى أن صار من ملازمي شيخ الإسلام محمد أفندي ابن قاضي العساكر بستان أفندي ، فجعله قاضياً بالعسكر المرادي حين تجهيز العساكر لفتح بلاد الشرق على يد سردار الأعظم مصطفى باشا . فحظي عند سردار المذكور ، حتى صيرته معلماً لأولاده . وانتقلت به الأحوال من حال الى حال إلى أن سافر الى مكة المكرمة فحج الى بيت الله الحرام ، وتاب عن الخطايا والآثام ، وتوجه بصدق إلى باب الملك العلام . ولما رجع من مكة إلى دمشق الشام ، أحب الإقامة بها وصتم على ذلك . لكن ، لم يكن (٢٩٩ آ) له في الشام ما يكفيه ، فلم يزل يتوجه إلى مولاه وإلى أوليائه الأحياء والأموات حتى سهل له طريق الإقامة ، وحباه من فضله بالكرامة . فصارت له علوفة من زوائد السلطان سليمان

(١) ب ٥ « الرومي »

(٢) ه « في »

والسلطان سليم ، ومن جزية أهل الذمة أيضا . فعند ذلك تروج ، ولم يزل يتقلب في أطوار الإيجاد ، حتى صار بالخلوة الحليّة ، في نفس جامع بني أمية ، التي كانت في يد الشيخ بدر الدين الغزّي . فعند ذلك ألقى عصا الإقامة ، ورفع الله تعالى وأقامه . وصار معتقدا الأنام ، من العرب والأروام ، وغيرهم من طوائف الأعجام . وهناك صرت له مصاحباً . وغدوت له خدناً وصاحباً . يزورني وأزوره ، ويحبّني وأحبّه .

وأما فضيلته العلميّة فإنها كانت في الرتبة العليّة . وكان يحسن فهم العبارات الدقيقة ، ويعرف الفرق^(١) بين المجاز والحقيقة . وكان شاعراً مطبوعاً في اللغة التركية . ولذلك تلقب في شعره بمحيطي ، لأنّ هذه عادة الأروام ، يذكر كل أحد نفسه في آخر شعره بما يدلّ على مدح ، نحو باقي وأنوري وسعدي ومحيطي . وكانت له معرفة تامة باللغة الفارسيّة حتى إنه ترجم الكتاب المسمّى « بالثنوي » للشيخ جلال الدين البلخي الرومي . نقله من الفارسيّة الى التركية نظماً ملتزماً ذلك بيتاً بيتاً ، وشاع له بذلك ذكره بين الروم والعجم .

وحاصل الأمر أنّه قال من الحظوة عند الأكابر ما لم ينله غيره من أبناء نوعه . ودرس بالشام بالمدرسة الجوهريّة^(٢) . تلقّاها عن الشيخ زين الدين ابن سلطان الحنفي واستمرت بيده الى أن توفاه الله تعالى .

وأما أخلاقه فإنها كانت أرقّ من النسيم ، وقد صافح الزهر ، وألطف من نغمت الوتر في أوقات السحر . وكان أكرم من الفهم ، وأحلم من أحنف بلا كلام . يتصدق على الفقراء ويستنجح لهم الأمراء . وكان رفيق القلب غزير الدمعة ، متواضعا على عظيم الرفعة . وأشعاره بالتركية كثيرة ، معروفة شهيرة . فمن ذلك مطلع سمعته :

(١) « ويفرق »

(٢) انظر النسيبي ١ : ٤٩٨

كاه نارز نفه كه كيسويم ايلزار تباط كور مدم كو كلم كي بن مير ايشان اختلاط
وله بالفارسية أيضاً بعض أفراد من ذلك قوله محرّضاً على شرب
قهوة البن :

قهوه خور قهوه دل سخت ترانزم كند قهوه جمعيت افسرده دلان گرم كند

ولولا عدم المناسبة لكتب العربية ، لذكرت من أشعاره التركية شيئاً
كثيراً ، وكان قد سار مع الأمير محمد بن منجك إلى بستانه الذي في الشرف
فرجع من عنده راكباً (٣٠ ب) على فرس ، ورأيتُه في رجوعه ذلك تحت
قلعة دمشق ، ومارأيتُه على عادته فسلم عليّ سلاماً فيه إشارة إلى الوداع .
والتفت إليّ بعد مضيّ التفاتاً يؤذن بيّعد الاجتماع . فرجعتُ إلى بيته
عائداً ، وحاله رائداً . فقال لي ، وقد عانقتني : أنت أصدق من رافقتني .
وفاضت منه الدموع . | وأتبعتها من جفوني بالغيث الهومع |^(١) وطلعتُ
من عنده حزين الفؤاد . عديم الرقاد . فنادى عليه في ذلك المرض منادي
الحين . وصاح به غرابُ البين . فودّع الإخوان ، واستسلم للدهر الخوان
﴿ كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلال والإكرام .
فبأي آلاءِ ربكما تكذبان ﴾^(٢) .

(١) ما بين الخطين سافط من هـ

(٢) سورة الرحمن ، ٥٥ ، الآية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

٢٦

الشيخ أحمد الخالدي الصفدي

رجلٌ وُلد في مدينة صفد ، فُشِرَتْ هاتيك البلد . وقرأ القرآن وبعض المقدمات العلمية . وكان له أخٌ أكبر منه يُقال له شمس الدين الخالدي . وكان لها والدٌ لا يخلو من شرة في الدخول الى بيت القاضي . ولما وصل أحمد وأخوه الى مرتبة الرحلة سافرا الى مصر للطلب ، وقرأ أحمد هذا على مذهب الإمام الأعظم ابي حنيفة النعمان ، عليه من الله الرحمة والرضوان . وقرأ أخوه على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه . وبرع كلٌ منهما في مذهبه . وقرأ شهاب الدين هذا العربية والعروض ، وصنف فيه كتاباً نفيساً .

وصدر لها قصة عجيبة وهي أن رجلاً في صفد يُقال القاضي شهاب الدين له ولدٌ جميل الصورة خنث الأعطاف ، نحيل الحصر ثقيل الأرداف . فعلق به شمس الدين وهو الكبير . وربما شاركه في ذلك شهاب الدين أحمد وهو الصغير . وذلك لكون الولد كان يتردد الى شمس الدين المذكور للقراءة عليه ، وتصحيح تجويد القرآن بين يديه . وكثرة التردد ، موجبة لعلاقة التردد . فلما طال زمان التعلق . شرع الشيخ شمس الدين في الخضوع والتلثق . فلم يستفد من ذلك مطلوباً ، ودام دمه على خديه مسكوباً ، فطلب وألح . والمطلوب مارق ولا سمح . فيقال إنّه قال ما طلب كثرها وساعده على ذلك أخوه وبعض الطلبة ، ونال بذلك الشيخ من الصبي ما طلبه . فاشتهر ذلك في مدينة صفد ، وامتألت بذلك الحبر البلد . فلزم أن أباه ثار ، كمن يكون له ثار . وجاء الى مدينة دمشق مستعدياً على

الحالدين . ونسب اليها مانسبه المتقدمون الى الحالدين . حيث قال فيها
من قال وأجاد في المقال :

وَوَدَّ الْعِرَاقُ مَغِيرَةَ الْأَعْرَابِ فَاحْفَظْ ثِيَابَكَ يَا أَبَا الْخَطَّابِ
لَا يَنْهَبَانِ أَخَا الثَّرَاءِ وَإِنَّمَا يَتَنَاهَبَانِ نَتَائِجَ^(١) الْأَلْبَابِ

فاشكى بالقصة ، ومعه ولده صاحب القصة . فأرسل اليها حاكم البلدة
جاويشاً فحضراً إلى دمشق ووقعا على علمائها وقع الحرير ، وبكى كل منها
بكاء اليتيم . وكان الفقير ممن ساعدهما ، وشدت بالتعديل ساعدهما . وأنا العبد
الفقير صاحب التأليف ، معتمداً في ذلك على لطف الملك اللطيف . وثبت
لها البراءة بحسب الشرع الشريف . وإن كانت التهمة قد أخذت موضعها
منها من غير احتياج الى تعريف . ولعبري لقد كان المعشوق غصناً رويماً ،
وبدراً كاملاً بهياً . تتناثر القلوب من أطراف غصن قدته ، كما تتناثر
أوراق الحريف باستيلاء جيش الشتاء وصدمة جنده . ورجع الغزال الى
صفده ، والغريب الى بلده ، وثبت الجماع بإجماع ، وشاع به السماع . لشواهد
الاستماع . والله هو^(٢) المعين ، وبه نستعين .

قلت : وقد عرض أحمد صاحب الترجمة علي كتابه الذي صنفه في
العروض . وكانت الرضاة لجواد فيه تروض ، فكتبت عليه في سنة تسع
مئة وأربع وتسعين ، في دمشق عند قدومه مع اخيه في قصة الغلام ، الذي
لم يظفر منه بمرام .

أَرَوْضٌ نَضِيرٌ دَبَّجَتْهُ الْأَزَاهِرُ وَجَادَ بِهِ غَيْثٌ مِنَ الْمَزْنِ مَاطِرٌ
وصافحه كف النسيم بسحرة ففاح بها نثر من الطيب عاطر

(١) م « تناكح »

(٢) سافطة من هـ

أم الزُّهْرُ في أفقِ السَّاءِ كأنَّها
وإلا مدامٌ من مَعانٍ ولفظها
دهشتُ فما أدري بماذا أُقيدُها
تملكتِ الأفكارَ مني فحسنتُها
أتتني وجنحُ الليلِ مدٌّ رواقه
فصيرتُها مني نديماً محادثاً
وقلتُ لها مَنْ أَنْتِ يارَبَّةَ البَهَا
فقلت: وغارِ الدرُّ وَأَصْفَرُ لونه
أنا ابنةُ أفكارِ الشَّهابي أَحْمَدِ
فقلتُ أَجَلُ هذا البليغُ الذي له
من الخالدين الذين فخرهم
هو الفاضلُ المعروفُ في الناسِ مَنْ له
حلفتُ بوصفِ الفضلِ من كلِّ فاضلٍ
وبالفهمِ قد رقتُ حواشيه فانبرتُ
وبالشارِداتِ المُشكِلاتِ تصيدُها
لأنتِ شهابُ الدينِ من خيرِ عُصبةٍ
وَضَعْتَ كتاباً لانظيرَ لوضعيه
ثغورٌ بدورِ بالصِّفاءِ زواهرُ
كؤوسٌ لأربابِ العقولِ تُخامرُ
وليس لها في المبدعاتِ نظائرُ
لقابي بأنواعِ الصِّبابةِ آمِرُ
فلاحٌ به ضوءٌ من الصبحِ سافرُ
وزلَّتْهَا عندي حبيباً يُسامرُ
حَنانِيكَ جودي فالكَريمُ مُجابرُ
كذلك ما زالت تغارِ الضرائرُ
أبي الفضلِ مَنْ أمتِ حماءِ الجواهرُ
جواهرُ لفظٍ دونهنَّ الجواهرُ
يقصُرُ عنه في الوري من يُفاخرُ
كالاتِ فضلِ دونها الغيرُ قاصرُ
تضيءُ له في المشكلاتِ البصائرُ
خفايا المَعاني منه وهي ظواهرُ
فهمٌ لأربابِ العقولِ بواهرُ
يَعزُّ لهم في العالمين المُنَاطِرُ
بأسطره بجرِّ الفضائلِ وافرُ

وقد تركت في السالفين أوائل خفايا علومٍ أظهرتها^(١) الأواخرُ
 تأملتُ فيه بانتقادٍ وخبرةٍ ومثلي لمقدار الجواهر خابِرُ
 فصادفته رَوْضاً من الفضل ناضراً تبسّمُ للمتحقيق منه أزاهرُ
 فدمٌ هكذا ترقى على فلك العلي وجودك مة صودٍ وفضاك باهرُ
 مدى الدهر ما أملى التشوق صادقُ فأظهر وجداً كتمته الضائرُ
 وقد قلتُ من شوقي إلى الحي منشداً أربعٌ سليبي لاجفتك المواطرُ
 قلتُ : وقد كتب إلي قصائد ، في ضمنها فرائد ، في طيتها فرائد ، في
 غضوننا عوائد ، فمن ذلك قصيدة مطلعها :

من لي بهيفاء لا أستطيع سلوانا عنها ومن دمع عيني عين سه وانا^(٢)
 أجل ومن حبها قد همت ذاقاقٍ فسل حنيباً^(٣) وسل بدرأ^(٤) وسل وانا^(٥)
 وقد حوت رقة منها شدت فلم أقدر على النبس لولا لطفها جانا
 مُدُّ أقبات ناهزني في مداعبةٍ فصرت منها عليل القلب حيرانا
 ومنها :

زارت ورازت وأزرت أذبت فعدت في النظم فائقة قسا وسحبانا

- (١) « أبرزتها »
 (٢) سلوان محلة في ريف بيت المقدس تحتها عين عذبة (أحسن التقاسيم للمقدسي)
 وقال ياقوت إنها محلة في وادي جهنم ظاهر المقدس (معجم البلدان)
 (٣) يعني جبال حنين قرب مكة (انظر معجم البلدان)
 (٤) يعني سهل بدر بين مكة والمدينة (انظر معجم البلدان)
 (٥) ذكر ياقوت أن (وان) قلعة بين خلاط ولواحي تفلين . وما ندري إذا
 كانت هي التي عنها الشاعر .

فقتُ اذ ذاك إجلالاً لما عظمتُ
وقلتُ: مَنْ أَنْتِ يَا ذَاتَ الْجَمَالِ لَقَدْ
كَمَلْتِ إِذْ قُفْتِ فِي حَسَنِ وَفِي غَيْدِ
إِذَا الَّذِي حَبَّرَ الطَّلَابَ رَوْنَقُهُ
ومنها في الدعاء :

حياه ربِّي وأحياه وبوَاهُ
مارتحتُ نَسَمَاتِ الشُّوقِ غُصْنِ تَقَا
وما على الزَّهْرِ جَرَّ الذَّيْلَ رِيحُ صَبَا
جناتِ عَدْنٍ حَوَتْ حُوراً وولداً
فاخجلتُ قَدْ بَانَ عِنْدَمَا بَانَ
فحركتُ مِنْ قُدُودِ الرَّوْضِ أَغْصَانَا
هذا وهذي أتت تدعو اعزَّتكم
من أحمد الخالدي مولى لمولانا
وأرسل إلينا قصيدةً أُخرى من
صفد مطلعها :

هل النجمُ في أفقِ البراعةِ لامِعُ
أم ابتستُ تلك الغزاةُ في الضحى
إلى أن يقول في آخرها :

فَسَنَّ عَلَى عَبْدِ الْوَلَاءِ بِنظرةِ
على أن باعي في القريض مُقَصَّرُ
ورددتُ حَسُوداً أَطْمَعْتُهُ الْمَطَامِعُ
وراحتي بين الرواحل ظالمُ
وعمدك هذا الخالدي مُقَبَّلُ
وهستقبلُ الدنيا لماضٍ مضارعُ
فَدُمُ فِي هِنَاءٍ وَاغْتِبَاطٍ وَعِزَّةِ

الى أن يقوم الخلق للحق ربنا وها أنا المولى بذلك ضارعٌ
تحلُّ اطلاب العلوم غوامضاً فأنت بجود الفهم للعلم جامعٌ

١١ قوله: فأنت بجود الفهم للعلم جامع ، هذامضراعٌ يتضمن تاريخ قدوم
المكتوب في سنة ست عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية .
وهذا صورة المكتوب الوارد منه في التاريخ المذكور :
المولى الأكرم ، والسيميدع الأفخم ، ذو الفصاحة والبراعة . حاوي
كنوز المعارف ، وجامع مطالب العوارف ، كنز الفضائل . وذخر أرباب
الفواضل . كهف الطلاب ، ومرجع أرباب الالباب بيت :

وإن طراز أحيك من نسج تسعة وعشرين حرفاً عن معاليك قاصرٌ
ياباري الصافات ، ومسكها في جو السماء ، وبامن وقتق لاقتناص شوارد
الحكم من مفاوز النعماء . كما أنرت بدُرر حقائق العلوم الدينية ، مشكورة
سريوته . وصورت من غرر دقائق الفهوم العرفانية ، مرآة بصيرته ، فاجعل
زمان الجمهور منوطاً بحسن تدييره وكفايته ، وصير حوزة المعالي محوطةً بين
حمائه وكفايته ، ويسر له سبيل الخيرات . واحرسه بملائكة الأرضين والسموات .

بقيت بقاء لا يحدُّ أوانه ولازات في اعلى المراتب واقيا

هذا وإن تموجت بحار الكرم ، وذخرت مياه الجود والنعم ، بالنفضل
بالسؤال عن حال محبة الداعي الحقيق الاجبي ، فهو ملازب على المحبة القديمة .
وملب على المودة المستديمة . فما الشوق الحاصل عنده اليكم بمحدود ، ولا
التوق الجاذب الى رحابكم بموصوف ولا معدود ، فأفكاره عبايد ،
وتشوقه مع تشوقه اليكم في كل يوم يزيد . ولقد تشرّفنا بمكتوبكم الشريف ،
الحاوي لكل معنى (٣٢ ب) لطيف . وقد أرسلنا الى حضرتكم هذا

(١) من هنا ساقط في ه ، ب حتى نهاية المكتوب

المكتوب ، فيعودُ ويرجعُ بغير المطلوب . وماذا كإلا أن الرسول يقول :
قصدتُ المولى فما ظفرتُ من لقيانه بالأمول . وقد التجأ الى جنابكم حاملاًها ،
واستجاز بحضرتكم ناقلها من أن يحدث له ضيرٌ ، وحاشاه أن يجلب به سوى
الخير ، ويبيده صورة فتوى . فادفعوا عنه بالجواب البلوى ، فإن جرى مدا
قلكم على صفحات القرطاس ، بما فيه النفع لجميع الناس ، فهو حريٌّ بالقبول .
عند أهل المعقول والمنقول . وفيضُ إحسانكم لا يزول ، ولا يعتري بدر
فضلكم أفرول . والزمانُ قد عضنا بناه ، وكلُّ منّا قد اعتراه ما حل بأصحابه .
والعارفُ لا يعرف . وهذا المكتوب بأناملكم يتشرف . والسلام على
الدوام . (١)

وكتب اليّ قصيدةً ثالثةً في أوائل شهر ربيع الأول سنة ست عشرة
وألف (٢) ، وأرسلها اليّ من صفد الى دمشق المحروسة مطلعها :

لقد جاوزَ المقدارَ ما كان في الوهمِ وزادَ فهذا غايةَ العزمِ والحزمِ
أبجتَ حريمَ المكرماتِ ومن أتى لبابك أضحى مجدُه وافرَ القسمِ
وحققتَ آمالَ الظنونِ براحةٍ توّشحَ منها بالحياها مرُّ الوسمِ
حميتَ ثغورَ القاصدينِ من الأذى وحصنتَها بالمكرماتِ من العدمِ
فمالك نهبٌ^(٣) في البشاشة والندى
ونختم القصيدة هذا البيت :

فدُمُ أبدأ للقاصدين بهمةٍ تصولُ بكفٍ لا تروُّ عن اللثمِ

(١) الى هنا ساقط في ه ، ب

(٢) ه ، ب « بعد الالف »

(٣) ه « نهر »

وكتب^(١) الي قصيدة رابعة في صفر الخير سنة إحدى وعشرين وألف
صحبة تخيبه للقصيدة الممزية للشيخ الأبوصيري مريداً مني أن أقرظ تخيبه،
وأن أمنحه بالمدح تأنيسه . والقصيدة على وزن الممزية . وهي قوله :
كيف تُحصي علومك العلماءُ أو تضاهي افضلك الفضلاءُ
وقد أوتيت خِلعةَ الفضلِ قُدماً وعلا الوجهَ منك منها سناءُ
كلُّ مَنْ كان نفسه حدّثته بمضاهاته في الخزي باؤا
هل يومُ السِّباقِ للريحِ ظيُّ وتُداني جهواننا النبلاءُ
يا لحنى الله عاذلاً قد وماني بجديدِ اللسانِ وهو بلاءُ
المثلي لومٌ على مدح مَنْ قد شرفتُ بامتداحه الشعراءُ
له أذنٌ عن العذول اذا ما لامي من ضلاله صماءُ
فاقتصرتُ عاذلي عن اللومِ وأعلمُ أن ذا اللومِ يا أخي إغراءُ
أنفَ المجدِّ أن يومٌ سواه ولعلياته أنتمى العظماءُ
هو فذٌّ في عصره وفريدٌ مذ غدت موطئاً له الجوزاءُ
ثم صاد النسرَين دون حبالِ فتردى عدوهُ العواءُ
وإليه قد قيدَ كلُّ جموحٍ وعنتُ لأتباعه العلماءُ
ثم في كونه خلاصةً وقتِ ليس فيه ياذا الكمالِ خفاءُ

(١) من هنا سائط في ه ، ب حتى نهاية القصيدة الممزية .

فاغتبطُ سيدي بما منح الله وكنْ شاكرًا فنعم العطاءُ
لا يفني بامتداحِ ذاتك وصفُ فيعيها الانشادُ والانشاءُ
كيف ينساغُ ذا وذاك وأنتي يتسنى لوصفها استيضاءُ
وقد استجمعتْ مجامعَ فضلٍ عجزتْ عن تحصيلها العقلاءُ
ما أقلتْ ولا أظلتْ حقيقًا مثلَ هاتيك الفبراءُ والحضراءُ
فقام حَلَّتْ حلَّ به السعدُ ولا فوقَ ذا المقام ارتقاءُ
لاتضاهيه حتى تسمحَ كفُّ منه بالجودِ حيث تهمي سماءُ
من يُشَبِّهه في المكارمِ بالبحرِ فذاك الضلالُ والإغواءُ
فهو الجودُ والجوادُ ولكن منه ينشأ عن الأنامِ السخاءُ
وهو لأشك معدنٌ لفخارٍ ولذي سوِّدٍ إليه انتماءُ | (١)

قلتُ : وهو في هذا التاريخ ، وهو سنة إحدى وعشرين بعد الألف ،
مقيمٌ بمدينة صفد يُفتي على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله
عنه ، وينوب في القضاء بها ، ويُعارضه في الفتوى رجل يُقال له زين العابدين
المنداوي منسوبٌ إلى كفر مندل ، وهي قريةٌ من توابع صفد المذكورة .
وهذا زين العابدين من عجائب المخلوقات . وستأتي ترجمته إن شاء
الله تعالى .

(١) إلى هنا ساقط من هـ ، ب

٢٧

الحاج أحمد العجمي

[الصالحى ثم الدمشقى] ^(١)

هو ^(٢) رجل من الأعيان ، والكرماء ذوي الشأن . جمع مالاً غزيراً وعقاراً كثيراً . اشترى بيتاً عظيماً كان للأمير قانصوه الغزّاوي ، واستمر على ذلك إلى أن دَخَلَ إلى الشام أمير الأمراء مراد ^(٣) باشا حاكماً بها . فولاه أمانة البهار . وأمير الأمراء عادةً يخدمه بها من صار أميناً على البهار . فأرسل إليه الحاج أحمد بعضها . فأرسل أمير الأمراء يعاتبه على عدم إتمامها على العادة ، وتوعده في ضمن المعاتبه . فأرسل يقول : إذا رجعتُ من الحج وهو حاكم فليبريقني .

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) يختلف مطلع الترجمة في ب ، ه عما هو عليه في م . وهذا ماورد في ب ، ه : « كان هذا الرجل في مبتدأ أمره قصاباً . وكان والده من أرباب الصنائع . ونشأ له أولاد منهم احمد المذكور هنا . ولما اشتهر أمرهم بالقسابة يحمل لحم العمارة السليمانية والسليمية ، فحملوا ذلك . فنتج حائلهم به . فدخلوا بعد ذلك في التزام مال السلطنة على شروط منها أن يصير احمد المذكور أمير عشرة ، وهو المسمى في هذه الدولة العثمانية باونباشي . فصار في هذه المنزلة مدة مديدة ثم عُزل عنها . وصار يضمن الأموال السلطانية ، مثل مقاطعة الغنم ، ومثل سوق الحرير ، ومثل الاحتساب ، ومثل أمانة البهار بطريق الحجاز ، ومثل امانة مسكة الدراهم والدنانير بقلمة دمشق ، وغير ذلك . واقفى من ذلك مالاً عظيماً ، وعقارا كثيراً اشترى بيتاً عظيماً ... » ثم يتفق النصان

(٣) انظر الباشات والقضاة ص ١٦

فسأل الباشا عن معنى يبريقني ؟ فقال له بعضُ الناس : معناها فلينتقم مني .
فاقتضت الحكمةُ أنه رجع من الحجِّ ومراد باشا حاكم بدمشق .
فعند وصوله أمر برفعه الى قلعة دمشق . فطال مكثه بها الى أن ضاق ذرؤه ، وعيل صبره . فتوافق على من عنده في الحبس فردموا الحبس من داخل بحيث صار فتحه | من الخارج |^(١) متعذراً . ثم نصحه الناسُ فأزال ما خلف الباب من الردم ، ووزن مالاَ (٣٣ ب) كثيراً وأخرجه مراد باشا المذكور ، وتعجب جميعُ الناس من سلامته بعد ما حبسه ولكن للعمر حصن حصين .

ثم لم يزل بعدها ماكثاً في برج الراحة مختاراً لصفاء الببال ، إلى أن جاء إلى الشام حاكماً بها السيدُ الشريف محمد باشا الوزير الإصفهاني الأصل^(٢) من قسطنطينية المحيية . فألزمه بأمانة البهار . فسار الى مكة مع ركب الحاج في سنة تسع بعد الألف فرجع سالماً . ولما رجع رأى أمير الأمراء بالشام محمود باشا ابن الوزير سنان باشا الشهير بابن جفال^(٣) . فأدسى من مال البهار حصّةً وبقيت عليه حصّةٌ . فطلبوها منه ، فقال : أنا ما حصلت سوى ما أخذتم مني . فحبسوه عند رجلٍ من جماعة محمود باشا المذكور . فاتفق من العجائب أن زَوْجَتَهُ سمعتُ بحبسه ، فاعتراها غشايب وصفراء ، فلم تزل على ذلك^(٤) حتى ماتت صبيحة يوم الأحد ثالث شهر ربيع الأول من سنة عشر بعد الألف . فبلغ زوجها وهو في الحبس خبر موتها ، فأرسل الى الباشا رجلاً يطلبُ منه أن يمكثه من السير لحضور جنازة زوجته . فأذن له الباشا في ذلك . وقال الموكّل به لا أمكثك

(١) ما بين الخطين ساقط من ه ، ب

(٢) انظر الباشات والفضاة ص ١٩

(٣) انظر المصدر السابق ص ٢٦

(٤) ه ، ب « على هذا الحال »

من السير الى أن تعطينا حقّ حبسي . فراجعه في الكلام^(١) ، وكأته شدّد على الموكّل به ، لحصره بسبب^(٢) موت زوجته وتأخره عن حضور تجهيزها ، فأغلظ الكلام عليه ، فيقال^(٣) إنّه ضربته وعصر مذاكيره إلى أن مات أيضاً في يوم موت زوجته . فمات في يوم واحد . وغسلوا الحاج أحمد المذكور في جامع جرّاح^(٤) لأنّه مات في خان الباشا^(٥) عند سوق السروج ، وذلك خارج دمشق ، وعادة من يموت خارج [سور]^(٥) المدينة أن لا يدخل إليها . وجاءوا بزوجه من بيته وخرجوا بالجنّازتين معاً . ولما ارتفع الجنّازتان صاح الناس وبكوا لذلك بكاءً شديداً وعجبوا من ذلك الاتفاق العجيب ودُفنا في يوم الأحد المذكور خلف جامع جراح ، وذهب دمه هدراً .

وكان رحمه الله تعالى | كريم النفس |^(٦) ، رفيع الهمة ، صافي المزاج ، غير أنّه كان ضيق العطن ، إذا ضاق صدره يتكلم بكلام لامعني له رحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين .

وقد طلب مني ابن أخيه سيدي أحمد بن منصور أبحاثاً ينقشها على قبر عمه الحاج أحمد المذكور . فقلت ارتجالاً هذه الأبيات مشيراً إلى قصته مع زوجته في موتها :

هذه البقعة التي حلّ فيها منّ قضي راحلاً لربّ كريم
أحمد من غدا شهيداً بظلم واعتداءٍ والله خصم الظلوم

(١) هـ ، ب « في ذلك الكلام »

(٢) هـ « لحصره على موت »

(٣) عند مقابر باب الصغير . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٠٥

(٤) هـ ، ب « خان جماعة الباشا »

(٥) من هـ ، ب

(٦) ساقط من هـ

والمعجمي^(١) شهرة من أيه كان ذا همة وجود جسيم
وهو مع زوجة له وسط قبر دفنا جملة بحكم الحكيم
هو بالقتل وهي بالموت حزناً (آ٢٤) قد ارجحنا من حكم دهر غشوم
وزمان الرحيل في عام عشر بعد الف إلى جوار الرحيم^(٢)

(١) ب « المعجمي »

(٢) يختلف ترتيب الآيات هنا عما هو عليه في ه ، ب

٢٨

الشيخ أحمد شهاب المصري
ابن الشيخ محمد المصري الحنفي

فاضل^(١) | اشهر صيته بين الفضلاء ، ونبيل^٢ كامل^٣ شاع ذكره في
الأقطار بين النبلاء . سلك طريق العلم أولاً على طريق العرب ، ومشى
فيه على قانون الأدب . ومهر في المنثور والمنظوم ، ثم استحسن طريق
الروم ، بالملازمة الصرفية ، التي تتبعها الملازمة اللغوية ، فسلك هاتيك الطريق ،
على قلّة من بها من أبناء نوعه من الرفيق ، إلى أن وصل إلى خدمة
المولى المرحوم سعد الدين معلم السلطان . وحاز الملازمة من جانبه الرفيع
الشان . ولم يزل يعلو وينمو ، ويفوق ويسو ، إلى أن صار قاضياً بالبلدة
التي يُقال لها أسكوب^٤ ، على صيغة الأمر من سكب بسكب . وهي
مدينة في أرض روم ايلى ، وقاضياً على اصطلاح آل عثمان ، جليل المقدر
معدود^٥ من الأعيان . وهو من بيت علم بالديار المصرية مشهور ، وبالفضل
الغزير المذكور . ومن شعره على ما أنشدنيه الشيخ الفاضل ، الأديب الكامل
الشيخ محمد الحناتي المصري بدمشق الشام ، سقاها صوب الغمام :

خالٌ بخدٍّ معذبي متعبد من خوفٍ نارٍ الخدُّ أن يصلأها
قالت له أصداعُ جامعٍ حسنه لنو ليّنك قبلةً ترضاها

وله أيضا :

(١) ساقط من .

لعلِّي محاسنُ ما لها قطُّ مُشْبِهٌ
وبشامات خده كرم الله وجهه

وله أيضاً :

يامن تجلَى لطرفي القاب طُورُ جمالك
بواو صدغك عطفاً لمقسمٍ بمجاليك
فكلُّ فضلٍ ووصفٍ من أجلِ حبِّ وصالك

قلتُ : وذكر لي الشيخ مجد الحناتي المذكور أن له شعراً كثيراً كلكه جيد . ويحفظ من أشعاره الكثير . وأنه يلحظ ذلك في خاطره لينشده لنا في مجلس آخر مبارك إن شاء الله تعالى . وكان هذا الاجتماع والإنشاد في أوائل سنة اثنتين وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية المحمدية المصطفوية على صاحبها ألف سلام وألف تحية .

٢٩

أحمد افندي ابن شاهين^(١)

الولد الحبيب ، والخليفة النجيب ، الذي يزكو غرسه على سحائب الأدب
وبطيب ، ويستباح من قلب جوده الفضل القريب ، من أجري من كل
أغلة منه الماء المعين | من فهمه الذهب الخالص الابريز ، وتميظه فاق كل
تمييز^(٣) | وهو رومي الأصل والنيجار . وإن كان عربي المولد والدار .
| قرأ علي ورغب (٣٤ ب) الي . حتى صار فارس العربية وحامل
لواء البلاغة في المملكة الدمشقية . والعجب أنه عسكري وابن عسكري ،
بل أبوه واسطة عقد العساكر السلطانية ، في البلاد الشامية . فترك ذلك
الطريق . ورغب في خدمة العلم وأهله على التحقيق . ولزمني مدةً مديدة .
ولزمته وطلب العلم عندي في أعوامٍ عديدة .^(٤) | وهو الآن^(٥) من
عجائب من نشأ في هذه الأيام ، ووالده^(٦) جندي مشهور في الأنام . جلب
أولاً عند فتح قبرص من الذين أخذوا منها ، وتزوج بدمشق | وهو في
عسكرها الينكجيرية^(٧) | فولد له هذا الولد . ونشأ حياً للعريّة ، مجبولاً

(١) اسم المترجم له ساقط من ب

(٢) ب « الخليل »

(٣) ما بين الخطين ساقط من ه ، ب

(٤) ما بين الخطين ساقط من ه ، ب في هذا المكان .

(٥) ه « وهذا من عجائب من نشأ » ب « ونشأ في هذه الأيام »

(٦) ه ، ب « فإن والده »

(٧) ما بين الخطين ساقط من ه ، ب

إلها^(١) على كمال المحبة والعصية . فخالط فضلاء دمشق وعاشرهم ، وانتقى من سمّتهم أحسنه ، وقرأ العربية واجتهد فيها . ودأب في تحصيلها . وقرأ الشعر العربي وحفظ منه كثيراً ، وانتقى من أكثره ، وخالط الماهرين فيه ، وتعلم لسان الفرس ومهر فيه الى الغاية ، وصار يقرأ منه الأبيات المليحة في ما بين العارفين بذلك . وأما اللغة التركية فهي لغته الأصلية ، باعتبار أبيه وأمه . ولما^(٢) اشتهر صيته ، وأشكل على كثير في العلم^(٣) تثبيته ، أراد إثبات فضله ، عند أهله . فكتب إليّ هذه القصيدة الفريدة في شعبان من شهر سنة تسع عشرة بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله والسلام التحية . [ونقلتها من خطه المزيّن بضبطه]^(٤) :

قَفِ بِي فلي إِثْرَ اُلْخُدُوجِ حَنِينُ وَمِنَ الصَّبَابَةِ ظَاهِرٌ وَكَمِينُ
قَفِ بِي لِأَذْرِي الدَّمْعَ ثَمَّ فَإِنَّهُ دَيْنٌ عَلَيَّ لَهُم وَعِنْدِي دَيْنُ
ظَعْنُوا وَقَلْبِي حَيْثُ سَارَ فَرِيْقُهُمُ مَتَعَلُّهُ بِالْعَوْدِ وَهُوَ شَطُونُ
رَامَ التَّفَاتَاً لِلْعَالَمِ سَاهِيَاً وَتَلَفَّتُ الْقَلْبِ الطَّعِينِ جَنُونُ
وَسَأَلْتُ عَيْنِي الْبِكَاءَ فِقَاضَتَا أَسْفَاً وَيَفْقَدُ دَمْعَهُ الْمَحْزُونُ
لِلْقَلْبِ عَذْرٌ فِي فِرَاقِ ضَلُوعِهِ وَلَفَقَدِهَا الدَّمْعَ الشُّتُونُ شَتُونُ
أَأُضِنُّ بِالْدمْعِ اخْتِيَارَاً بَعْدَهُمُ إِنِّي عَلَيَّ كَرَمِي إِذَا لَضَنِينُ
أَأَعِيرُ لِحَظِّ الْعَيْنِ بَهْجَةً مَنْظَرِ مِنْ بَعْدِهِمُ إِنِّي إِذَا لِحُثُونُ

(١) ساقط من هـ

(٢) ب ، هـ « لزمي مدة مديدة ، وطلب العلم عندي في أعوام عديدة ، ولما اشتهر صيته » والجملتان الأوليان مرّتا في أول الترجمة .

(٣) ساقط من هـ

(٤) الزيادة من هـ ، ب

كم من ليالٍ ماذمنا عهداً
أهل اللوى أو هكذا^(١) شرع الهوى
ردوا فؤادي أو خذوه بسائري
كلتموني في هواكم خطة
وتركتوني منذ بنتم مفرداً
أو ما كفاكم شافعاً في الصبا
قد كنت أحتسب الولوع معزة
إما تولت راحتي من راحتي
ولرب عيشٍ مرّ لي حلو الجنان^(٢٣٥) بظباء وجرّة والشجون فنون
حيث الشبابُ يرفّ يانعُ غصينه
حيث الربيعُ ضواحكُ أزهاره
حيث الوجوهُ الفرّ قنعها الحيا
يسبّحن في قطع الرياض روانما
ينظمن لي عقد الهوى في بارق
السافرات كأنهن كواكب
فيمن حاليّة الشوا حسانة

مُدّ بينَ إلا أنهنّ شجونُ
تلوى الديونُ ويغلقُ المرهونُ
ياظاعنين وكيف شتمت كونوا
من دونها صبُّ الهوان يهونُ
لا يطبيني في الانام خدينُ
وصباتي والمجدُ والعشرينُ
واليوم سيان الهوى والهونُ
فلاظالما سهلت عليّ حزونُ
وثماره من عاذليه ظنونُ
والماءُ مصقولُ الأديم معينُ
والبشرُ فوق جبينها مقرونُ
إنّ الجنان لهنّ حورٌ عينُ
وكأنهنّ الأوّابُ المكنونُ
والمائسات كأنهنّ فُصونُ
والحسنُ يرفع شأنه التحسينُ

(١) في النسخ « امكذا »

ترهو علي أترابها بي منلما
بأبي الضياء وبدردين محمد
ماذا أقول بمن به وبعلمه
في الغيث شبه من علومك والذي
لك في المحافل جراءة أسديّة
لك في المحافل منطق يشفي الجوى
لك في القلوب محبة ومعة
لك ما تحب وترفضه فكن كما
كل المعارف زينة^(٢) لمحلها
أدب يروقك منظرأ بل إنه^(٣)
وإذا طما بجر العلوم بصدوره
وإذا تداول مبحثنا في مجلس
وإذا امتطى قلم يديه فبالحرى
وإذا جرى طلقاً بمضمار العلا
أنت الذي شغف البراعة يافعا

ترهو علي كل القرى بورين
حسن له سعد السمود قرين
قد ضاعت^(١) الدنيا وجل الدين
ترضاه أن البحر فيك كمين
ولسانك المصب الصقيل سنين
من بعضه التسميل والتبيين
ومودة فزوالها مأمون
طلبت منك لك الإله معين
إلا علاك تصوغها وترين
بجر يشوقك فأكه المشحون
فإذا له الكتب العظام سفين
فمنك ركن^(٤) للعلوم متين
أن تستند له السواد عيون
فموا الجواد وسبقه مضمون
وصبا اليه العلم وهو جنين

(١) م « أضاعت »

(٢) هـ ب « ربة »

(٣) هـ ب « بل مخبراً »

(٤) ساقط من هـ

جسمي بقيدِ الفضل منك مُقَيَّدٌ
ولئن صنعتُ بروضِ فضلك يانعاً
فمُذاتُ نسبتُ إلى عُلاك تيقنتُ
وإليكما هذراء تَخْطُرُ^(١) عِزَّةٌ
سحبتُ على سَخْبَانِ ذَيْلِ فصاحَةٍ
صدحتُ بها وُزْقُ البِيَانِ يزينها
سَقَيْتُهَا مِنْ مَاءِ شَرِيحِ شَبِيهَتِي
وكسوتُهَا رَيْطَ الْأَزَاهِرِ غَبَّ مَا
وملأتُهَا حِكْمًا فَأَصْبَحَ عَصْرُهَا
سَامِرَةٌ فِيهَا فِكْرَتِي فَكَأَنَّمَا
لَا بَدَعَ أَنْ نَطَقْتُ بِفَضْلِكَ أَيُّهَا م
أَوْ حَلَقْتُ نَحْوَ النُّجُومِ تَصِيدُهَا
هِيَ مَعْجَزٌ مِنْ أَحْمَدٍ وَوَرُودُهَا
لَوْ أَنَّ هَارُونَ رَأَى نَفْسَاتِهَا
وَلَوْ أَنَّ بَشَارًا تَكَلَّفَ قَوْلَةً
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ لَوْ تَدْفَقُ طَبْعُهُ

والقلبُ مني في ذراك رهينُ
غرستهُ بِالْإِحْسَانِ مِنْكَ يَمِينُ
نَفْسِي بِأَنَّكَ لِلْجَمِيلِ ضَمِينُ
وَلَهَا إِلَى عَالِي حِمَاكَ رُكُونُ
فَانصَاعِ يَتْرُو تَارَةً وَيَلِينُ
طَوْقٌ مِنَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ فَنُونُ
فَلذَا الْحَسُودُ بِجَسْنِهَا مَفْتُونُ
جَادَتَهُ نَاضِرَةُ الْقَطَارِ هَتُونُ
وَبِهِ أَبْقَرَاطٌ وَأَفْلَاطُونُ
تَسْعَى إِلَيْهَا بَيْنَتَهَا الزَّرْجُونُ
الشَّيْخُ الرَّئِيسُ فَإِنَّهَا الْقَانُونُ
مَدْحًا إِلَيْكَ فَوَالِدِي شَاهِينُ
مِنْ أَصْلِ مَصْدَرِهَا الْجَمِيلِ مَبِينُ
لَقَضَى لَهَا بِالسَّبْقِ حَيْثُ تَكُونُ
مِنْهَا لَعَادٌ وَإِنَّهُ لَغَبِينُ (٣٥ب)
مَاءِ لَفْصٍ بِهِ الْفَضَاءُ الْبَيْنُ

(١) « نخطو » ، ب « نخط »

هي قطرة من بحر فضلك سيدي ولها بتأميل القبول يقين
 هي همة صقلت سعودك متمها^(١) عزماً كما شحذ الحسام قيون
 فلا فخرن وألهجن لسيدي وحقوق مثلي في الكرام ديون
 لازلت صدر الشام دعوة منصف تشجي عداك ومن شناك فدون
 مادامت الأملاك تدعو بالبقا ويؤمها بدعائه جبرين

قلت: قد أنشدني هذه القصيدة الفريدة، فحكم الأدباء قاطبة بأن فكرته مجيدة، وجعلوا بروزها من طبعه المستقيم، وفكره السليم، وذنه القويم، من أعظم البراهين، على قدرة الملك العليم. وذلك لأن منته ماجاوزت العشرين، وطريقته ماتبت في صيد المعاني أباه شاهين، لأن أباه عسكري الطريق، جندي الأسلوب على التحقيق. وقد تروى عنده، من يوم أن^(٢) مهتله مهده، الى أن ثبت بالفعل مجده. فكان كمن جمع بين الضدين، وسلك في طريقين متباينين. غير أن الطبع إذا جُبل لاتغير جبلته، ولا تحوّل طريقته. ولعمري لقد نبغ غصناً رطيباً، ونشأ للفضل نسياً. وألف مدحاً في النظم ونسباً. وأغرب إذ أعرب. وأنشأ وأنشد، وأفاد فأجاد، وبيتن إذ عبتن.

ومدح في التاريخ المذكور حضرة شيخ الاسلام. مفتي جميع^(٣) الأقاليم، العالم العامل، صاحب الفضل الوافر الشامل، حضرة صنع الله أفندي مفتي السلطان. بقصيدة بعيدة المنال. بديعة المثال^(٣). مطلعها:

حي المنازل بالنقا فزرد فالرقتين فعدنا المهور

(١) ه، ب « خنتها »

(٢) ساقط من ه، ب

(٣) ه، ب « المقال »

ومدح في ذلك الوقت أيضاً قاضي قضاة دمشق حضرة نوح أفندي
ابن المرحوم قاضي العساكر أحمد أفندي الأنصاري الشهير بابن روح الله
تعالى بقصيدة نادرة في بابها، مفردة بين أترابها، ومطلعها :

عَتَبْتُ عَلِيَّ فَلَذَّ لِي الْعَتَبُ خَوْدٌ لَدَيَّ عَذَايُهَا عَذْبُ

ومدح المخدم الأجدد، مولانا درويش محمد، ابن مولانا شيخ الاسلام
مفتي الأناضول، صنع الله أفندي المدوح المذكور سابقاً بقصيدة مطلعها :

أَقُولُ أَوْهُ وَتَارَةً آهًا تَغْنِيًا فِي بَدِيمِ ذِكْرَاهَا

قلت : ومدحه لمولانا صنع الله أفندي المذكور كان بدمشق المحروسة
أدام الله منازلها المأنوسة ، حين قدومه إليها من دار السلطنة العلية العثمانية
الأحمدية ، قسطنطينية المحيية . حماها الله تعالى من طوارق البلية . وكان
قدومه إليها ناوياً الحج الى بيت الله الحرام ، وزيارة نبيتنا محمد عليه
الصلاة والسلام . وكان نوح أفندي قد ورد صحبته الى دمشق قاضياً بها ،
وله صهارة مع شيخ الاسلام المفتي (٣٦٤ آ) المذكور ، لأنه تزوج بنته
فأتى معه لتجهيز مهمات الحج بدمشق ، وورد معه ابنه المدوح المذكور ،
وقد اتصل المادح أحمد جلبي المذكور بالمولى المفتي المذكور بدمشق وصار
تلميذاً له وملازماً على قاعدة علماء الروم في دولة بني عثمان ، أدامها الله
تعالى إلى | انقضاء |^(١) الدوران . وكان قدومه الى دمشق في غرة شهر
رمضان يوم الأربعاء من سنة تسع عشرة بعد الألف |^(٢) وأنشدني لنفسه
يوم الخميس حادي عشر صفر الخير سنة ست عشرة وألف :

مُذْ نَبَتَ الْحَطُّ عَلَى خَدِّهِ بُدِّتِ الْحَمْرَةُ بِالْإِصْفَرَارِ

(١) ساقط من هـ

(٢) من هنا ساقط في هـ ، ب

كأنا العارض لما بدا قد صار للحسن جناحاً فطاراً^(١)

وكتب اليّ هذه الرسالة لأمر عرض وقد اقتطف غالبها من زهر الآداب، لا بريح رحب الجناب . وهي^(٢) :
بسم الله الرحمن الرحيم . وهو المعين .

أعزّ الله مولاي وسيدي^(٣) الذي سكن من الجوارح أشرفها .
وسلك من طرق الجفاء المبرح أوعرها وأمرقها . وبالغ في العقوبة
وزاد . واستغرق أوقات الوداد ، بالبعد والعناد . وارتكب مكباً من
الخليقة صعباً ، وقطع جميع الطرق إلا طرق الوفاء^(٤) وثباً . واستعار
أذنًا ليستوعي بها المثالب ، وعيناً ينظر بها المعايب ، وبدأ يبطش بها في
كل صاحب ومُصاحب ، ورجلاً يسعى بها الى الأبعاد دون الأقارب ،
ووجهاً يتصرف في أمرته كتصرف الملك الجائر في رعيته ، ويفعل
بمحببه ، ما لا يفعله الدهر بينيه . لا تظهر الطلاقة في وجهه إلا ريثما يخلطها
بإعراض . ولا ينبسط هنيئته من الزمان الا وهو وشيك انقباض . يبدو
لطفه لمعاً ثم ينقطع ، ويجلو ماؤه جرعاً ثم يمتنع . فلا يدوم له سرور
الهناء بما هو من حمانا يحلّه ، وبما هو من أعراضنا يستحلّه . فياليت
شعري أيّ مصونٍ من مرتك أذعته ، أو مفروضٍ في الخدمة رفضته ، أو
واجبٍ في الزيارة أهملته ؟ وهل كنت إلا كما قيل : ضيفٌ أهداه بلد
شاسع ، وأدّاه أملٌ واسع ، وحدّاه عقلٌ وإن قلّ ، وهداه رأيٌ وإن
ضلّ . ثم ما بعدت صعبة إلا أدنت مهانة ، ولازادت حرمة إلا نقصت

(١) الى هنا ينتهي السقط من ه ، ب

(٢) في ه ، ب « وكتب اليّ هذه الرسالة نثراً ، وفي غضوننا من الابيات ما يفوق

درّاً . وسبب تنميقها العتاب لأمر ، تستطال وتستطاب وهي : «

(٣) ه « مولانا وسيدنا »

(٤) ه « انوداد »

صيانة ، ولا تضاعفت ذمة إلا تراجعت منزلة . ولم تزل الصفة^(١) بنا حتى صار الوايل رذالاً ، والتشوق المفرط مستعازاً . وصار حُسن ذلك الالتفات اذواراً ، وطويل ذلك السلام اختصاراً . والاهتزاز ايماء ، والعبادة اشارة . كما قيل :

وموتُ الفتى خيرٌ له^(٢) من حياته إذا كان ذا حالين يصبو ولا يصبي

وكان المهلب (٣٦ ب) يقول :

عجبت لمن يشتري العبيد بماله ، كيف لا يملك الحر بمعروفه .

وفي الحديث : « البشاشة خيرٌ من القرى »

وفي المثل « اليوم^(٣) العبوس ، خيرٌ من الوجه العبوس »

ومن كلامهم : « الحوادث الممضّة مكسبةٌ لحظوظٍ جزيلة ، منها

ثوابٌ مدّخرٌ ، وتطهيرٌ من ذنب ، وتنبه من غفلة ، وتعريفٌ بقدر

النعمة . وقد شاهدت فيها خامساً وهو صونٌ | ماء^(٤) الوجه عن الذلّ

والهوان . فالتعسُ خيرٌ لها من أن أقول :

إحدى لياليك فيميسي هيمسي لا تنعمي الليلة بالتمريس

* * *

مولاي يامن له في كلّ جارحة لسان شكرٍ يؤدّي بهض ما وجبا

ماهذه الكراهة من فتى خفيف الجسد والروح ، ثقيل الرأس بالعقل

غضيب الجفن بالحياء ، طلق الوجه ، عفّ اللسان ، رحب الصدر ،

باسط الكف بالجود ، طويل الباع بالإحسان ، صافي القلب ، سليم الفطرة ،

مخني الضلوع على الأسي ، مطوي الجوانح بالهوى ، قصير الخطى عن الأذى .

(١) ساقط من هـ

(٢) ساقط من هـ

(٣) ب « اليوم »

(٤) ساقط من هـ ، ب

فما محاسنُ شيءٍ كلهُ حسنٌ

مافيه لوٍّ ولا ليتٌ فَتَنَقَّصَهْ وإِنَّمَا أدركتهُ حرفةُ الأدبِ

على أنني والحمد لله لم أكنُ مُذاذاً مع الحرمانِ عنك ولا مُشرباً ،
ولكنني أبردتُ صدري بنهلةٍ من الفضلِ غصتُ دونَ موردهما الشربُ ،
وذلك لأنني أطلتُ الترددَ إليك ، وعوّلتُ أمري في طليبي عليك ،
وورَدتُ من أنهارِ فضلك كلَّ معينٍ ، وكنتَ لي في طليبي وأملي خيراً
معيناً . والنعمةُ لا تُجحدُ ، والحسنةُ لا تُكفرُ ، والشمسُ لا يمكنُ سترها بحجابٍ
والبدرُ لا يخفى ضوءه | وإن كان |^(١) تحت السحابِ ، والكذبُ شيةُ
المنافقين ، ألا لعنةُ الله على الكاذبين .

وما قلتُ ذلك إلا رائيّاً أن لا طيبَ إلا ما اختلط بثرابك ،
وأن لا سعدَ إلا ما جثم ببابك ، وأن لا ربيعَ إلا في بقعتك ، وأن
لا أنسَ إلا بطلعتك . وأن لا فرحَ إلا بقربك ، وأن لا ترحَ إلا ببعذك ،
وأن لا نشاطَ إلا بحببتك ، وأن لا علمَ إلا ما استفيدَ منك ، وأن لا فضلَ إلا ما
أخذتُك ، وأن لا دليلَ إلا ما جني به معزواً إليك ، وأن لا سندَ إلا ما نقلَ من فيك
و'محالٌ عليك |^(٢) . لعلي بأنك البدرُ الكاملُ ، والفردُ الذي ليس له
'معادل ولا 'مماثل . هذا مع مغالاتي فيك ومنافستي عليك ، ومناظرتي بك ،
وانتمائي بالفضيلة التامة إليك ، وانشادي مستمسكاً بجبل وداذك ، ومتمسكاً
بتراب مهالك .

وإذا نظرتُ إلى أميري زادني ضناً به نظري إلى الأمراءِ
معتقداً أن رضاك ثوابٌ ، وغضبك عقابٌ ، ورغبتك إحسانٌ ، ورهبتك
'خسرانٌ . وإعراضك جحيمٌ ، والتفاتك نعيمٌ ، ومثلك لا مثل يضاھيك . إن

(١) ساقط من هـ

(٢) ساقط من هـ

غضب تجمل ، وإن تاذى (٣٧ آ) ولو بومٍ تحمّل . وإن جاءه فاسق
بنياً تبصر واستفسر ، | وإن ثبت لديه شيءٌ ولو دعاء اغتفر واستهتر^(١) |
فهاث قل لي يامن مكانته في القلب قد حلّها بمفرده ، أيّ جواب لمن
سأل عن حلمك ؟ واستفسر عن ثمرة علمك ؟ | فإنّ الحلم ثم العلم^(٢) .
وهو دالٌّ عليه كدلالة النور على الثمر . وقد وُجد كماله فيك ، وظهرت
ثمرته عليك ، وتذللّت قطوفه دائيةً اليك . وكذا الناس مجمعون على
فضلك ما بين سيّد ومسود . عرف العالمون فضلك بالعلم ، وقال الجهال
بالتقليد .

وأعودُ فأقول بعضُ هذا الجفا يامولاي يكفي ، وجزءٌ من هذا
الإعراض يُجزّي . وفي قليلٍ من صدودك انتقامٌ كثيرٌ ، وفي يسيرٍ من
هجرك إسرافٌ وتبذيرٌ ، وفي أدنى ما بلغني عنك كافٍ ومقنعٌ ، وفي أقلّ
مارأيتك منك للقلب مؤلمٌ و^(٣) موجهٌ . وفي المثل من يسمع بخجلٍ ،
ومن يكثرُ يمل . هذا بذاك ولا عتب على الزمن .
وأظنُّ أنّ الداعي الى مهاجرتي نيةٌ جاء بها فاسقٌ ، ونباً افتراه
كاشح . ومع ذلك لو اكتسبتُ كبيرةً لما استوجبتُ من العقوبة المنهكة
بعض ما عاينته وعانينته ، ولو ارتكبتُ جريمةً لما استحققت من القطيعة
المهلكة أعظمَ بما رأيتُه وقاسيتُه ، ولو اشركتُ والعياذ بالله تعالى لمحت
ذني^(٤) التوبة والاستغفار . ولو كفرتُ معاذ الله لعفّت على كفري
الندامة والاعتذار . ولما احتل أن يُسمّى كبيرةً ، ويُدعى ولو على
المجاز جريرةً .

وهب اني يامولاي لاأواخذك بأعراضك وإعراضك ، ولا أعاتبك

(١) ما بين الخطين ساقط من هـ

(٢) ساقط من هـ

(٣) ساقط من هـ .

(٤) « ذنوبي »

بإسرافك وإخلافك ، ولا أقابلك بأخلاقك وإخلاقك ، ولا أواجهك بانقيادك
وعدم انتقادك ، ولا أعارضك بإعراضك وعدم اعتراضك ، ولا أطالبك
بتأملك وعدم تأملك ، ولا أحاسبك بما حرمتيه من عطفك ، ولا أصادرك
وإن "سؤتي بما تنيه من عطفك .

أفي حكم المروءة أن "تبعده من يقاربك ، وتطرد" (١) من "يُصاحبك ،
وتطرح من يهابك ولا يملك ، وتسبح بقطيعة من يُجلك ولا يُخلِّئك ؟ ومن
أمثالهم أهل الحفاظ أهل الحفاظ ، والحفاظ تحلل الأحقاد . فأين من
سيدي الحفيظة الأمولة لتحلل ما عنده وما استقصاه . وتهدم ما شاده
| الواشي | (٢) وما بناه ؟

والعينُ تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

وقد بلغتني مقالة من بعضها في القلب قروح ، فليت شعري
وهل لبتُ بِنافعة متى كان جرحاً حتى صار قرحاً ؟ ومتى قدح
الزند حتى اضطرم هذا الوقد ؟ ومتى (٣٧ ب) تكاثف القطرُ وهمي ،
حتى اجتمع هذا البحر وطسى ؟ ومتى طنت الحصى حتى بلغ صداها الى
عنان السما ؟

قد أصبحتُ أمة الخيار تدعي عليّ ذنباً كله لم أصنع
وبالجملّة فقد شاركت الليال ، في تقلب الأحوال ، ووافقت الأيام في
اصطناعها اللثام .

مالليالي أقال الله عشرتنا من الليالي وغالتمنا (٣) يدُ الغيرِ
هلاّ ألهنت أن ترد بعقلٍ وتصدر بتمييز ، وما ذلك على الله
بعزيز . ولولا أنك أعنتها ونصرتنا ، وآزرتنا وظاهرنا ، لرُدّت على
أعقابها ناكسة ، ورجعت على أدبارها خائبة ، ولأمنت مكرها ،

(١) هـ « وتنادي » ، ب « وتواد »

(٢) ساقط من هـ

(٣) في النسخ « خانتها »

واجتنبتَ إضرها . ولكنها جمره ليل ، واثرُ ثمادة لاسيل ، وبناءً على
شفاً ، وعله قريبة الشفا . وقد ثبت أن العقوبة للمسيء ، والحرمات
للمجرم ، والحذلان للمعتدي ، والقصاص للمذنب ، والمؤاخذه للجاني . وأنا
أبيض وجه العهد ، واضح حجة الود ، مصاحب التوفيق ، بريء الساحة ،
بجانب البغوات .

ولو انني علمتُ أنه أمرُ بيتت بليل ، لجازيت الصانع كيلاً بكيل ،
واكنه سأرينته ناجذي وأتجلد ، وأري الشامتين أني لرأيب الدهر لا
أتضععُ .

ولعري ما علمتُ أن صريح الرأي في التحول عنك مطلوب ، ولا
تحقتُ أن المجاز في كل تركيب من الألفاظ العرفية متداول مرغوب ،
لأتبعتر أن قول القائل مثلاً « اذهب الأعمى »^(١) أن يكون عبارة عن
طرد المخاطب ضمناً . وقد تقرر أن التكلم يدخل في عموم كلامه لا أن
المخاطب يدخل في ما خوطب به . ولو علمتُ قبل ما عدتُ بعداً .
لستُ أشكو^(٢) من امتناعك عني يا مني النفس حيث عز الأيابُ
سوء حظي أناني منك هذا فعلى الحظ لأعليك العتابُ
وأخر بقول القائل :

إذا لم تكن حاجاتنا في نفوسهم فليس بمن عنك عقد الرثام

* * *

حلفتُ ولم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مطلبُ

إني ما قابلتُ إحسانك بكفر ، ولا أسأتُ أدباً في ماصنعتي في
خدمتك بأن اتبعه بمن . ولك عندي اليد البيضاء التي لأقبضها عن الدعاء

(١) « العمى »

(٢) مناط من »

لك ، والأخرى التي لأسلطها الى الدعاء عليك ، وما أنا أشكو اليك ، جعلني
الله فداك ، مالا تمكن الصراحة به ، ولا الايضاح عنه ، ولا التوصل
بالاستيفاء اليه ، ولا التسلط بالاستحضار عليه ، ولا التجميل بالإغضاء معه ،
ولا البيان بما فيه ، ولا التمثل له . وربما ذكرت البعض منه ، وقلت
لعلني كنت شائماً مراباً ، أو مستطراً جهاماً ، أو رائيماً خلباً ، أو وارداً
حيث لا مراد ، أو مستعيناً حيث لا معين ، أو مستغنياً حيث لا مفيت ، أو
مستجيراً حيث لا مجار ، أو مستنجحاً حيث لا سماح . ولك المثل الأعلى .

لا تعجبوا ضربي (٣٨ آ) له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

* * *

ولو كان رحماً واحداً لا تقيته ولكنه رمح وثان وثالث
فهل كنت كالمقندي بناقضة العزّل ، أو كمنصبب سراً للهة فاذا
هم عزّل ، أو كراض من الغنية بالإياب ، ومن المركب بالتعليق ، أو كراجعة
بجفسي حنين .

هذا وأنا أقول : لن يضر الحوار^(١) وطء^(٢) أمته ، بيد أنه يقال في
ما مضى من المدد الحوال .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

* * *

ومنلي قد تهفو به نشوة الصبا ومنملك قد يعفو ومالك من مثل
وإني لتنهاني نهائي عن التي أشاد بها الواشي ويعقني عقلي
وما أنا بالمهدي إلى السوء والخنا ولا بالمسي القول في الحسن الفعل

(١) الحوار ولد الناقة قبل أن يفصل عنها

(٢) « يوطئة »

فهايت جواباً عنك ترضى به العلى إذا سألتني بعدُ ألسنةُ الحفل
فبين الرضا والسخط ظني واقف وقوف الهوى بين القطيعة والوصل
ولو تبسرت لي مخاطبتك مشافهة لكان لي معك ذوق من الكلام ،
لكن لما عزت المواجهة ، استشفيت^(١) بالمكاتبة والمراسلة قائلاً :

الك الحمدُ أمّا مانحٌ فلا تروى وننظر مالا نشتهي فلك الحمدُ
ولعمرو أبي إن ليبي عليك ليلُ السليم ، ونهاري دونك نهارُ الأليم ،
وفكري قد صدّيء لعدم مطارحتك ، وطرفي قد قذي لندرة مشاهدتك
وقلبي لغزّة رضاك واجبٌ مضطرب . وصدري لقلّة مؤانستك حرجٌ ضيق
وفي لبعد مصاحبتك واجمٌ ساكت ، وصادف حجاي عارض وعين ،
فقلتي الدمع بسلاسل من عسجد ولجين .

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ
لقد صدئت مرآة الكمال ، وقذي طرفٌ طالما سهر الليال . وتزلزل
محلّ سيدي من قلبي ، أطال الله له البقاء ، ومنحه سوابغ النعم وارتقى .
رفقاً بنزلك الذي تحتله يأمنُ يُخربُ بيته يديه
وضاق وسع الفضا ، وسكت مصقَعُ الخطبا ، وُجنّ صاحي القوم ،
وبكت مقلّةٌ يعزّ عليها النوم .

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذلت دمعاً من خلائقه الكبرُ
معلمتي بالوصل والموتُ دونه إذا مت عطشاناً فلا نزل القطرُ
أما تتقي الله في واقف أمامك مستغفر تائب ؟ وأرقّ ما يعرض على
المولى قول القائل :

(١) « استغفيت »

سلي تعلمي إن كنتِ غيرَ عليمةٍ بأن ليس في حبي أكبرك مطمعُ
وأن لي القلبَ الذي ليس خالياً من الوجدِ والجفن الذي ليس يهجمُ
فوالله لأنفك أذكر موضعي لديكِ ولا أنفكُ نحوك أنزعُ
وهذا معنى قول القائل :

وقف الهوى بي حيث أنتِ (٣٨ ب) فليس لي متأخرٌ عنه ولا متقدمُ
جاورتِ^(١) أعدائي فصرتُ أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهمُ
وأهنتني فأهنتُ نفسي صاغراً بامن يهونُ عليكِ ممن يُكرمُ
وبالجملة :

أعيدها نظراتِ منك صادقةً أن تحسب الشحم في من شحمه ورم
وهاك هدية الوقت ، وعفو الساعة ، وفيض البديهة ، ومسارة القلم ،
ومسابقة الدين للفم ، وجهرات الحدة . وثمرات المدّة ، ومهاداة الخاطر
للقاظر ، ومباراة الطبع للسمع ، ومجازبة الجنان للبنان . وها هو جواد
البلاغة عالك الشكيم ، حابس العنان . لم يأخذ طاقه ، ولم يستوف مضماره .
وهذا هو النهض فما بالك بالركض . وقد آلى أنه لا يعرق عرق التنبه مالم
يسمع بتصّها له ، ويرعد بقرع نعاله ، ويوصل بمتطيه غايته لا تدرك ، وغارةً
بالرياح الهوج لا تنتهك . ومع ذلك لو نظمت النثر كالدرر ، وأتيتُ
به رائقاً كنسيم السحر ، وموشياً كألوان الزهر ، لما كنتُ إلا كتهدي
التمر الى هجر . ومستبضع الغرب الى سوق النبع .

أهدي لجأسه الكريم وإيما أهدي له ما حزتُ من نعمائه
كالبحر يطره السحابُ وماله فضلٌ عليه لأنه من مائه

(١) الرواية المشهورة « هاهت »

وآخرُ ما أقول : إن ودي موقوف عليك ، وحبيسُ سيالك ، وتحت
رهنك . فمتى عاودته وجدته سايع المعبّر ، غضّ المنظر ، هنيء المنجر . يندى
بشاشة ، ويقطر حسناً ، ويفوح عنبراً ، ويشمر لطفاً . فإن فعلتَ ذلك فهو
حسن . وإن عدتَ فالعودُ أحمد . وإن كان الأمر كما يُقال لا ولا فالغبين
مشترك ، والله تعالى يتولى السرائر . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ،
وإن راسلتك بما زاد أو نقص ، فهو منك وبسببك . وصلى الله على من
لأنبيّ بعده . وعلى آله الطيبين الطاهرين .

٣٠

خان أحمد الكيلاني

الشريف الحسيني سلطان بلاد كيلان

هذا الشريف من بيت السلطنة أباً عن جدّ ، وإلى هذا الحد . وهو مع كونه من الملوك ، فما قصر في أن سلك في تحصيل العلوم أحسن سلوك . حصل من علم النجوم ما به تفرّد بين الأفاضل فضلاً عن السلاطين ، وقرأ من علم الهيئة ما ألبسه ثوب الهيئة بين الناس أجمعين ، حتى انه كان يدرس مولانا علي قوشي في علم الهيئة ، ويباحث العلماء مباحث تقتضي أنه اكتسب من الكمال الحصة الوافرة وهذا كثير على السلاطين ، بل على الأفاضل الكاملين .

وأما معرفته بعلم الموسيقى وبالعلوم الرياضية فإنه قد اشتهر وشاع ، وانتشر وذاع ، وملأت أصواته الأسماع ، في الوهاد والضياع ، وكان ينظم الشعر الفارسي نظماً أرق من نسيم الشمال ، وأرقّ من الماء الزلال ، ويربطه في (٣٩ آ) أصوات ونغمات ، بحيث أنه يكاد يحيي العظام الرفات ، وأحفظ منه كثيراً ، ولكن لا يناسب تواريخ العرب ، ولولا ذلك لذكرت منه جملة وافية . ولكن الإحماض مطلوب ، والنفس تنبسط بالانتقال من أسلوب الى أسلوب .

فمن ذلك قوله من غزل ربطه بنغم من صناعته وهو :

شام فراق حال من زار مشكست صبح وصال اكثر^(١) بدكار مشكاست
جان دادنم به پاي تو اسان بودولي محروميم زد و لت بينداو مشكاست
وله أيضاً بيت من غزل معناه في غاية الحسن وهو متعلق بالحبيب
الذي بطيب :

شمع صفت بتيغ كش صدره اگر بري سرم من بهو اي تيغ توباز سري برآوردم
وكان طهاسب شاه قد اعتقله في قلعة قهقه^(٢) في ديار العجم ومكث
بها معتقلاً سنين عديدة . وكان ولد طهاسب شاه اسماعيل محبوساً معه ، فقال
له : إن أطلقني الله تعالى من الحبس وولاني أمر الناس فله علي أني
أطلقك وأوليك بلادك أيضاً . فاتفق أن الله تعالى أطلقه وأعطاه سلطنة
العراقين وأذربيجان ، وشيروان ، وشيراز ، وخراسان ، وهمدان ،
وديار الجبال . فأخرجه من قهقه لكن وضعه في قلعة اصطخر وقال : أريد
أن أرسلك الى بلادك كما أريد من التعظيم . فلم تطل مدة اسماعيل في
السلطنة ، ومات اسماعيل وهو في قلعة اصطخر . فاستخرجه الشاه أعمى أخو
اسماعيل المسمى بجداي بنده محمد عند ما تولي السلطنة باتفاق أمراء قزلباش .
وكانت إقامته في زمن سلطنة أبيه وأخيه الشاه اسماعيل في شيراز . فلما
مات أخوه شاه اسماعيل لم يجدوا في بيت السلطنة ذكراً قابلاً للملك
سوى هذا ، فقالوا : هو من بيت السلطنة ليس إلا ، فنحن نوليته ملك أبيه
ولو كان أعمى ، فلما تولى السلطنة أرسل الى خان أحمد واستخرجه من اصطخر
وولاه بلاد كيلان ، كما كان . فلم يزل بها الى أن أخذ سلطان الاسلام
السلطان مراد بن سليم غالب عراق العجم وكل عراق العرب ، وأذربيجان

(١) كذا في النسخ وقد اقترح الدكتور حسين علي محفوظ ان تكون « دلبر »

ليستقيم المعنى . وقد تكرّم بضبط هذه الأبيات الفارسية فله الشكر .

(٢) كذا . واقترح الدكتور محفوظ ان تكون « قهندز » أو « قهباية » ، ولم ترد

قوله في معجم البلدان

وشيروان ، وبلاد الكرج . فلزم أن شاه عباس بن خدائي بنده الضرب المذكور
أرسل عسكرياً وافراً فأخذوا كيلان من يد خان أحمد هذا ، وخاف
منهم فهرب مع جماعة معدودين إلى جانب سلطان الاسلام ، وهو مولانا
الغازي المظفر الأسعد ، السلطان محمد ، بن السلطان مراد بن سليم . وقصد
قسطنطينية فدخل وامتدح السلطان المذكور بقصيدة عظيمة (٣٩ ب)
يحثه فيها على أخذ كيلان من يد شاه عباس ، وأهدى لحضرة سلطان الاسلام
شمعدان مرصعاً قيل إنهم خمنوه بثمانين ألف دينار ذهباً ، ولم يحصل مراده
من العسكر وذهب إلى بغداد بإذن السلطان المذكور ومات في سنة تسع
بعد الألف رحمه الله تعالى آمين .

٣١

الشيخ أحمد المكفناقي^(١)

الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد المكفناقي الدمشقي

كان رجلاً صالحاً محظوظاً من كلام الصوفية وإشاراتهم . وكان رحمه الله تعالى يتسببُ ببيع الكفن^(٢) . وكان فضلاء دمشق مثل الشيخ علاء الدين ابن عماد الدين والشهاب الغزالي يحبونه ويجالسونه ويفرحون بكلامه . ولما مرض مرض الموت دخل عليه الشيخ شهاب الدين وهو يجود بنفسه ففتح عينه وبكى وأنشد :

إذا كان هذا فعله مع محبته فياليت شعري باليدي كيف يصنعُ

ثم انه استعبر ورفع رأسه وأنشد :

نفسُ المحب على الآلام صابرةٌ لعلّ متلفها يوماً يُداويها

ثم انه مات بعد ذلك بيومين .

وكانت وفاته في سنة ثلاث وسبعين وتسع مئة . كذا في « الروض

العاطر » .

(١) مكان هذا الاسم يابض في هـ

(٢) م ، ب « المكفن »

٣٢

الشيخ أحمد الأيدوني^(١)

شيخنا الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن تقي الدين الأيدوني الشافعي رحمه الله تعالى .

كان قد تسبّب أولاً بحدّ الشريط بسوق الذهب^(٢) ، واستمر به مدة ، ثم إنه حفظ القرآن الكريم وقراه بالعشر على الشيخ شهاب الدين الطيبي ، وقرأ الفقه والتفسير على الشيخ بدر الدين الغزالي ، ثم لزم الشيخ محمد الأيبي بصاحبة دمشق وتعلم منه الفارسية ، ودرّس بالجامع وتصدّره ، وأُعطي نصف إمامة المقصورة شريكاً لشيخه الشهاب الطيبي الكبير . وكانت بيده بقعةٌ حديثٍ بالجامع . وكان عالماً عاملاً دينياً خاشعاً لله تعالى كثير البكاء ، وكان الناس يقصدون إمامته لحسن صوته وصحة قراءته . وسمعه يقول عند ما كتب علماء دمشق محضراً بأن غيره أولى منه بالإمامة ﴿ ستكتب شهادتهم ويُسألون^(٣) ﴾

توفي رحمه الله تعالى في سنة ثمان وتسعين وتسع مئة . ودفن بتربة الحمزية ، وكانت جنازته حافلة رحمه تعالى .

(١) مكان هذا الاسم بياض في هـ

(٢) لعله سوق الذهبين الذي كان شمال الجامع الأموي ، وبني أيام الأمير نوروز ، انظر النجدي ٢ : ٤٠٠

(٣) سورة الزخرف ، ٤٣ ، الآية ١٩

أحمد بن روح الأنصاري

مولانا أحمد أفندي الأنصاري قاضي القضاة بالشام ومصر وأدرنه وقسطنطينية . وتولى قضاء العسكر بولاية أناطولي وولاية روم ايلي .

كان المذكور قدم الى قسطنطينية من بلاد كنجة وبرذعة من بلاد العجم . وكان وحيداً فريداً فقيراً . أخبرني أنه ورد من بلاده ماشياً ، وأنه ورد الى البلدة المسماة بالقصير فأخذ بها العهد على الشيخ أحمد القصيري المشهور . وسافر بعد ذلك الى باب السلطنة العثمانية ، وخدم رجلاً من (٤٠ آ) أركان الدولة يقال له فريدون آغا ، وأقرأ أولاده ولازمه حتى انتظم في سلك موالي الروم . وتولى تدريس المدرسة المعروفة بأمر السلطان مراد ، ومنها خرج الى قضاء الشام في الدولة المرادية .

وبدمشق اجتمعت به وذاكرته في أنواع العلوم ، ومدحته بقصيدة أوجبت أنه عرض له في تدريس المدرسة الوجيزية^(١) بدمشق وحصلت لي بعون الله تعالى .

وكان المذكور فاضلاً في العلوم العقلية كالمنطق والكلام . كانت عربيته ضعيفة ، وكذلك فقهه . وكان كريماً الى الغاية لكنه كان موصوفاً بالتهاون في ما يتعلق بأمر القضاء حتى انه ما كان يتأمل الحجة التي تعرض عليه للامضاء بل كان يمضيها تقليداً للكاتب وثقةً به وتغافلاً عن التثبت ، لاسيما في أمور الشرائع . وصدر له من ذلك أن بعض أعدائه أدخل عليه حجة

(١) كذا . ولم يذكر النعيمي مدرسة بهذا الاسم . ولعلها محرفة عن الوجيزية .

فيها بيعٌ للسموات وتحميدها بكرة الأرض . فعلمت عليها فشاع ذلك في بلاد الروم وافتضح بذلك عند الموالي ومابالى بذلك .

وتولى قضاء مصر ورجع من طريق الشام ، ونزل بالميدان الأخضر . فذهبتُ للسلام عليه وسألتُه عن علماء مصر فإثنى عليهم وقال لي : سألتني الشيخ زين العابدين البكري عن لَوْ في قوله تعالى : ﴿ ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام ، والبحرُ يَدُّه من بعده سبعة أبحر ، مانفدت كلماتُ الله ﴾^(١) من جهة لو أنها لو أُجريت على قاعدتها المعلومة من أن " كَفَيَ مدخولها إثباتٌ ، وإثباته نفيٌ " ، لصار المعنى : لكن ما كان مافي الأرض من شجرة أقلام فنفتت كلمات الله . وذلك محال .

فقلتُ له : عجباً من الشيخ زين العابدين يسألكم عن مسئلة مذكورة مع جوابها في المطوّال . فنجعل من قولي لأنه كان يظن أن السؤال من مولدات أفكار الشيخ زين العابدين .

وجرى معه في ذلك المجلس أنبحاث تضيق المقالة عن تفصيلها . وبلغني أنه اختلط في آخر عمره . وكان يكتب في امضائه : المفتقر الى الملك الباري ، أحمد بن روح الله الأنصاري .

وبالجملة فكان الغالب عليه الحلم والكرم ، والعلم العقلي الذي هو به علم . وكانت وفاته بقرطبة في عام ثمان بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة واتم السلام .

(١) سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ٢٧

٣٤

الشيخ أحمد بن المنقار

الشيخ أحمد بن محمد بن المنقار الشيخ الكامل الموصوف من الذكاء بالعجب العُجاب ، الذي فتح الله له في العلوم أوسع باب .
هو من بيت المنقار . وهذا البيت من البيوت الكبيرة بحلب ينتسبون الى حضرة العباس (٤١ ب) عم النبي ﷺ . ولهم بالشام أقارب .
والشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة ولد بدمشق وأمه دمشقية ، وأبوه محمد فاته تحصيل العلم ، لكنه سافر الى باب السلطنة العلية بقسطنطينية المحمية ، فصار قاضياً ببعض القصبات ، ومات وهو في طريق القضاء . ونشأ والده الشيخ أحمد هذا في طلب العلم ، ونال منه حظاً عظيماً وافراً ، ونصبياً متكاثراً . وكانت قراءته على الشيخ أسد الدين التبريزي ثم الدمشقي الآتي ذكره فيه عن قريب إن شاء الله تعالى ، لأنه كان زوج عمته . ولقد نشأ نشأةً عجيبة بحيث أنه ألف قبل أن يصير عمره عشرين سنة رسالة مقبولة في مباحث الاستعارة وبيان أقسامها وتحقيق المجاز والحقيقة . وعرضها على علماء عصره فما منهم إلا من وضع عليها قلمَ القبول ، ومدحه بما تستحقه من المدح المقبول . وكتبتُ عليها كتابةً حسنة ، ووصفتُها بعباراتٍ مستحسنة ، ما بين نثرٍ ونظام ، يُدعن لها أهل الكلام ، ودرّس بالمدرسة الفارسية^(١) بدمشق المحمية ، وطار صيته في الآفاق ، وتناقلت أحاديث فضله الرفاق ، وسافر الى حلب مراتٍ عديدة ، فظمرت فضائله وسيرته الحميدة . ثم لما مات والده في

م (١١)

(١) . النظر لنبيه الطالب ١ : ٤٢٦

بلاد الروم طالباً للقضاء - فأدرکه ، وصادفه في طريقه الذي سلكه لزم أن ينهض الى قسطنطينية ليتناول ما خلف والده من المال ، ويسعى على منصب [له]^(١) يكون سبب الإكرام والإجلال . فاشتهر صيته بين موالي الروم . وأدرکه من العزّة ما كان يطلب ويروم . بحيث ان المفتي الأعظم | شيخ الاسلام |^(٢) مولانا زكريا أفندي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى جعله ملازماً منه على قاعدة علماء تلك الديار . وفي ذلك رفعة عظيمة عند أرباب الاعتبار . فبينما هو في تلك المقامات رفيعاً ، ساكناً حصناً من الجهد منيعاً ، اختلط عقله ، وضاع فضله ، وصار يخلط في كلامه ، ويخبط في نظامه ، فوضعوه في دار الشفا ، وفرح بحالته الحاسد^(٣) واشتق . وزادت به هذه الأحوال ، وداخلته منها الأهوال ، فلزم إرساله الى بلاده مربوطاً ، وأصبح كاله كحال ليس مضبوطاً . ووصل الى دمشق في زنجير وثيق ، فتارة يغيب وآونة يفتق ، ولقد دخلت عليه مسلماً ، وله من الدهر متظلماً . فرأيته في سلسلة طويلة الذيل ، فأسببت دموعي كالسيل ، حزناً عليه ، وشوقاً اليه ، لأنه كان يرأسني بقصائده ، ويطارحني بفوائده (٤١ آ) وكنت أجيبه عن رسائله ، وأحقق جميع دلائله . فقال لي وهو في تلك الحال ، متملاً على سبيل الارتجال ، مشيراً الى سلسلته التي منعته من التردد والمسير ، وصيرته في صورة الأسير^(٤) :

إذا رأيت عارضاً مُسلسلاً في وَجَنَةٍ كَجَنَّةٍ يا عاذلي
فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّا مِنْ أُمَّةٍ تُقَادُ لِلجَنَّةِ بالسلاسلِ
وصار يكلّمني بكلام لطيف ، خالٍ عن التخليط والتخريف . ويشير

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) ما بين الخطين ساقط من ه ، ب

(٣) ه « الحود »

(٤) ه ، ب « الأمير »

الى بعض المراسلات الماضية ، في الأيام الحالية . وكنت أريد الذهاب فيسكني ، وأطلب الهرب فيدركني .

وطلب الأحابب له الدواء من كل طبيب ، فما ناله من الشفاء حظ ولا نصيب . وهو إلى الآن في قيوده ، مقيم على عموده^(١) . ولكن حالته تنقص وتزيد بحسب فصول العام . وربما رأيتُه في بعض الأيام ومعه مغربي يحفظه ، وخوفاً عليه يلحظه . والدهر أبو الأهوال ، لا يُبقي على حال . وأوّل شيء أرسله اليّ وهو صغير ما بقل عذاره ، ولا رقت على صحيفة خدّه أسطاره ، هذه القصيدة ، سائلاً عن لولا عند دخولها على الضير المتصل ، وصيرورتها حرف جرّ عند سيبويه ، هل يجوز عطف اسم مجرور على مدخولها عند إعادة حرف الجر الذي هو لولا أم لا ، بأن يُقال : لولاك ولولا زيد [بجرّ زيد]^(٢) وهو ممنوع . [فليقر]^(٣) بذلك . ويقال (كذا) لنا حرف جر لا يجوز العطف على مجروره ولو أعيد حرف الجر . وقد نظم ذلك في قصيدة رائية وأرسلها اليّ ، وألحّ في إرسال الجواب عليّ ، وقصيدته هي قوله :

أربّ الندى إذا المكارم والبرّ	ومن جوده قدفاق مدّأعلى البحر
ويا كاملاً حاز العلوم بأسرها	فأضحت له منقادة النهي والأمر
ويافاضلاً من حسنه اشتق اسمه	فاضحى جميل الوصف والاسم والذكر
حويت الذي لم يخويه من مآثر	أفاضل هذا العصر من سالف الدهر
إمام له فهم إذا عنّ مشكل	أزال معناه ^(٣) ولم يُبق من سرّ

(١) هـ ، ب « معوده »

(٢) الزيادة من هـ ، ب

(٣) هـ « معى »

بلاغته قد أملت ذكر وائل
أقرت له بالفخر كل مفضل
جواد حكاه الغيث يوم عطائه
سألتك لاجهلاً بمقدارك الذي
عن اسم ضمير جراً بالحرف ثم لا
سوالاً أعدت الحرف أم لا فبيّن
وإن لم أكن أهلاً لذلك إنني
وأنت الذي تُرجي لكشف نقابه
[أمولاي عذراً إنني لمقصر
وكيف يطيق الحصر في النظم عاجز
وها قد أتت خجلي اليك فأولها
فلا زلت مأوى العلم أفضل أهله
ودم وأبق ما فني على العود ساجع
فأجبتُه لما صار أهلاً للجواب، وفتح له من الفضل أبواب . ولم أراع
الروي للاشتهار^(٤) . فقلتُ مجيباً في سنة تسع مئة وثلاث وتسعين :

(١) ب ، ه « السر »

(٢) الزيادة من ه ، ب

(٣) ب ، ه « النهر »

(٤) ه « لاشتهاره وانشاره »

الاهاتِ حَدَّثَنِي عَنِ الرَّشَاءِ الْأَلْمِي
وهاتِ عَنِ اللَّحْظِ الَّذِي صَارَ وَاشْتَقَا
وَحَدَّثَ عَنِ السَّهْمِ الَّذِي لَمْ تُصَبِّ بِهِ
أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ رَمَانِي بِأَنْسَهُمْ
وَقَلَّدَ غَيْرِي الدَّرْطِيْبُ كَلَامَهُ
وَمَذَّ فَاتَنِي دُرُّ الْمُبَاسِمِ لَمْ أَزَلْ
فِي أَلَيْتِ شِعْرِي حِينَ تَهْتُ بِشِعْرِهِ
سَقَى اللَّهُ مَاءَ الْحَسَنِ خَدًّا إِذَا بَدَأَ
وَإِنْ لَحِظْتَهُ أَعْيُنُ النَّاسِ خَفِيَّةً
وَمَا كَانَ فِيهِ عَقْرَبُ الصَّدِغِ سَاكِنًا
وَقَامَةٌ قَدِ قَدِ أَقَامَتْ قِيَامَتِي
جَعَلَتْ دُمُوعَ الْعَيْنِ شَرِبًا لِفَضْنِهَا
رَعَى اللَّهُ مَنْ قَلْبِي لَدَيْهِ مُضِيْعٌ
وَمَنْ بَاتَ رِيَانَ الْجَفُونَ مِنَ الْكُرَى
وَمَنْ صَارَ يُؤَلِي لِي حُرُوبَ جَفُونِهِ
وَفَارَقَنِي مِثْلَ الشُّبَابِ مُودَعًا
فِرَاقُ شُبَابٍ فِي فِرَاقِ حَبَابٍ

وَدَعْنِي مِنْ أَسْمَاءِ زَيْنَبِ أَوْ أَسْمَا
عَلَى قَوْسِ مَعْنِي الْحَوَاجِبِ لِي سَهْمَا
جَلُودٌ وَلِلْقَلْبِ الْمَقْرَحِ قَدْ أُضْمِي
وَلَمْ أَلِقْ فِي حِظِّ التَّوَاصِلِ لِي سَهْمَا
وَصَيَّرَ حِظِّي بَعْدَ طُولِ الْعِنَا كَلَامًا
لَشَوْقِي إِلَيْهِ اجْعَلْ الدَّرَّ لِي نَظْمًا
يَنْبِرُ صَبَاحَ الثَّغْرِ لِي لَيْلَةً ظَلْمًا
مِنَ الْحَدْرِ لَمْ يَتْرِكْ لَشَمْسِ الضَّحَى رَسْمًا
يَكَادُ وَحَاشَاهُ مِنَ اللَّحْظِ أَنْ يَدْمِي
لِشَيْءٍ سِوَى أَنْ يَمْنَعَ الْعَاشِقَ اللَّثْمَا
وَأَقْعَدَتْ السَّلْوَانَ وَالصَّبْرَ وَالْعَزْمَا
فَوَاحِزْنِي لِمَ صَيَّرْتَ مَهْجَتِي نَظْمًا
وَمَنْ ذُقْتُ مِنْهُ بَعْدَ شَهْدِ اللَّقَا سُمًّا
وَصَيَّرَ لِحْظِي فِي الدَّجَا يَوْقِبَ النَّجْمَا
وَأُولِي لَهُ بِالذَّلِّ مِنْ طَاعَتِي سَلْمَا
فَبِاللَّهِ قَلْبِي كَمْ بِسَهْمِ الْعِنَا أُرْمِي
وَحَقِّكَ يَا سَلْمَى يَكْلُ بَذَا سَلْمَا

كُنْتُ مَعَ الْأَحْبَابِ فِي لَيْلِ صَبَوْتِي فَوَآءُ أَصْفِي صَبِيحُ الْمَشِيبِ بِنَا نَمَّا
وَلَوْ دَامَ لِي عَصْرُ الشَّبِيحَةِ وَالصَّبَا لَمَلَّتْ نَفْسِي بِالْوَصَالِ وَلَوْ وَهَمَّا
وَالكُنْ بِتَقْوِيضِ الشَّبَابِ خِيَامَهُ تَقَطَّعَتِ الْأَطْمَاعُ مِنْ رَشَاءِ أَلْيِ
سَقَى اللَّهُ ذَاكَ الْعَهْدَ عَهْدَ غَمَامَةٍ وَإِنْ مَتَّ مِنْ شَوْقِي إِلَى عَهْدِهِ غَمَّا
سَأَذْكَرُهُ مَالِحًا فِي الصَّبْحِ بَارِقٍ وَدَامَ شَهَابُ الدِّينِ يعلو الْوَرَى عَلَمَا
هُوَ الْكَامِلُ الْمُحَمَّدِيُّ أَحْمَدُ مَنْ غَدَا لَدَفْتَرِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِي دَهْرِنَا خَتْمَا
أَنَارَ شَهَابَ الْفَضْلِ مِنْهُ لِيَالِيَا مِنْ الْجَهْلِ قَدْ كَانَتْ بِلَاغِرَةِ دُهُمَّا
وَجَدْتِ رَبْعًا لِلْفَضَائِلِ قَدْ عَفَا وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُ الدَّهْرُ ذَاتَنَا وَلَا رَسْمَا
وَحَلَّ تَقْوَدَ الْمَشْكَلاتِ بِفَهْمِهِ كَأَنَّ ابْنَ سَيْنَا كَانَ أَوْدَعَهُ الْفَهْمَا
لَكِنَّ كَانَ سِنًّا عَنْ رِجَالٍ مُؤَخَّرَا لَقَدْ فَاتَهُمْ عَلَمَاً وَجَاوَزَهُمْ حِلْمَا
فَقُلْ مَا تَشَاءُ فِي فَضْلِهِ وَكَمَالِهِ فَرْتَبُّهُ مِمَّا يُقَالُ بِهِ أَنِّي
وَمَنْ عِنْدَهُ فِي فَضْلِ أَحْمَدِ رَيْبَةٌ فَذَلِكَ ذُو طَرْفٍ بِلا رَيْبَةٍ أَعْمَى
فَهَاتِ صَنُوفَ الْمَدْحِ فِيهِ وَلَا تَخْفُ غُلُوبًا وَإِغْرَابًا وَلَا تَرْتَقِبِ إِثْمَا
فَكُلُّ مَدِيحٍ فِي عُلَاهُ حَقِيقَةٌ بِذَلِكَ وَصَاةُ الْفَضْلِ قَدْ أَمَضَتْ الْحَكْمَا
فِيَا فَاضِلًّا قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ فَضْلُهُ وَشَمْسُ الضُّحَى فِي الصُّحُولِ تَقْبَلُ الْكَمَا
بَعَثَ قَرِيضًا بِلِ أَزَاهِرِ رَوْضَةٍ سَمَقَتْهَا سَحَابُ الْفَضْلِ مِنْ فِكْرِكَ الْأَسْمَى
فَهَاجَ إِلَى نَظْمِ الْقَرِيضِ سَجِيَّةً مَضَى زَمَنٌ مَا حَرَكْتَ نَحْوَهُ عَزْمًا

وفي ضمنه اغزُّ جلته لحاطري
فأوضحت بالتلويح عقد عقوده
فلولاك لم تفتج عقايمُ فكري
أمرت بتبيين الجواب وإني
فمن أجل ذا أرسلت من روض فكري
وشيعتُ بكر أمن عذارى خواطري
عقيلة خدر للأعاريب تعزّي
إذا تليت يوماً على سمع منصت^(١)
وتصبغ وجه الحاسدين بصفرة
فلا جاد ربع الحاسدين غمامة
وحياً الحيا من طاب خيماً وفطرة
فإن وجود المنصفين نعمة
ودم في سماء الفضل شمساً منيرة
مدى الدهر ما استولى الغرام على فتى

بديهة فكر تنقبُ الصخرة الصما
فعمدك كالتصريح لفظ الذي أومى
ولا نظمت من درّ أبحرها نظماً
رأيت امتثال الأمر ياسيدي حتما
أزاهر من سقيا الحجي بسمت بسما
صريحة أنساب إذا أصبحت تنمى
كأن جديساً جذها كان أوطسها
تشرّد عن أوطان خاطره الهما
كان استماع النسل يرثها سُقما
ولا زال هذا الدهر يوسمهم ذمماً
ولا ذاق في الأيام ظلماً ولا هضماً
على قلة الإنصاف في دهرنا غمماً
وجانبك الأعلى ورتبتك العظمى
فساير من شوي إلى بدره نجماً

ولما^(٢) وصلت هذه القصيدة إلى الشهاب المذكور عرضها على شيخه الشيخ
أسد الدين التبريزي ثم الدمشقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، فكتب إليّ

(١) م « منصف »

(٢) ب « قلت ولما »

نثراً يتقدمُ قصيدةً ، على وزن هذه القصيدة وقافيتها وتعرض فيها لمدهي
ولمدح الشهاب المذكور . وبعد وصول قصيدة الشيخ أسد الدين إليّ كتب إليّ
الشهابُ المذكور قصيدةً على الوزن والقافية أيضاً بمدح فيها الشيخ أسد الدين
المذكور ومدحني أيضاً . ولنذكر النثر الذي كتبه الشيخ أسد الدين ، وقصيدته
بتامها^(١) وقصيدة الشهاب المذكورة بتامها .

فأمّا النثرُ فهو ما كتبَ إليّ في سنة تسع مئة وثلاث وتسعين فقال :
يا مولانا . هذا الجوابُ الذي لعب بنا لعب الشول بالألباب ، وأبرز
مخدرات المعاني من وراء الحجاب ، وجلاها على أبناء الأدب سافرة النقاب .
فتطفلَ الفقير على تلك الفوائد ، وانتقى منها غرر الفرائد . فلما تأهّل في ذلك
العقد المنضد جاشَ صدره ، وقدم فكره . فأنشد :

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغْنِ وَلَوْ سَقَوْا جِبَالَ حُنَيْنٍ مَاسَقَوْنِي لَغَنَّتْ

وقد سبق مولانا في حلبة الرمان مجلياً ، وتلاه الشهاب المجاب مصلياً ،
ومذ أصبح مولانا مالك زمام الأدب سار الفقير من غير نقص في مولانا
متبها . وإن كان حال شعري المسطور ، كما قال الشهاب المذكور :

إِنْ كَانَ يَحْكِي الَّذِي أَبْدَيْتَ قَافِيَةً فَلَيْسَ مِثْلَالَهُ فِي اللَّطْفِ وَالْحِكْمِ

هَلْ طَلُّ غَيْثٍ يُجَاكِي وَابِلًا هَظْلًا أَمْ هَلْ غَدِيرٌ يُجَاكِي الْبَحْرَ فِي الْعِظَمِ

وامّا القصيدةُ الأُسديّةُ فهي هذه^(٢) :

يُنْفِقُ نَحْوِي لِحْظَهُ أَبَدًا سَهْمًا وَلَا أَرَى فِي حَبِّهِ غَيْرَ ذَا سَهْمًا

بِنَارِ الْجَوَى أَفْنَى وَجُودِي وَلَمْ يَدْعُ مِنَ الْجَسَدِ الْبَالِي خِيَالًا وَلَا دَسْمًا

(١) في ه ، ب بدلاً من قوله « وقصيدته بتامها ... » مايلي : ونذكر من قصيدته

المذكورة بعض أبيات . ومن قصيدة الشهاب أيضاً بعض أبيات : «

(٢) ه ، ب « فطلما »

(١) اذا مادحى ليل^١ أراعي نجومه الى الصبح لم أعرف لطيب الكرى طعما
فبين فؤادي والغرام تلازم وبين جنوني والكرى الفتنة العظمى
ولم أكتسب من حبه طول مدتي سوى أن كسوت القلب والبدن السقما
فدعم ذلك الحال حسنا بوجهه طفت أنادي الحال من حيرتي عما
أيا لاني فيه استمع لصفاته لعلك أن تبدي التعطف والرحما
أغن رشيق القدأ غيدأ أهيف بديع صفات اللحظ أحورهُ ألمي
محياه لما بان في ليل شعره [بدا لي] بدر التم في اليلة الظلما
ولما انتى برنو بألحاظ جوذر تذكرت أيضا جردت والقنا الصما
اعاذل دع عنك الملام فإني أضعت رشادي حين أحببت والعزما
فزال بصيد الأشد في يوم حربه ويؤدي مع الأحباب بين الورى سلما
ولما أراد الفتك بي حين صادني تقلد سيف اللحظ ثم مضى قدما
مراشفه درياق ملسوع صدغه فما باله أبدي من الصد لي سما
ولا تحسبني في هواه مجددا فنار هواه أحرقت كبدي قدما
وقد كنت أخفي الحب قدما فمذ بدا مشيب برأبي ما استطعت له كتما^(١)
مشيب وحب واللام وغربة وصدا أذاب القلب مني والجسما
تجمعت البلوى علي وليس لي وجود لاني صرت من صدّه وهما

(١) من هنا الى ما بعد ١٤ بيتا كله ساقط من ه ، ب

(٢) الى هنا ساقط في ه ، ب ثم فيها : الى أن يقول : مشيب ..

تقسمتِ الناسُ الوصالِ جميعه
(١) | أَيْحَسُنُ فِي شَرَعِ الْمَحَبَّةِ أَنِّي
أَيْحَسُنُ فِي شَرَعِ الْمَحَبَّةِ أَنْ أَرَى
قَضَايَا الْوَرَى فِي الْحُبِّ قَدْ أَنْتَجَتْ لَهُمْ
تَمَكُّ قَلْبِي كُلَّهُ بِلِحَاطِهِ
لَقَدْ مَتُّ غَمًّا فِي هَوَاهُ وَإِنِّي
لَقَدْ جِئْتُ أَشْكُو مِنْ هَوَاهُ إِلَى فِتْيَةٍ
هُوَ الْحَسَنُ الْأَفْعَالِ وَالْإِسْمِ وَالَّذِي
وَصَاحِبُهُ ذَلِكَ الَّذِي بَدَأَ فَضْلَهُ
| شَهَابٍ مِنْ اللَّهِ الْمُهَيَّمِ نَاقِبٌ
فَلَوْلَاهُمَا مَا كَانَ لِلْفَضْلِ رَوْنَقٌ
| هُمَا مُفْرَدَا ذَا الْعَضْرِ فِي الْعِلْمِ وَالْحُجَى
كَأَنَّهَا عِنْدَ التَّسَاجِلِ أُصْبِحَا
(٤) | وَقَدْ نَظَّمَا فِي السَّلَكِ دَرَّامًا مُضْدَأً

وكان النوى لي بينهم دونهم قسما
أموتُ وما قارفتُ إثمًا ولا جرمًا
بِمَرَشَفِهِ مَاءَ الْحَيَاةِ وَأَنْ أَظْهَمَا
قَضَايَايَ فِي حَيِّ لَهْمٍ أَنْتَجَتْ عُقَمَا
وَأَمِ يَبْقَى لِي قَلْبًا لَزِيذٍ أَوْ سَلَمَى
مَضَى لِي دَهْرًا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ الْغَمًّا | (٢)
مَنَاقِبُهُ تَسْتَعْرِقُ النَّثْرَ وَالنَّظْمَا
مَدِيحُ عِلَاهُ صَارَ فِي مَذْهَبِي حَتْمَا
فَضَائِلُ مَنْ جَارَاهُ فِي فَضْلِهِ خَصْمَا
وَلَكِنَّهُ فِي عِلْمِهِ يَشْبَهُ الْيَمَّا | (٣)
وَمَا رَقَّتْ كَفَّايَ فِي وَرْقٍ رِقْمَا
هُمَا شَاعِرَا ذَا الدَّهْرِ قَدْ خَتَمَا خَتْمًا | (٣)
كَشَمْسِ الضَّحَى قَدْ قَارَنْتُ قِرَاءَتِمَا
وَقَدْ حَيَّرَا فِي وَصْفِهِ الْعُرْبَ وَالْعَجْمَا

(١) من هنا يبدأ سطر جديد في ه ، ب
(٢) الى هنا ساقط من ه ، ب
(٣) ساقط من ه ، ب
(٤) من هنا ساقط من ه ، ب

هما شئنا سمي بشعرٍ مُمَدَّبٍ لديه أبو تمامِ النَّذْبُ ما نَمَّا
 هما أحيا ربح الفضائل بعدما عفا رسمه لم يبق سوى أسما
 فما روضة غناء باكرها الندى وفتت الأزهارُ في دوحها كَمَا
 وقام خطيبُ الدَّوحِ فيها مُفرداً يجدد للعشاق في سجعه عزمًا
 وفاح شذاها عندما هبت الصبا ونفس عن قلب المحب العنا الجمًا
 تسلسل في أرجائها الماءُ جارياً على حصباتٍ كالجواهر أو أسمى
 بأحسن منه حين زور منازلِي وأشرق من أنواره الليلة الدهما
 فسامرته جنح الدجى مُتَلذذاً وأوثقته ضمًا وأوسعته لثما
 أهديتُها لي الشهرَ أم ففت ساحرِ أم العقدَ أم بدرَ الدياجي أم النجما
 أم الوردَ أم زهرَ الرياض أم المنى أم الشمسَ أم كأسَ المدام أم النعمى
 فدوما جميعاً بارك الله فيكما تُفيدان طلاباً أتوا نحوكم علما
 ولا تفترا غيظاً على الدهر إنَّهُ عن الفاضلِ النَّحْريرِ ذو نظرٍ أعمى
 فيكفيكما فيظُّ الجهول لفضلكم وإن رغمت أنفُ الحسود به رغماً^(١)
 ولا زلتما في نعمةٍ وسرَّةٍ ولا تريا في الدهر نقصاً ولا وصماً^(٢)
 مدى الدهر ما غنى على الدوحِ ساجعٌ

(١) الى هنا سائط في ه ، ب

(٢) ب ، ه « ظلماً ولا مضاً »

وأما القصيدة الشهاية فهي هذه^(١) :

أتى ينثنى كاللذني بل قدته أسمى
فريد كمال^(٢) جامع الظرف^(٣) جوذر
إذا ما بدا أو ماس تيباً وإن رنا
ترى وجهه في شعره السببط مشرقا
له مقلة سيافة غمدتها الحشا
لمحت بطرفي خده فكلمته
تجسم من لطف وظرفٍ أما ترى
لو قلت تحكيه الغزاة لفته^(٧)
غزاني ببيض السود من طرفه ومن
وحملني في الحب أثقال ردفه
وأعجب ما فيه بجود بطيقه
وقد فطرت قلبي نواذب بينه
غزال بفعل الجفن يلهيك عن أسما
أمير جمال^(٤) اهيف أحور المي
ترى البدر منه والمنتقف والسهما
ومن عجب شمس بداجية ظلما
ونباله قلبي لأسهما مرمي
فقلته تدمي ووجنته تدمي^(٥)
تأله^(٦) لنا تختائه وهما
وتحكي محياه لأوسعته ذما
طوارق هجراً فنت الجسم والرسم
والبسني من خصره الناحل السقا
وقد سلب الأجزاء من هجره النوما
وطني نوى من غير رؤيته صوما

(١) هـ ، ب « وأما القصيدة التي كتبها الشيخ شهاب المذكور فطلمها . . »

(٢) هـ « جمال »

(٣) هـ « اللطف »

(٤) هـ « كمال »

(٥) ساقط من هـ ، ب

(٦) هـ « تغبيره »

(٧) من هنا ساقط في هـ ، ب

وَحَلَّتْ عُرَى جَسْمِي يَدُ الْبَعْدِ فَا نَبْرِي
كَفِي حَزْنَا أَتِي رَهِينُ سَقَامِهِ
بِحَبِي يَوْمَ الْبَيْنِ نَمَّتْ مَدَامِعِي
حَكَّتِي حَمَامُ الْبَيَانِ شَجْوًا فَكُنَّا
تَعَلَّمْتُ مِنْ دَمْعِي النَّثِيرِ وَثَغْرِهِ
وَلَوْلَا جَفَاهُ لَمْ تَفْضُ مَقَلَّتِي دَمًا
إِذَا لَأْمَنِي قَوْمٌ بِحَبِيهِ لَا أَرَى
يَلُومُونَ أَنْ يُطْفِئُوا بِنَارِ مَلَامِهِمْ
فَفِي عَيْنِهِمْ عَن لَطْفِ إِبْدَاعِهِ عَمِي
يَمِينًا بِمَيَاتِ الْمِبَاسِمِ إِنِّي
وَلَا ابْتَغِي عَن قَيْدِ حَبِيهِ مَخْلَصًا
| (٢) إِمَامِ أَوْلِي الْأَفْضَالِ فَخَرُّ زَمَانِهِ
يَوْمَ لَدَى حَلِّ الْعَوِيصَاتِ إِنْ دَجَّتْ
وَأَطْلَعَ شَمْسَ الْفَضْلِ بَعْدَ أَفْوَلِهَا
لِعَمْرِي لَقَدْ فَاقَ الْأَوَاخِرَ فِطْنَةً

ولكن عُرى ودي به أحكت برما
وغيري واف من تعطفه قسما
ومن سره في الجنن لا يأمن الله
لفرط الجوى يبكي على البانة الشما
وما كنت أدري النثر في اللفظ والنظما
ولولا نواه لم يهض [لي] الهوى العظما
إطاعتهم لكن أرى أومهم لوما
هواي وما بالنار يطفأ بل يجي
ولي أذن عن فحش عدلهم صمتا (١)
عن الحب لا ألوى بلومهم الفرما
سوى حسن قولاً وفعلاً كذلك اسمها
فريد الورى في كل علم غدا بما
فيحسم إشكالاتها فكره حسما
وشوه وجه الجهل حتى غدا جها
وانسى بما أنسى الأولى فصحو اقدما

(١) الى هنا ساقط في ٥، ب

(٢) من هنا الى آخر القصيدة ساقط من ٥، ب

إذا العُربُ جاروه ميادين أفتحوا
 ولو ظمئت في كشفِ رمزِ نفوسهم
 أليس عجبياً يدعى خلو دهرنا
 ويانفت السحر الحلال بلفظه
 ويأمودها لطف النسيم كلامه
 إليك مقاليدُ البلاغة القيت
 لبست من الأفضال أوفر حلة
 وأرسلت طرساً بل صحائف فضة
 بل الحمر في كأس البيان مرثوقاً
 بل الزهر في روض الطروس منضداً
 لقد جاد وشمي الفصاحة روضه
 لديه يرى نظم ابن زيدون ناقصاً
 فلا مُتعت عيني بحسن حبيبها
 فهاك قريضي عن قريضك قاصر
 ودرك في سلك البيان منظم
 وما يشبه البحر الخضم جداول
 فتحسبهم من عي نطقهم عجباً
 لأرشفهم من ثغر أفكاره ظلماً
 من الفضل وهو البحر فيه طاهلاً
 ويامن إليه كل مجد غدا يُنمى
 وإن كان في أحشاء أعدائه كلها
 ومنك الموالي تستقي الوابل الجمّاً
 وعمرت ربماً في العلا قارن النجماً
 ونظماً بل المنتور من ربك الأسمى
 وليست ترى الأفهام في شربه إثماً
 بل البرد قد أودعت في وشيه رقماً
 فاضحت فنون اللطف في وجهه وسمماً
 وشعر حبيب في السلامة مائماً
 وقرت به إن عاينت مثله نظماً
 وهل ير مع^(١) يحكي الدراري في الدهما
 وجزعي في سلك الركاكة قد ضمماً
 كذلك الشهي لا يباحق القمر التماً

(١) اليرمع : حمى بيض تلح ، اذا فتت انفتت .

وَدَمَ غَرَّةً فِي جِبَّةِ الدَّهْرِ نَزْهَةً أَدِيبَ الْوَرَى حَلْفَ النَّهْيِ أَوْحَدًا قَرَمَا
وَأَبْقَيْتَ مَأْوَى كُلِّ مَجْدٍ وَسُودٍ وَسَعَّتْ عَلَيَّ قَادِي فَضَائِكَ النُّعْمَى
مَدَى الدَّهْرِ مَاوِثِي مَطَارِفَ طَرْسِهِ أَرَيْبٌ يَرِي الْحِشَا مَدْحَتَهُ حَتْمًا |
[وهو باق الى الآن في بيته بقيد الترسيم ، شفاه الله المولى الحكيم]^(١)

(١) الزيادة من هـ ، ب . وفي حاشية هـ : ثم توفي سنة ١٠٣٣ هـ «

٣٥

الشيخ أحمد بن المرحوم الشيخ أسد

هو الشيخ الصالح ، الفاضل الفالح ، العابد الزاهد ، الملازم على العبادة في غالب المعابد .

كان والده الشيخ أسد في الأصل من قرية حمّارا ، ثم خرج منها الى دمشق . وأخذ عن الشيخ العارف بالله الشيخ محمد بن عراق الطريقي . ثم ارتحل الى بلاد صفد الى قرية يقال لها الدير وبها توفي . فنشأ ولده الشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة على الطاعة والعبادة . وورث عنه السبحة والسجادة . غير ان الشيخ أحمد هذا مقيم في مدينة صفد في زاوية تعرف به الآن ، وكانت قديماً تعرف بجامعة الصدر .

وهو الآن من محاسن الأخيار من الأتقياء الأبرار . مولده بمدينة صفد ، على ما أخبرني بذلك ابن أخيه الشيخ عبد الرحيم ، في سنة ٩٤٤ . فيكون عمره في هذا التاريخ ، وهي سنة تسع بعد الألف ، خمساً وستين سنة . ولهم وردٌ خاصٌ بهم نقلوه عن أستاذ والدهم الشيخ محمد بن عراق يقرؤنه مع جماعتهم في أعقاب الصلوات الخمس .

وهو شيخ له نور ساطع ، وضياء من العبادة لامع ، لا يفارق تلاوة القرآن ، ولا يفتر ساعة عن عبادة الملك الديان . وله خطٌ حسنٌ وعبارات مستحسنة ، وفضيلة لا تفتك بأمثاله حسنة .

وأخبرني ابن أخيه الشيخ عبد الرحيم المذكور أن عمته الشيخة أحمد المذكورة متجانبة عن الاختلاط بالانعام ، وأنها لا يتردد الى الحكام ، بل

ربما يتردد الحكام اليه ويخضعون بين يديه . لكنه ربما سلم على الحاكم عند ابتداء قدومه مرة واحدة (٢٦٦ آ) لا يعيدها ، إلا بضرورة داعية لا يريدونها . وله بعض علوفات قليلة | من جانب السلطنة العلية . وربما يرسل بعض أقاربه لاستيفائها من ديوان دمشق المحمية . | (١)

والدير الذي ذكرنا أن الشيخ الأسد توفي فيه في سفح جبل بالقرب من قرية البصنة . وكان الدير قديماً يعرف بدير الحضر . وكان قديماً مسكن النصارى ، فأخرجهم منه المرحوم السلطان سليمان رحمه الله تعالى وأمر الشيخ الأسد بالإقامة فيه مع أولاده وأتباعه . فامتثل الأمر الشريف وقطن فيه الى أن توفاه الله تعالى . وكانت وفاة الشيخ أسد المذكور في الدير المذكور سنة ٩٧٧ .

وأولاده وأنساله مقيمون به ماعدا الشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة فإنه مقيم بمدينة صفد كما شرحناه .

وبالجملة فالأسد لا يعقب إلا الأسيال ، وصاحب الحال لا ينشأ عنه الا أرباب الأحوال . والفروع سالكون على طريق الأصول . وأفعالهم تابعة لما كان عليه الرسول . ولم يُنقل عنهم ما يخالف المعقول ولا يُنافي المنقول . وقد بارك الله في نسلهم فانتشروا ، وبمحاسن الصفات قد اشتهروا . والمجد لله على كل حال ، وعليه الاعتماد في جميع الأحوال .

٣٦

الشيخ أحمد الحلبي الشهير بابن المنلا

هو الشيخُ الفاضلُ ، | العلامةُ الكاملُ |^(١) ، ذو الفواضل والفضائل ،
والآثر التي ليس لها من ثمائل .

ورد الى دمشق مع ابيه الشهير بالملّا . وكان أبوه من أعيان الناس .
تولى أوقاف المدرسة السليبيّة بالصاحية المحميّة . ونشأ ولده أحمد هذا فاضلاً
بارعاً ، حافظاً جامعاً . جال في ميدان العربية ففاز بقصات السّبقي ،
وتناظر مع أبناء الأدب فما منهم إلاّ من سلّم له بالسيادة وله استرق .
واستمر مع والده في دمشق مدة طويلة ورجع معه الى حلب ، واجتهد
في الطلب ، له معارف والعلوم ، وبالغ في الفحص عما تضمنته من منطوقٍ
ومفهوم ، الى أن أصبح في العلم علامة ، وفي الفهم فهامة . وسافر الى دار
السلطنة العليّة قسطنطينيّة المحميّة . فدرّس في حلب بعدّة مدارس ، ومدح
في الروم مفتي دار السلطنة العليّة المولى أبا السعود ، صاحب التفسير الفائق
على درر العقود . وأجاد في مدحه الى أن أشاع المدوح المذكور أشعاره
في الروم ، ونال بذلك من الرفعة ما يطلبه ويروم .

ولما رأى العالم قد صار للجاهل مطلوباً ، وأصبح العالم مقلوباً ، بحيث
أنّ العلماء ضاعوا بين الجهّال ، وسقطت مرتبتهم الى الخفيض (٤٦ ب)
بعد المنزل المتعال ، وأصبحت المدارس تُباع لمن يدرسها ، ولا يدرّس
فيها ، وطارت معاني الكتب في آفاق الضياع من قوادمها الى خوافيها ،

(١) ساقط من هـ

وكبر الجلاء العائم ، حتى ارتفعوا الى الغمام ، وقطنوا لجهام فيما كانت ينزله العلماء من المعالم ، تخلى عن المناصب ، وما تجلى في منصات المراتب ، بل ترك التدريس ودرسه ، ونسي الدرس وما درسه .

وكان له وقفٌ قد انتقل اليه من بعض أصلافه ، فاكتفى بما يحصل منه ، فامتري مادراً من أخلافه . وقطن غالب أوقاته في الضياع ، حتى أصارته الى وصف الضياع .

وكان ملازماً على التحرير والتصنيف ، والتقريب والتأليف . بحيث انه شرح « مغني اللبيب عن كتب الأعراب » للعلامة جمال الدين بن هشام . وأخبرني من رآه من العلماء الأعلام أن الشرح المذكور في بابه غاية لا ترام ، وأنه واضح المباني ، متين المعاني . تبسم منه^(١) ثغور التحقيق ، وتنفتح من أزهاره أرواح التدقيق . وما وقفت عليه لكن سمعت بأوصافه الحسنة ، ومعانيه المستعسنة . وله في النظم اليد الطائفة ، وفي النثر المقاصد الكاملة . سلم له أهل زمانه ، من مشايخه وأقرانه . وكان يحضر في بعض فصول السنة الى حلب الشهباء فيبادر أعيانها الى الاجتماع به ، ولا يتخلف عنه كبير ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير . وغالب أخذه العلوم عن عالم حلب المرحوم الشهير بابن الحنبلي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

ولكن صدرت له محنة في آخر عمره وأفضت به الى الزوال ، وأصارته منقولاً الى وصف الانتقال . وذلك أنه لما كثرت إقامته في القرى كما ذكرناه كان بعض الفلاحين يستند اليه في بعض المهمات ، ويستعين به عند وقع المهمات . فجاءه رجل وطلب منه أن يساعده في تزوجه لبنت رجل من أعيان هاتيك الناحية . وكان ابن عمها قد تكلم مع أبيها في أن يتزوجها . فلأجل خاطر الشيخ أحمد المذكور تزوجها والدوها لمن طلبها على يد الشيخ ولم يزوجه لابن عمها . فعاتبه ابن عمها فقال : مالي ذنب في ذلك ،

(١) « عنه »

وما فعلته إلا بإبرام من الشيخ أحمد فإنه استاذنا وهو الحاكم علينا ، وهو صاحب المرتبة العلية ، في الديار الحليّة . فأمرها ابن عمّ البنت في خاطره ، وصار يرتاد الفرصة في قتل الشيخ المذكور إذا كان في القرية أيام بيّادته . فلم يزل يحاول الفرصة ، لينذهب بقتله ما عنده من الغصّة ، حتى أمكنه غيظه (٤٧ آ) في ليله . فحضر اليه مع فرقة من الأشقياء المساعدين له على مراده ، والمعاعدين له على كمال إسعافه وإسعاده . فكسر باب الدار ، وكأس الحمام عليه أدار ، وماراقب في قتله غضب الجبار . بلغني أنّ الشيخ كان جالساً يطالع في بعض الكتب المفيدة . وعنده عبدٌ حبشي يطبخ له قهوة البنّ ليقوّي تسهيدته . وإذا بالشقيّ المذكور قد دخل عليه بغتة والسيف في يده مسلول . فاستعطفه بما حضره من الكلام فكان عنده غير مقبول . وبطش به غير راحم لشيبته ، ولا عاطفٍ على علومه وفضيلته . وسقاه بدل ما كان يتوقّب من القهوة كأس الحمام ، وأدرك بذلك ما كان قد طلب من المرام . ونال الشيخ شهادة الآخرة ، وحاز جنّة ناضرة ، مع وجوه الى ربها ناظرة . وشاع الخبر بذلك في البلاد ، حتى بكت حسن العهاد .

ولقد كان لطيف الأخلاق ، كريماً على الغرباء والرتفاق . ولقد أخبرني عنه جمٌّ غفير ، وجمعٌ كثير ، أنّه كان حلواً المذاكرة ، لطيف المحاضرة ، رقيق المسامرة . ولو لم يكن كذلك لما حاز السعادة ، وفاز بمرتبة الشهادة . وكان له ولدان فاضلان عالمان كاملان . أحدهما اسمه محمد ، والآخر ابراهيم . وكلُّ منهما في حلب رئيسٌ جليل عظيم . يتوقّدان ذكاءً وفهماً ، ويتدفقان سخاءً وعلماً .

وبلغني أنّ القتائل لأبيها المذكور مع مَنْ كان من أرباب الشقاوة والشرور ، قد قتلوا قصاصاً . وما وجدوا من السيف خلاصاً . وأنّ استيفاء حقه منهم كان في مدة قصيرة ، وأنّ مولاه الحق كان في ذلك نصيره . وله من النظم ما يسحر الألباب ، ومن النثر ما لا يفتق معه كتاب .

فمن ذلك مقاله في حقّ رجلٍ شريفٍ كان نقيب الأشراف بحلب ، وكان
بذي اللسان ، مغرّياً بثلب الأعيان . وكان يُتّمُّ بالمغلاة في القرابة ،
وعدم الحب لحضرات الصحابة :

ياسيداً من شرّه إنا نعوذُ بعائشه
رفقاً على أعراضنا ما أنت إلا فاحشه

ومن ذلك مقاله يصف ربيعاً نضيراً ، لا تجد له نظيراً ، واجداد ،
فيما أفاد :

أرى تفحاتِ الزهر عطّرتِ الحمى
ومن عجبٍ أن الغمامة قد بكت
وقد نشرت أیدی الفصون^(٢) لآلتنا
وقد دارت الكاسات من كف أغيد
وقد صفت في الدوح أغصانه على
ودب عذار الآس في خد روضة
أهنيك قد جاء الربيع وأقبلت
فأسرع إلى كاسات خمر^(٤) كما أنها
هلال أدار الشمس ما بين معشر
شمنا لها عرفاً تضيع شره

كأن غزالي في الرياض قدسها^(١)
سحيراً وثغر الروض أبدى تبسها
غدت [فوق] زند النهر دراً منظماً^(٣)
كبدر أرانا فوق كفيه أنجما
غنا الورق والشعر ورغني وزمزما
بها عارض الریحان لاح مننما
بشائره والدهر انك منعما
وقد بوزت من كف ظبي تلنما
من القيد تلقى دونهم أنجم السما
فأحيا نفوساً حبلاًها قد تصرّما

(١) ب ، ه « تبسما »

(٢) ب ، م « الربيع »

(٣) في النسخ « غدت زلد النمر دراً منظماً »

(٤) ه « خير »

إِذَا مَابَدَتْ مِنْ دَنِّهَا^(١) خَلَّتْ أَنَّهَا
وَإِنْ قَهَقَهَتْ فِي الطَّاسِ أَبَدِي حَبَابُهَا
أَدِيرْتُ عَلَيْنَا وَالصَّبَاحُ كَأَنَّهُ
وَمَا زَالَ سَاقِينَا يَحُثُّ كَوْسُهَا
وَمَا خَلَّتْ أَنْ الشَّمْسُ أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا مَذْرَأَاتُ بَدْرِ كَأَسْنَا
فَعَادَتْ بِقَلْبٍ خَافِقٍ نَحْوَ مَغْرَبِ
فَسَوْدٌ مَا فِي الشَّرْقِ ثَوْبٌ حِدَادِهَا
وَأَحْوَرُ لِحْظٌ مَا تَبَدَّى هَذَا رُهِ
يَسْلَمُ مِنَ الْأَلْحَاطِ عَضْبًا مَهْتَدًا
وَيَفْتَرُّ عَنِ خَمْرِ يَمَازِجِ سُكْرًا
وَقَدْ خَطَّ فَوْقَ الثَّغْرِ بِالْمَسْكِ شَارِبٌ
لَهُ مَقْلَتَا ظِيٍّ وَعَطْفٌ غَزَالَةٌ
أَنَادِيهِ وَالْأَجْفَانُ هَامٌ سَحَابُهَا
لَكَ اللَّهُ رَفَقًا قَدْ أَذْبَتَ^(٣) مَهْتَكَا

سُرُورٌ بِكَاسَاتِ النِّعِيمِ تَجَسُّمًا
فَوَاقِعَ يَاقُوتٍ عَلَى التَّبَرِّ قَدْ طَمَا
إِضَاءَةٌ تُغْرِى مِنْ حَبِيبٍ تَبَسُّمًا
عَلَيْنَا إِلَى أَنْ أُبْرَزَ الشَّرْقُ أُدْهَمَا
إِلَى الْغَرْبِ الْإَمْنِ^(٢) جَوِيٍّ وَتَضْرَمَا
بِأَفْقِ السَّمَاءِ أَلْقَى الضِّيَاءُ وَخَيْمًا
أَقَامَتْ بِهِ مِنْ فَقْدِهَا النُّورَ مَا تَمَّا
وَفِي الْغَرْبِ أُجْرَتْ مِنْ مَحَاجِرِهَا دَمَا
وَإِكْنَ مَا فِي خَدِّهِ الطَّرْفُ أَوْ هَمَا
وَمَنْ قَدَّهُ إِنْ مَاسَ رُحْمًا مَقُومًا
عَلَى لَوْلَاؤِ فَوْقِ الْعَمِيقِ تَنْظُمًا
بِجَانِبِهِ خَالٌ أَمَاتَ الْمُتَيْمًا
وَقَدْ رُدَّ نَبِيٍّ وَصَدَغُ تَنْمِنَمَا
وَطَعْمَ الْكُرَى عَنِ مَقْلَتِي الْبَعْدُ قَدْحِي
كَسَيْبِ سَحَابِ الطَّرْفِ فِي خَدِّهِ هِي

(١) « دونها »

(٢) « عن »

(٣) « اذابت »

يبیتُ علی فرشِ الصبابة والضنا
 اذا اغبرَّ وجهُ الشرقِ فاضت شئونہ^(١)
 وان اشرقت منه الغزاةُ خلته
 وان هتفت ورقاءُ في الدوح هيجت
 حمام الحمى رفقاً فإني متيم
 مقیم بأرضِ الروم في سوءِ حالة
 بلاد بها أهلُ الفضائلِ عالة
 فسحقاً لأهلها أولي البغي والهوى
 وما نقلته من خطه في رحلته
 الرحلة الرومية ، قوله :

ألا إنَّ الفراقَ سببا فوادي
 وأجرى بجرّ دَمعي من عيوني
 فلي وجدّ عن العذالِ خاف
 نزحتُ عن الأحبةِ فالتسلي
 عسى الرحمن يجمعنا قريباً
 وبالجملة فإنه من مُقرّادات الزمان ، ومن محاسن الخلائق ، والإخوان .
 ما تخلف بعده مثله ، ومن تشبه به صار للتعقير مثله . رحمه الله تعالى رحمة
 واسعة الى يوم الحساب .

(١) م ، ه ، ب « شجونه » ولعلها كما البتة .

(٢) ه « عن »

٣٧

الأمير أحمد بن الأمير قانصوه

الغزآوي الساعدي

تولى أحمد المذكور هذا الإمارة بعجلون^(١) وما والاها من بلاد الكرك^(٢) والشوبك^(٣) بعد أبيه الأمير قانصوه ، وبأشر الإمارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد ابن السلطان سليم . وكان قليل الأذى للرعايا ولكن كان منسوباً الى الخسة .

وبالجملة هو من قوم لهم قدم في الإمارة في هاتيك البلاد ، وكانوا في زمن الجراكسة أمراءها . ورأيت من اجدادهم في بعض التواريخ الأمير محمد بن ساعد . وذكر صاحب التاريخ المذكور أنه كان أميراً في جبل عجلون ، وأن بعض حكّام دمشق طلع اليه الى بلاده فهرب منه وخافه . وأمّا قانصوه والد الأمير أحمد هذا فإنه كان جمال البيت المذكور ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف القاف .

مات الأمير أحمد المذكور فجأة بنواحي عجلون . وذلك أن بعض أمراء دمشق أرسل اليه أحكاماً سلطانية في بعض المهمات مع بعض الأجناد فبينما الرسول عنده إذ قيل مات الأمير . فاضطربت البلاد لذلك حتى قيل للرسول (٤٨ ب) أنت فاولت الأمير | شيئاً شتمه ، فكان

(١) بلدة كبيرة في الأردن اليوم

(٢) بلدة كبيرة في الأردن اليوم . انظر عنها معجم البلدان .

(٣) بلدة كبيرة في الأردن اليوم . انظر عنها معجم البلدان .

فيه |^(١) نُسبته . وليس كذلك . وإنما الامر كما قال الأمير أبو فراس
المداني :

والكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له يورث يقيه ولا يجزئ
وإمارة عجلون في هذا التاريخ بيد الأمير حمدان ولد الأمير أحمد صاحب
هذه الترجمة وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

(١) ساقط من ه .

٣٨

أمير الأمراء أحمد باشا

الشهير بين أمراء الأروام بشمسي أحمد باشا

هذا^(١) الأمير المذكور منسوبٌ الى حضرة خالد بن الوليد الصحابي رضي الله عنه . وهو من بيوت السلطنة القديمة ، يتصل نسبه بالسلطان اسفنديار سلطان قسطنطيني كان تولى هاتيك النواحي . لكن لما غلبت شوكة بني عثمان سلم اسفنديار سلطنته لهم باختياره بشروطٍ منها أن لا تخرج البلاد المذكورة عن يد من يوجد من نسله . ومنها أن لا يبقى أحدٌ من اولاده وأنساله بغير منصب يليق بشأنه ، ووفى بنو عثمان لهم بذلك . وصاحب هذه الترجمة خادمٌ في بيت السلطنة بقسطنطينية عند سلاطين آل عثمان ، ولم يزل ينتقل في الولايات الى أن ولاة السلطان سليمان خان ، عليه الرحمة والرضوان ، إمارة الأمراء بدمشق الشام . فجاء إلى دمشق وسار في الناس سيرة حسنة . وكان كريم الطباع ، قليل الضرر ، كثير النفع للرعايا والأتباع . وطالت مدته^(٢) بدمشق ، وبني بها خانقاه قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقةً لخندقها^(٣) . وجعل بها حجرات للصوفية ، وجعل لها وقفاً يطبخ منه كل ليلة بعد العصر | طعام^(٤) يأكله المجاورون | بها^(٤) وهي من محاسن دمشق ، وقعت على وضع لطيف .

(١) انظر ولاية دمشق في العهد العثماني ص ١٤

(٢) ب ، ه « مدة ولايته »

(٣) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ١٩١ (مسجد الأحمدية)

(٤) ساقط من ه

وبها بركة عظيمة وبستان لطيف واقع في وسطها . ودائماً يكون بها شيخ يتناول ما شرط للمشايخ من علوفة وطعام وعوائد وفوائد ، وانما قيل له شمسي ليكون مخلصاً له يذكره في شعره على عادة شعراء الفرس والروم لأن المذكور كان من محاسن شعراء الروم . له ديوان شعر مشهور بينهم يتداولونه ويحفظونه .

|^(١) ومن جملة آثاره أنه نظم كتاب « الوقاية في فقه الامام الأعظم أبي حنيفة » رضي الله عنه نظماً بلسان التركية وأكمله وعرضه على المولى أبي السعود المفتي .

وكان القاضي بدمشق في أيام دولته قاضي القضاة محمد أفندي (٤٩٩ آ) ابن العلامة المفتي أبي السعود صاحب التفسير الآتي ذكره وذكر والده إن شاء الله تعالى . فاتفق أن القاضي المذكور كان راكباً في يوم عيد ومعه جماعته وأصحابه ، فمرّ على باب دار الإمارة بدمشق ، وكان قدّام الباب المذكور أرجوحة لبعض الأجناد من جماعة أمير الأمراء المذكور ، والطبل والمزمار يضرب للأرجوحة على العادة . فنفرت فرس القاضي من صوت الطبل فكادت تلقيه الى الأرض ، فأخذته حمة المنصب وأنفة النسب فأمر من معه بتخريق^(٢) الطبل ، فخرقوا طبل الباشا وجماعته . فلم بذلك أمير الأمراء فأمر بحدة غضبه بقطع ذنب فرس القاضي ، وأمر بضرب كل من رآوا من جماعته . فوجدوا بعض^(٣) المنسويين الى القاضي من أعيان دمشق فضربهم ضرباً مبرحاً . فلزم أن كلاً من الباشا والقاضي عرض حاله مع صاحبه إلى العتبة العلية بقسطنطينية المحمية . فعزل الباشا عن دمشق واعطي عوضها سيواس . وعزل القاضي وأعطى عوضاً عن دمشق قضاء حلب .

(١) من هنا الى قوله المفتي ساقط من ه ، ب

(٢) ه ، ب « بتخريق »

(٣) ساقط من ه

وبعد سيواس تولى الحكومة بولاية بلاد الروم كلها وصار بعد ذلك
مُصاحباً للسلطان سليم بن المرحوم السلطان سليمان . وكان موصوفاً بلطف
المصاحبة ، وحسن المعاشرة . وصاحبَ المرحوم السلطان مراد أيضاً بعد
أبيه السلطان سليم ، واستمر على ذلك الى أن توفي وهو في منصب المصاحبة
للسلطان مراد رحمهم الله تعالى .

وبالجملة فلقد كان من الذين يفتخر بهم الزمان ، ويتهمج بهم الدوران ،
وتربته بقسطنطينية المحروسة رحمه الله تعالى .

٣٩

الأمير أحمد بن رضوان بن مصطفى أمير غزة

يوم تاريخه | سلمه الله تعالى |^(١)

هو الأمير الكبير ، صاحب القدر الحظير ، والجلود الغزير ، والعقل والتدبير . كان أبوه رضوان باشا من أكابر الأمراء بل وصل الى رتبة الوزراء في زمن السلطان [سليم ، وفي زمن السلطان مراد . وأما جده مصطفى باشا فإنه كان من كبار الأمراء في زمن السلطان سليمان]^(٢) وأرسل مرات الى فتح بلاد اليمن . ووقفت على مكتوب عظيم من السلطان سليمان إلى المطهر الحسيني سلطان اليمن وفيه تهديد شديد ، ووعد وكيد . وفيه أمر المطهر بأنه لا يخالف مصطفى باشا المذكور . ومصطفى باشا هذا هو المعروف (٤٩ ب) بين العرب في بلاد الشام بمصطفى أبوشاهين . قالوا لكثرة حمله للشاهين على يده عند الصيد .

والأمير أحمد صاحب هذه الترجمة رُزق من السعادة حظاً عظيماً وافراً ، ووجد من الحظ العظيم^(٣) ما كان له ناصراً . استولى على مملكة غزّة ما يقرب من ثلاثين سنة من غير عزلٍ يقتضي رحيله عنها ، ولا ذهابه منها . استوطنها فطابت له وطناً ، وسكنها فكانت له بالسعادة سكناً . وله أولادٌ نجبا ، وما منهم إلا من أشبه جداً أو أبا . وكلهم من بنت المرحوم درويش باشا صاحب المدرسة الدرويشية بدمشق الشام . ونخالهم

(١) ساقط من ، ه ، ب

(٢) الزيادة من ، ه ، ب

(٣) ه ، ب « الجسيم »

لأمهم حسن باشا الوزير ابن الوزير . وما منهم إلا من هو أمير ابن أمير ، وكبير ولد كبير .

فأمّا سليمان فهو نائب القدس الشريف في هذا الزمان .

وأخوه الذي دونه أمير نابلس في هذا الأوان .

وحاصل الأمر أنّ الأمير أحمد هذا وإن كان مقيماً على سبيل النيابة بغزة ، لكنه قريب من الوزراء في الهبة والعزة . عرضت عليه نيابة حلب مرات فما أرادها ، ولا ورد مرادها . لأنه يريد أن تكون غزة وطناً له ولأولاده ، ويجب أن تكون معدودة من جملة أملاكه وبلاده . فهو لذلك لا يزالها ، ولا يحول عنها بل يحاولها . واقد تولى إمرة الحاج الشريف الشامي فباشرها أحسن مباشرة . وحدث أفعاله للدنيا والآخرة . وأمّا خيراته على العلماء الذين في بلده ، وإحسانه للفقراء الذين في ناحيته فأمره بضيق عنه نطاق البيان ، ويكله عن بيانه لسان كل ملسان . طالما يسعهم في الأزمات ، ويمن عليهم بجزيل الهبات . وقد يحضر إلى دمشق في بعض الأعوام ، فيمن على من بها من العلماء والأمراء والأعوام ، وعمر بها بيتاً أذعن لحسنه أرباب البيوت ، لما حازه من اعظم الصفات والنعوت ، وهو في هذا التاريخ مقيم بغزة المحروسة يطرد عنها العصاة ، ويرد القطاع والبغاة . والقافلة المصرية بوجوده تجدد الأمن والإحسان . ولولاه لأخافها عصاة العربان .

وبالجملة فهو من محاسن عصرنا هذا ، وهو معدود من محاسن الدولة العثمانية . وقد انتشى في أيام امارته بغزة علماء وفضلاء سيأتي ذكر بعضهم إن شاء الله تعالى .

وفي سنة تسع بعد الألف أرسل الأمير أحمد المذكور الى باب السلطنة قصّاداً ونحفاً عظيمة . وصار أمير الأمراء ببعض المدن الكبيرة ، وتقاعد عن ذلك بإقطاع عظيم . وصير إمارة غزة باسم بعض أولاده رحمه الله . (٥٠٠ آ)

٤٠

صاحبنا الشيخ أحمد

المجاور يومئذ بالمدينة المنورة

أعلى ساكنها ألف ألف صلاة وألف ألف تحية^(١)

وهو رجل صالح فالح ، | وبالصلاح والعبادة معروف بين الأنام^(٢) |
ولما^(٣) وصلنا من مكة العظيمة ، الى المدينة المنورة المكرّمة ، في يوم
الاثنين تاسع المحرم الحرام سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، دخلتُ
المدينة متقدما على ركب الحجيج الشامي ، لأكتسب المبادرة الى زيارة
الجناب الرفيع | السامي^(٤) . فلما دخلتُ باب الشام صادفتُ قبل كل
أحدِ الشيخ المذكور . فحيّانا بالسلام ، فاستبشرتُ برويته ، وتبيّنتُ بطلعه .
فأدخل يده اليمين في كم يده الشمال . وأخرج منها وردةً حمراء كأنها
الشفق الأحمر ، عند بزوغ الفجر . كذب السرحان . وأعطانيها فرأيتها
خلقة عجيبة بارزة عن قدرة أبدية ، أزليّة غريبة . ولم يكن أحدٌ رأى
الورد قبلها في هاتيك^(٥) البلاد في ذلك الأوان . فتفاءلتُ بها وعلمتُ أن
أمورنا الى خير وسداد . وما فارقتُ مراقبة المشاهدة للحجرة المكرّمة في
تلك الأيام ، مدة إقامة الركب الشامي ، بل جاورتُ في سبيل المرحوم
أبي النصر السلطان قايتباي الذي كان سلطان الإسلام . والسبيلُ المذكور
على باب الرحمة مطلٌ بشباكٍ كبير على الحجرة الشريفة النبوية . على
صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

(١) ما بين الخطين القائمين ساقط من ه ، ب

(٢) ساقط من ب

(٣) ه ، ب « فعين »

(٤) ساقط من ه ، ب

(٥) ه ، ب « تلك »

٤١

الشيخ أحمد الصامتي المقدسي

هو الشيخ الصالح ، المعتقد الفالح ، البركة الصافي ، الصادق الوافي ، الشيخ أحمد بن المرحوم الشيخ عبد الكريم ابن المرحوم الشيخ موسى ابن الشيخ الصالح عبد المنعم الصامتي الأنصاري الحزرجي المقدسي .
الشيخ الذي روى الطريقة عن أبيه وجدته ، وشهدت له شواهد التسليم بسعادة طاله وجدته .

ورد الى دمشق الشام | من بيت المقدس |^(١) مرات عديدة ، وتورد اليها مدة مديدة . ومنها ورؤده اليها في أوائل سنة عشر بعد الألف . فدعوته الى بيتي في دمشق فأجاب الدعوة ، واكتسبت بصعبته الطف جلوة ، وسألتهم عن نسبتهم الى حضرة عبادة [بن] الصامت ، فذكر دلائل صحيحة صريحة ، وشواهد صادقة مليحة ، وأوفني على إجازة معه لبعضهم من حضرة القطب الرباني ، سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل فردوس الجنة مقبله ومشواه . فرأيت إجازة عظيمة متوجهة بحضرة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في أعلاها (هـ ب) كتابته : أجزت الشيخ الصالح ، السعيد الفالح ، الشيخ عبد المنعم لما علمت من صلاح حاله ، وصدق أقواله ، وطهارة أفعاله ، وما نسب إلي في هذه الإجازة عندي مقبول . والله تعالى هو المأمول . وأنا عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي وفقه الله ووفق به ، وهدى الناس الى الخير بسببه . إنه ولي ذلك والقادر عليه . وهو حسبي ونعم الوكيل .

(١) ساقط من هـ

وحال الشيخ أحمد المذكور حال الأولياء لأنه في غاية الصلاح . كان مرة في بعض حمامات دمشق ومعه صاحب له ، فغسل أثوابه في الحمام وطلع صاحبه قبله . فرأى غلامه قد هرب من الحمام | (١) فأخبر الشيخ المذكور بذلك . وقال : اخرج الى أن نفتش على الغلام الى أين هرب | . فقال : نعم سمعاً وطاعة . وطلع ولبس ثيابه ووضع ماغسل من الثياب على كتفه وهي رطبة ، فكان الماء يتقاطر منها على ثيابه ، وهو دائر بدمشق يسأل عن الغلام ولا يبالي بحالته ، ومتى قال له رفيقه : 'قم' ، يقوم . ومتى قال له : اجلس ، يجلس . وهكذا .

وأما أهل بيت المقدس فيعكرون عن أسلافه حكايات لهم في الكرامات وخرق العادات . ولهم حلقة ذكر في المسجد الأقصى وعلى ذكركم وسامة الصلاح ، ومبارق الفلاح . ولا سيما انتباههم الى حضرة عبادة بن الصامت ، لأن الامام النووي رضي الله عنه ذكر أن عبادة بن الصامت كان قاضياً (٢) .

(١) من هنا الى قوله « هرب » ساقط من .

(٢) لم يذكر النووي أن عبادة كان قاضياً . انظر تهذيب الاسماء واللغات ١ : ٢٥٦ رقم ٢٨١ ؛ وانظر ايضاً فضاة دمشق لابن طولون .

٤٢

المولى أحمد أفندي ابن محمد

قاضي دمشق الشهير بشيخ زاده بمعنى ابن الشيخ

قد ولي^(١) قضاء دمشق المحروسة من جانب سلطان الإسلام ، وملك ملوك الأتام ، السلطان أحمد ابن المرحوم السلطان محمد خان . أدام الله تعالى سعادته الى انقضاء الدوران . وكان وصوله الى دمشق في غرة شعبان سنة اثنتين وعشرين وألف . ولم يكن بدمشق حاكم سيف عند ورود القاضي المذكور ، لأن حاكمها الوزير الكبير أحمد باشا الشهير كان مخبياً تحت قلعة بانياس في قتال فخر الدين بن معن أمير الدروز^(٢) . ثم في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وألف ورد الخبر من باب السلطنة العلية بعزل القاضي المذكور^(٣) ، وكان قبل أن يصير قاضي دمشق مدرساً بمدرسة من مدارس دار السلطنة العلية وهي مدارس السلطان سليمان^(٤) وكانت مدة مكثه بدمشق سنة كاملة [من ابتداء شهر ربيع الثاني من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف الى ابتداء الشهر المذكور]^(٥) وولوه بعد الشام قضاء مكة المعظمة . وما كان صنعه بدمشق إلا تعبير

(١) من هنا ساقط في ه ، ب

(٢) الى هنا ينتهي ما هو ساقط من ه ، ب

(٣) هذه الجملة في في ه ، ب تختلف عما هي عليه هنا . وهذا نصها : « ورد الخبر

في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة في شهر ثلاث وعشرين بعد الألف من

باب السلطنة العلية بـسـطـنـطـيـنـيـة الحمية الى دمشق الشام حماها الله من حوادث

الأيام بعزل القاضي المذكور ... »

(٤) م « مدارس السلطانية »

(٥) الزيادة من ه ، ب

المدارس الموقوفة بدمشق (٥١ آ) وامثل الناس أمره في ذلك إلا القليل ،
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم لما تحقق عزله من دمشق رحل منها الى بيت المقدس ، وزار المعاهد
هناك [واقام قليلا]^(١) ثم توجه الى جانب مصر يريد أن يعبر منها الى
البندَر المعروف بالسويس ، ومنه الى مكة ، عظمها الله تعالى ، زائراً
وقاضياً . ولقد كان عازماً على الحج ولو لم يولِّ قضاء مكة . فاتفق أن
الأحكام السلطانية الأحمدية نفذها الله تعالى وردت إليه الى دمشق وكان
قد طلع منها . فاستأجروا له ساعياً أخذها ولحقه في الطريق . وكان الناس
قد أشاعوا موته في الطريق . ولم يصحَّ ذلك^(٢) . وكان في دمشق
مباشراً للقضاء بهمة وعزيمة صارمة . وكانت له عفة عن أموال الناس ، لكنه
كان ضيق العطن سيء الظن في الناس ، لاسيما العلماء . وكان يُبغض غالب
الناس ويظهر التقوى . ثم إنه يحكي عن موالي الروم قبائح غريبة . ولا
ندري هل هي مخترعة أم هي واقعة .

وكان يشتم الناس بقوله : بره عرب ، يورى أن الاتصاف بالعربية من
أكبر العيوب فيشتم بذلك . وكان تارة يزيد فيها : بره عرب طاط .
ولقد تسلط على صاحبنا الشيخ شمس الدين الميداني الشهير في دمشق
بابن الخنتوش تسلطاً عظيماً ، ولأزم ذلك غالب مدته في دمشق . وذلك
لأن الشمس المذكور متولٍ على أوقاف جامع بلبغا^(٣) الناصري .

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) ساقط من ه ، ب

(٣) انظر النعيمي ١ : ٤٢٣

٤٣

أحمد باشا الوزير الملقب بالحافظ

هو^(١) الوزير الكبير الحافظ لكلام الله تعالى العليم الخبير . | الذي تربى في حرم السلطنة العثمانية في قسطنطينية المحمية^(٢) | فنبغ أميراً ، وصار وزيراً . تقلب في الولايات ، ونال المراتب العليا ، بحيث انه جلس في منزلة الوزارة العظمى ، ونال المقام الأسمى . وسبب تلقبه بالحافظ انه حفظ كلام الله جل وعلا ، وقرأه بالروايات المتعددة ، وتلا ، وتولى مصر فباشرها أحسن مباشرة ، وطالت مدته بها ، ولما عُزل عنها رجع الى الأبواب السلطانية من طريق دمشق الشام ، وكان معه من الأسباب والتجملات ما يُستكثر على بعض الملوك . ونزل في دمشق في الميدان الأخضر^(٣) قريباً من العبارة السلطانية^(٤) . وكان أمير الأمراء حينئذ بدمشق مراد باشا الذي أُسِرَ في ديار العجم . (٥٦ ب) فتلقيه وأكرم نزله وأضافه ، وبالغ في رعايته ، حتى إنه قال له : يا أمير أنت ترحلني من دمشق بكثرة إحسانك ، فإنك قد أخرجتني بفضلك وأغرقتني بأمطار سحائب منك .

ولما رحل عن دمشق ركب الأمير مراد باشا لوداعه ، وكذلك عساكر الشام . ولما وصل الى الأبواب العالية بقسطنطينية جعل وزيراً ومشيراً . وهو في هذا التاريخ - وهو سنة تسع بعد الألف - قائم مقام الوزير الأعظم إبراهيم باشا . وذلك لأن حضرة السلطان الأعظم ، والحقان الأكرم ،

(١) انظر ولاية دمشق في العهد العثماني ص ٢٩

(٢) ما بين الخطين القائمين ساقط من ٥ ، ب

(٣) انظر مخطط دمشق القديمة لنا

(٤) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٥

السلطان محمد حفظه الله تعالى أرسل الوزير الأعظم ابراهيم باشا الى قتال الكفار في بلادهم . فلزم أن يكون له نائب من الوزراء ، فجعل الحافظ أحمد باشا المذكور قائماً مقامه ، يعرض الأمور المهمة على حضرة السلطان . ومن غريب ما اتفق أن الحافظ هذا لما أُصرف عن ولاية مصر وذهب الى قسطنطينية حسبوا مال الخزينة في أيامه فوجدوه ناقصاً بمقدار خمس مئة الف دينار ذهباً عيناً . فطلبوه منه فتعلل ، فعرض الأمر على حضرة السلطان فأمر بتعيين قاضي العساكر بناحية أناطولي ، وهو يحيى افندي الشهير بقوش يحيى ، ومعه مولانا حسن افندي الشهير بابن القتلي قاضي القضاة بمصر سابقاً ، ومعها عثمان افندي قاضي القضاة بمصر سابقاً لأجل سماع الدعوى على الحافظ المذكور ، بالمال المزبور . وكان المدعي رأس أرباب الدفاتر محمود افندي الملقب بفجل^(١) المزبلة ، لكونه وكيل حضرة السلطان فيما يتعلق بالأموال . فادّعى محمود المذكور على الحافظ بحضرة القضاة الثلاثة المذكورين وكانت الدعوى في مجلس الوزير الأعظم ابراهيم باشا . فجعل الكلام في الدعوى المذكورة ، الى أن اتفق قاضيان على إلزام الحافظ بالمال كله ، وهما يحيى افندي وحسن افندي وخالفهما في ذلك الثالث وهو عثمان افندي وقال : لا يسوغُ إلزام الحافظ المذكور شرعاً . فصدر بسبب المخالفة المذكورة القال والقيـل . وكتب القاضيان حجة بالإلزام المذكور . فعرض أحمد الحافظ الحجة على بعض العلماء في الروم . فقال له : ليس الإلزام شرعياً ، ولا هو مستوفياً للشرائط الشرعية . فعرض الحافظ هذا الحكم على حضرة السلطان ، نصره الله تعالى ، فكتب السلطان بخطه أمراً (٥٣ آ) للعلماء أن يكتبوا ما يعلمون في الحكم المذكور إن كان صحيحاً أو باطلاً . فكتب غالب علماء دار السلطنة على الحكم والإلزام بأنه باطل ، ولم | يستوف |^(٢) الإلزام شرائطه الشرعية . وتنوعوا في الكتابة ، وبالغوا في التشنيع على من حكم . فمن جملة من حكم عليه

(١) هـ « بجبل »

(٢) ساقط من هـ

أحمد أفندي بن روح الله الأنصاري المنفصل عن قضاء العساكر ، وكذلك محمد أفندي ولد الخوجا سعد الدين قاضي العساكر يومئذ بولاية الروم ، وأخوه أسعد أفندي المنفصل عن قضاء قسطنطينية . وكتب المولى عبد الحلیم أفندي المنفصل عن قضاء العسكر ، وكتب كل منهم عبارة بليغة لطيفة لكن بلسان تفهيم حضرة السلطان وبقية أرباب الدولة .

ولقد رأيتُ صورة الحجّة وصورة ما كتّبتَ عليها العلماءُ مفصلاً في دمشق صحبة بعض قضاة دمشق ، في سنة تسعٍ بعد الألف .
وانفصل الأمر عن أن الحافظ المذكور لم يُعطِ من المبلغ المذكور شيئاً لعدم وقوع الإلزام موقعه الشرعي .

والحافظ في يومنا هذا يتعاطى أمور الوزارة العظمى ، وعنده كمالُ الدقة في حفظ مال السلطنة ، حتى إن ناظر الأموال السلطانية بدمشق وهو مولانا وسيدنا محمد أمين الدفترى العجبي حفظه الله تعالى أخبرني أن الحافظ المذكور كتب دفترأ وأرسله إلى دمشق بأسماء جماعةٍ يُعطون في دمشق من الصدقات السلطانية ومنع من عداهم ، مع أن المنوعين في غاية الكثرة والاستحقاق ، ويكفيه ما في ذلك من قطع الأرزاق .

والحافظ أحمد صاحب الترجمة خادمٌ أبيض خصيٌ نحيفُ البنية خفيُّ الصوت عند النكلم ، لكنه مذكورٌ بالعقل الرزين ، والتدبير المتين . والله تعالى يقدم ما فيه الخير لنا وللمسلمين . أجمعين آمين .

٤٤

أحمد باشا الحافظ

هو^(١) الوزير الكبير ، صاحب القدر الحظير ، والجلود العزيز ، والالطف الذي ليس له نظير . ورد الى دمشق حاكماً بها من جانب سلطان سلاطين الاسلام ، وملك ملوك جميع الأنام ، حضرة مولانا الملك الأسعد الأجد ، المولى الأعظم السلطان أحمد . حمد الله أمره ، وشرح صدره ، وسهّل أمره ، وجمل ذكره . وطلع لاستقباله أعيان الأعلام ، وأكابر دمشق الشام . |^(٢) وكان الفقير من جملة مَنْ طلع إليه ، وَوَرَدَ عليه . فرأيتُه عالماً ذكياً ، وكاتباً سنياً . وسلك في دمشق الشام ، مسالك الصالحين من الحكام . وأحب^(٣) (٥٢ ب) أهل العلم وأحبوه ، وطلبهم وطلبوه . |

وكان وروده إلى دمشق [يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الثاني] في سنة ثمانى عشرة بعد الألف وقتل قبل قدومه الى نفس دمشق أمير الآلاي بدمشق وهو باكير الشهير بأبي سن . وكان قتله في قرية يقال لها النبك^(٣) .

ثم دخل بعد ذلك الى دمشق بهيبة عظيمة ، وخشية منه في النفوس كبيرة . [وفي يوم الأحد وهو الرابع والعشرون من شهر ربيع الثاني من شهر سنة ثمانى عشرة بعد الألف أمر الوزير الأجد الحافظ أحمد باشا

(١) في نص هذه الترجمة كما ورد في ه ، ب اختلاف في الترتيب عما ورد عليه هنا
(٢) من هنا الى قوله : بعد الألف ، ساقط من ه ، ب . وسأتي هذه الجملة بمعناها في مكان آخر مع وصفه طلوع السكر والفضة لاستقباله . والترجمة هنا تختلف في ترتيبها عما هي عليه في ه ، ب
(٣) قرية مشهورة تقع بين دمشق وحمص .

جميع عسكر دمشق بالخروج الى الميدان الأخضر بالجانب الغربي منها ، وأن يحمل كل واحدٍ منهم البندقية المسماة بالمكحلة قديماً لأنها سلاح مالك آل عثمان . وأن يحضروا بها الى الميدان المذكور . وأمر بوضع غرض يكون هدفاً للبندق . ونادى بأن المصيب للغرض منكم له بخشيش عشرة دنائير . فأول من أصاب الغرض منهم كنعان بلوكباشي الجرکسي . فأعطاء المبلغ المذكور . وهلم جرا .

فلما تم ضرب البندق أمر بلعب الخيل في الميدان المذكور . فاصطف الخيل فريقين . فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه من الدراهم . وعاد العسكر وهم في غاية الفرح من ذلك . والله موفق .

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من صفر الخير من شهر سنة تسع عشرة بعد الألف قدم الحاج وطلع لاستقباله الوزير الكبير الأجد أحمد باشا المذكور صاحب اية الشام . وكان القاضي يومئذ بدمشق السيد الشريف محمد الشهير بابن السيد برهان الدين الحسيني . وطلع بعمامة خضراء لاستقبال الحج . وكان يوماً مشهوداً طلع فيه غالب أهل دمشق . وكان الموكب عظيماً تزيتن فيه العسكر بالزينة العظيمة . وأما الوزير فإنه لبس الأبيض الأطلس بالفروة السمور . وكان وراءه نحو أربعين خاصكياً ما بين من طرّ شاربه ومن هو أمرد لا نبات بعارضيه . والكل بالرماح والأتراس المرصعة ، والتراكيش . الى غير ذلك من أنواع الزينة اللطيفة النادرة الوجود إلا عند أرباب الحظوظ والسعود . وكان أمير الحاج في السنة المذكورة فرّوخ بك أمير لواء قابلس المحروسة . وقد تعرّض للحاج شاب اسمه علي بن عمر من أمراء بني شاهين . وهو من أولاد أكبرهم . وكان حسن الشكل جداً ، ولا نبات بعارضيه . فلما تعرّض للحاج ساق فرسه ليضرب رجلاً من الجند بالرمح ، فضربه

رجل من أجناد غزّة بالبندقية ، فأصابت صدره ، فطلعت من ظهره ومات من ساعته ، وقطع رأسه . وكان ذا ذؤابة عالية . وورُفع على رمح يوم الدخول إلى دمشق . وكان الهواء يلعب بذؤابته كالغصن تتعرك عذباته عنه فوق اعتدال قامته [(١)] .

وأقام في دمشق الى يوم تاريخه وهو يوم الأربعاء العشرون من شهر ربيع الثاني من شهر سنة إحدى وعشرين بعد الألف .

وفي هذا اليوم المذكور بعينه ثار الجنود السلطانية بدمشق على جماعة أحمد باشا المذكور وقتلوا منهم نحو عشرين رجلاً ، وذلك لأن الجنود السلطانية زعموا أن رجلاً منهم كان سكران فركب فرسه ومرّ على باب دار السعادة (٢) ، وهي مقرّ الباشا المذكور ، ودخل إلى الدار المذكورة . فقتله من وُجد من جماعة الباشا المذكور . فثار الجنود لذلك . وقد اتفق رؤيتنا لجمعهم وثورانهم عند سوق المؤيدية (٣) تحت القلعة . وذلك أن حضرة الباشا المذكور دعانا إليه وهو بالميدان الأخضر لمصلحة تتعلق ببعض المشايخ ، ودعا صاحبنا عبد الحي افندي الكردي . فذهبنا معاً . فبينما نحن بالسوق المؤيدي وإذا بنوعائهم قد ارتفعت ، واجتمعوا نحو ثلاث مئة . فقلت لعبد الحي افندي : ارجع ، فإنّ الذهاب إلى الباشا غير مناسب . فرجعنا معاً ، وما ندري عاقبة الأمر والخير يكون ان شاء الله تعالى .

وفي رابع عشرين ربيع الثاني نهض الوزير الحافظ أحمد مع عسكر الشام وكبسوا التركان الخرقية ، وكانوا في حوران ، ونهبوهم . ولم يبقوا

(١) الزيادة من ه ، ب .

(٢) كانت جنوب سوق الأروام (مدخل سوق الحميدية) اليوم .

(٣) هي جامع المؤيد شيخ المملوكي في خان الباشا اليوم . انظر ذيل ثار

المقاصد ص ٢٥٦ .

من غنمهم إلاّ القليل . ووقع بينهم قتالٌ فقتل من جانب عسكر دمشق نحو خمسة رجال . وقتل من التركان كثيرٌ . وخاف الباشا المذكور من انتشار الفتنة فمكث أيتاماً بحوران يستعطفُ خواطر مَنْ لقيه من التركان . وذهب نهبهم هدراً . وما ندري عاقبة أمرهم في نهبهم . ولقد بلغني أنهم كانوا قد طفوا وبغوا ، وأتتهم كانوا يروعون زرع أهل حوران ، وكانوا يتباطئون في إعطاء مال السلطنة ، وربما منعوا الإعطاء بالكلية . فقابلهم الله تعالى على يد الوزير المذكور ، ولكل ظالمٍ ظالمٌ يفتقمُ منه . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفي أواسط جمادى الأولى إحدى وعشرين بعد الألف طلع حاكم دمشق الوزير المذكور أحمد باشا ومعه غالب عساكر دمشق (٥٣ ألف) إلى ناحية حلب باستدعاء الوزير الأعظم نصوح باشا . فإن الوزير الأعظم المذكور كان في ديار بكر ، فورد إلى حلب ومعه رسولُ ملك الشرق شاه عباس بالصلح بينه وبين سلطان الإسلام السلطان أحمد . ولما وصلوا إلى حلب استقبلهم أهلُ حلب ودخلوا بهيبة عظيمة وهيئة كبيرة ، ولم يبقَ أحدٌ من أهل حلب إلاّ وقد خرج إلى الفرجة عليهم . وبلغنا أنه صدر بين الوزيرين المذكورين مناقشةٌ أدت إلى منافسة ، وإلى برودة وركنة ، ويُقال إنه آل الأمر إلى الصلح .

وقد ذكرنا أنّ الحافظ أحمد المذكور كان في بداية قدومه إلى دمشق سالكاً مسالك الصالحين . ولكنه تغير وتكبر وتكثر . وأظهر صورة الكبر مقلداً الصورة في غيره من الوزراء^(١) .

وقد رجع عسكر دمشق وحاكمهم الحافظ أحمد باشا إلى دمشق وفارقوا حضرة الوزير الأعظم نصوح باشا من حلب . فأما الوزير نصوح

(١) « مقلداً لصورة ذاتة لغيره من الوزراء » .

باشا فاتته قد سار الى دار السلطنة قسطنطينية . وأما الوزير الحافظ أحمد فقد عاد إلى محلّ ولايته دمشق المحروسة . وبعد أيام نادى بالسفر إلى الجانب القبلي . وذلك لأنّ فروخ أمير الحاج قد التزم أن يضمّ له مع نابلس وعجلون والكرّك والشوّبك وما يتبع ذلك ، وأن يُعطى من جانب السلطنة ستين ألف دينار من الذهب ، ويقوم بالحجّ ولو ازمه ذهاباً وإياباً ، ويتعاطى الملاقاة أيضاً من عنده ، وعجلون والكرّك في يد الأمير حمدان بن أحمد بن قانصوه الغزاوي . فلزم سفر الوزير المذكور مع عسكر الشام لتخليص عجلون والكرّك من يد حمدان المذكور وتسليمها ليد فروخ بيك أمير الحاج . فيبقى حينئذٍ في يد فروخ ثلاثة سناجق : نابلس وعجلون والكرّك ، وهذا لم يتفق لأحد قبله في هذه الدولة .

ولما سافر العسكر الشامي من دمشق مع وزيرهم الحافظ أحمد المذكور نزلوا على الكسوة^(١) ، وساروا منها إلى شقحب^(٢) ، ثم إلى المزيريب^(٣) ، ولما سمع ابن قانصوه بسفر الوزير أخلى عجلون والكرّك ، وسار إلى الجانب الشرقي ، وأرسل إلى حضرة الوزير يقول : أنا عبدُ السلطان ومطيعٌ له . وقد امتثلتُ أمره في ما صنع . ورحلتُ عن البلاد فخذوها وأعطوها لمن أردتُم . وسافر وذهب مع العرب إلى جانب الشرق ، وأرسل مفاتيح الكرك إلى الوزير . وسار الوزير سلّمه الله تعالى على جبل عجلون . ويريد أن يرجع إلى دمشق لتأم المصلحة المطلوبة . وكان ذلك كته في رجب وشعبان (٥٣ ب) من سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، والخيرُ يكون إن شاء الله تعالى .

قلتُ : والحافظُ أحمد باشا صاحب الترجمة مقيم يوم تاريخه وهو يوم

(١) قرية كبيرة على الطريق بين دمشق ودرعا .

(٢) قرية في جنوب دمشق غرب مرج الصفر في حوران .

(٣) قرية في حوران . مشهورة بشلالاتها .

الثلاثاء ثالث شوال من شهر سنة إحدى وعشرين بعد الألف بدمشق ، وهو حاكمها ووزيرها ومدبرها ومشيرها . وقد صرف على أصحاب الجوالي بدمشق علوفاتهم قبيل العيد في أواخر رمضان من السنة المذكورة ، غير أنهم أبرزوا صورة دفتر فيه قطع وظائف كثير من أهل دمشق ، منهم من أعطوه نصف ما كان له ، ومنهم من قطعوا ماله بالكلية ، ومنهم من أبقوا له العشر أو الخمس ، ومنهم من أبقوه على ما كان له من غير تبديل ولا تحويل ولا تغيير ، وذلك حكمة الملك اللطيف الخبير . والفقير الحسن البوريني من الذين أبقوه على حاله ، وما قطعوا ماله ، ولا خيبتوا السعيد من آماله . ولعمري إنهم أفحشوا في قطع الأرزاق . [ولم يراقبوا الملك الرزاق]^(١) . وما أحسن ما كتبه الشيخ فلان لوالده شيخ الإسلام اسماعيل الشهير بابن المقرئ اليمني^(٢) . وقد كان قطع رزقه ، وأضاع حقه ، وعرتى من إحسانه عنقه :

لا تَقْطَعَنَّ عَادَةَ بَرٍّ وَلَا تَجْمَلْ عِقَابَ الْمَرْءِ فِي رِزْقِهِ
إِنَّمَا إِيَّامُ الْإِفْكِ مِنْ مِسْطَحٍ يَطُّ قَدْرَ النِّجْمِ مِنْ أَفْقِهِ
وَقَدْ جَرَى مِنْهُ الَّذِي قَدْ جَرَى وَعَوْتَبُ الصَّدِيقِ فِي حَقِّهِ^(٣)

وبالجملة فإن قطع الخشوم ، أسهل من قطع الرسوم . قلت : وقد بلغني أن الشيخ اسماعيل المقرئ رضى الله عنه كتب تحت هذه الأبيات هذا البيت وهو قوله :

لَوْ لَمْ يَتَّبِعْ مِسْطَحٌ مِمَّا جَنَى مَا عَوْتَبُ الصَّدِيقِ فِي حَقِّهِ^(٤)

(١) الزيادة من ه .

(٢) ه « وما أحسن ما كتبه شيخ الإسلام اسماعيل بن المقرئ اليمني لوالده » .

(٣) البينان ساقطان من ه ، مكانها فيها بياض .

(٤) ساقط من ه .

قلتُ : وقد سمعتُ من شيخنا أحمد ابن شيخ الاسلام البدر الغزي هذه القصة . وقال بعد ذلك : أنا نظمتُ بيتاً على لسان ابن الشيخ اسماعيل بصريح بالتوبة بعد سماعه من أبيه ما يدلُّ على طلبها وهو قولي :
تُبنا إلى الله وكلُّ امرئٍ يتوبُ قد بُورك في رزقهِ

قلتُ : وفي غرّة شعبان من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف نهض الوزيرُ الحافظ أحمد المذكور صاحب هذه الترجمة من دمشق ونزل في أوّل الجسور خارج باب الله ، وذلك لأنَّ ابن معن الدرزي الذي صار [إليه] سنجق صفد من باب السلطنة العثمانية العلية ، بقسطنطينية ، عظم شأنه (٥٤ ألف) وارتفع مكانه ، وبعُد صيته ، وكثرتُ أمواله . لانه تصرف في بلادٍ ما خطر في بالِ أحدٍ من الأمراء التصرف فيها . فكان متصرفاً في بلادِ كَفَر كَنَّة ، وبلادِ عَكَّا ، والساحل ، وصدف ، وبلاد ابن بشار ، وبلاد الشقيف ، وبلاد جيرة صَفد ، وتصرف أيضاً في بلاد بيروت ^(١) ، وبلاد صيدا ، وفي بلاد جبل كسروان ، وفي بلاد جبّة النيطرة ، وفي جبيل ، وأنطلياس ، والبشرون ، وفي الجرد ، والغرب ، والمتن ، والشوف ، والمقطيع ، والشحار . وتصرف أيضاً في البقاع العزيزي ، وفي بلاد بَعْلَبَك ، بسبب أنه حكم في البقاع وبعلبك الأمير يونس بن الحرفوش من تحت يده . فكانت في حكم بلاده . وتصرف أيضاً في بلاد صور ، والمعشوقة ^(٢) ، وما كفاه ذلك حتى انه جاء إلى قلعة شقيف وحصنها وجددها وأكدها وأطدها ، وشحنها بالأرزاق التي لا انتهاء لها ، وجعل بها من آلات الحصار ما لا يُعد ولا يُحَد . واستمرَّ في ذلك التحصيل والتحصين نحو عشرة أعوام . فتفطن له الأمراءُ والوكلاءُ ، فعرض ذلك الوزيرُ الكبير الحافظ الكامل

(١) جميع المدن الآتي ذكرها هي في لبنان . انظر عنها قاموس لبنان لوديع القولا هنا

(٢) في قاموس لبنان « المعشوق » .

الشهيرُ بالحافظ أحمد باشا صاحب إيالة الشام إلى باب السلطنة الأحمدية
بقسطنطينية . فلزم أن السلطان أحمد أيده الله تعالى عيّن لأخذ ابن معن
المذكور ، واسمه فخر الدين ، عساكر أناطولي وأمراء وأمرآة بلاد قرمان
وعساكرها . فوردت العساكرُ المذكورةُ إلى الشام واجتمعتُ بالوزير
المذكور على مقتضى ما رسم به السلطان أحمد أيده الله تعالى .

ولما وردت العساكرُ الرومية نهض بها الوزيرُ المذكور وقام من
دمشق وخيّم بالقرب من قرية الكسوة ، إلى أن وردت عساكرُ قرمان ،
وعساكر أدنه ، وعساكر حلب ، وعساكر أناطولي . فأقام الوزير
المذكور بهم وأحاطوا بقلعة الشقيف وسيأتي ما قرء عليه الحال .

وفي يوم الأربعاء وهو خامس عشر شهر رمضان من شهر سنة
اثنين وعشرين بعد الألف وردت الأخبار من العسكر المنصور وهو
محيطٌ بقلعة شقيف أرنون بأن المنجنيق والعرادات والطوب لم تؤثر في
القلعة المذكورة مع كثرة الضرب بها ، والجماعةُ المحصورون في القلعة
قسبان : قسمٌ من الأروام البغاة السكبان ، وقسمٌ من العرب الدرروز
المستحقين للقتل بإجماع المذاهب .

وفي يوم السبت الخامس (٥٤ ب) والعشرين من شهر رمضان
المذكور وردت الأخبار بأنّ النقب قد زاد في حائط القلعة المذكورة
ولكن اشمازت النفوسُ من هوائٍ بارد قد وقع في الوجود . وأخبرونا بأنّ
بلاد الشقيف يزدادُ بردُها فوق البلاد بمراتب كثيرة . وفي ذلك المعنى
ضرر كثير على المرابطين من عساكر دمشق في باب القلعة المذكورة .
وقد أخبرنا من نثق به من القادمين على دمشق من جانب المرابطين
أنّ فتحها متعسر جداً وقد هجم فصلُ الشتاء ولم يبق في فصل الحريف
إلا القليل . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد وقع الاجماعُ من القادمين إلى دمشق من جانب المرابطين أنّ

السعي في فتح القلعة إنما هو من جانب حسين باشا ابن حضرة يوسف باشا ابن سيف حفظ الله الأصل والفرع ، وأبقاهما جناحين للدولة الأحمديّة . ولقد أخبرني مَنْ أثقُ به أنّ حضرة حسين باشا السيفي المذكور يلبسُ في حال المجاهدة مع بُغاة القلعة عباءةً كما يلبسها بعض المجاهدين من آحاد الناس . وأنّ حضرة السردار الحافظ أحمد باشا خايط حسين باشا عندما شاهد منه تلك الرغبة في الجهاد :

هكذا هكذا وإلا فلا لا إن خبز السلطان مرّحّب عليك

وأخبروا أنّ هذا الكلام أَرْضِي بعضاً وأغضب بعضاً ، وأبوز من بعض الأعيان به حبّاً ومن بعضهم بُغْضاً . وبالجملّة فإنّ الفتح منه مطلوب ، وعليه النصر محسوب . والله تعالى كاشف الكروب ، وغافرُ الذنوب ، والمرجوّ من ربّ الأرباب ومُنزِل الكتاب ، ومعتقِ الرقاب ، ومهوّنِ الأمور الصّعب ، أن يجعل الفتح قريباً ، والنصر مقارناً لدعاءِ يكون له الإلهُ مجيباً .

وفي يوم الجمعة سادس عشر شوال من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف ورد الخبرُ من دمشق من القادمين من جانب العسكر بأنّ رأس العساكر أحمد باشا عيّن عسكرياً وجعل رأسه حاكم قرمان المسّي بمؤمن باشا . وكان من جملة العساكر المعيّنين الأمير بونس بن الحرفوش ، والأمير أحمد بن الشهاب . وكان من جملة العساكر المعيّنين الذين عيّنوا مع مؤمن باشا حضرة حسين باشا ابن يوسف باشا ابن سيف . وكان القصدُ من تعيين العساكر المذكورين أن يذهبوا إلى شوف (آ ٥٥) ابن معن لينهبوا وليقتلوا . فإنّ بلاد الشوف عاصية تبعاً لابن معن . فإنّ عصيانه قد تحقق من جهة أنّه عمّر قلائع وشحنها بالرجال والعُدَد والمؤن من غير إذن الأبواب العالية السلطانيّة ، وكذلك استخدم طائفة السكبان ، ولا شك أنّهم أعداء للسلطنة العليّة .

والحاصلُ أن العساكر السلطانية محاصرة لقلعة الشقيف ، ودهموها من الحصار بجبل غير خفيف . ولم تظهر علامة الفتح من البناء ، وارتفع الصلح لما قرره الباغي من القتال وعليه بنى ، وهم الآن عساكر غير منصرفة ، وما جرت إلا بحركات الفتح المؤتلفة ، وإن كانت مخالفة لهم الآن وليست منعطفة . فالفتح من لطف الله مطلوب ، وبه تنجبر من المؤمنين القلوب .

وأما العساكرُ التي عُيِّنت للشوف ، فإن عوامل العساكر قد عملت فيها عملاً جَدَعَ الأنوف ، وقطع السيوف ، وأبقى أهلها بها كالضيوف . وأبعدهم عن ساحتها بعداً غير مألوف . وعن قريب تضمحل مع أهلها ، وتبتلي بعد خصبها بمحلها ، وتنزل الرجال في غير محلها ، ويتركون مواطنهم وأماكنهم ويصبحون لا ترى إلا مساكنهم . فإنهم بلغوا من الشقاق مبلغاً عظيماً ، وأظهروا من العناد مظهراً جسيماً . فأحاط بهم البغي وعاقبته الوحشية ، وبواطنهم التي ليست بسليمة . وبالجمل فأنهم كما قيل : بنوا وعلتوا ، ومضوا وخلتوا . ما ذاك دام ولا ذا يدوم .

[وفي يوم السبت رابع جمادى الآخرة من سنة ثلاث وعشرين بعد الألف خرج عسكر دمشق تبعاً لأمير أمراءها الحافظ الوزير المذكور . وسبب ذلك أن الأمير فخر الدين بن معن لما هرب إلى بلاد الفرنج استقر إلى أوائل الشهر المذكور . فظهر الخبر إلى دمشق بأن الأمير المذكور ورد بأساطيل بحرية وخرج عند برج الدامور بين صيدا وبيروت . وشاع الخبر بأنه نزل على البرج المذكور وحاصره وأراد أخذه . فلذلك نهض الوزير الحافظ المذكور وخرج وخيم خارج دمشق ، في آخر الجسور ، في طريق الكسوة . وسكن خبر ابن معن بعد ذلك .

والذي صح من الخبر أن رجلاً من أمراء الدروز من جماعة ابن معن يُقال له يزبك ورد في ثلاث سفن وصعد إلى الشوف . وهي في الأصل مستقر ابن معن المذكور وأسلافه . ومهما صح من الخبر بعد ذلك يكتب .

وفي يوم الخميس خامس عشر رجب من السنة المذكورة دخل إلى دمشق رجل كبير يقال له مؤمن باشا . وهو حاكم بلاد قرمان من أولها إلى آخرها . ودخوله لأجل ورود الأمر المطاع السلطاني الأحدي إليه وهو في ولايته من ديار قرمان - ومركز دائرة البلاد المذكورة قونية - بأن يرسل بعساكر البلاد المذكورة إلى أن يحيط بدمشق . وبعد ذلك تجتمع العساكر المأمورة وينزلون قلعة الشقيف وقلعة بانياس . فإنهما الآن مغلقتان على جماعة ابن معن من السكمانية وغيرهم من الأتقياء . وقد ذكر كثير من ورد إلى دمشق من بلاد جبل الشوف أن الأمير فخر الدين بن معن قد رجع من بلاد الفرنج إلى بلاده الأصلية ، وهي بلاد الشوف . ولم يصح ذلك .

لكن قد ثبت أن الباشا المذكور ورد إليه في العشر الأول من رجب من السنة المذكورة خلعة ودبوس معظم ، وسيف مرصع بالجواهر ، ومع ذلك أوامر شريفة مطاعة أحمدية بأن يرسل من دمشق إلى حصار قلعتي الشقيف وبانياس . ومن الأوامر أن يذهب الوزير إلى بلاد ابن معن وأن ينهبها ويحرقها ، لأن ما كمل القلاع العاصية المذكورة من بلاد الشوف . فلو خربت من الأول لم يكن لأهل القلاع قوت يتاروت به .

وفي يوم الأحد ثاني شعبان من السنة المذكورة ظهر الخبر بدمشق أن الوزير الحافظ أقام من سطح المزة إلى جانب المكان المسمى بالعرداد ، بالعين المهملة والراء المشددة ، قاصداً إلى أن يجاوز المكان المذكور إلى البقاع العزيزي ، ومنه إلى بلاد الشوف ، شوف ابن معن . ومن الناس من يقول إن في نية المحاصر لتلعتي الشقيف وبانياس ، لا كمن حاصر الشقيف في سنة اثنتين بعد الألف وأذهب على حصارها النفوس النفيسة والأموال العظيمة ، ولم ينل منها بطائل ، ورجع منها يني نفسه إلى قابل . وها هو الآن مقابل [(١)] .

(١) الزيادة من ه ، ب

وفي يوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان ورد الخبر إلى دمشق بأن الباشا الحافظ أحمد باشا رجع من بلاد شوف ابن معن إلى أرض البقاع العزيزي ، ونزل عند قرية يُقال لها قبر عباس واختلف الناس في سبب رجوعه ، والذي صح منه أنه ذهب بالعسكر الدمشقي والعسكر الرومي والقرماني وغير ذلك من عساكر فلسطين إلى بلاد الشوف وأمر بحرق كثير من بلادها . فأحرقوا الباروك^(١) ، وهي قرية في بلاد الشوف عظيمة المقدار . وأحرقوا غيرها حتى دبت النيران في سهلها ووعرها ، ودنت من ساحل بحرها . وجاء إلى الباشا أناس أخبروه بأن قوماً من الدروز في وادي من الأودية ، وأن عدتهم قليلة ، وغنيتهم جليلة . فأرسل الباشا إليهم جماعة [ه ب] وبعضاً من عسكر السلطان الرومي ، وأمر عليهم واحداً يقال له مصطفى ، وكان كبير عسكر دمشق سابقاً ، وهو في اصطلاحهم يسمى آغا . فصدر من الفريقين حرب أفقت إلى إظهار الدروز والبغاة الطغاة أعداء الدين المهرب وولتوا . فأتبعهم عسكر الوزير ومن معهم إلى أن أبعدهم عن أسبابهم . ورجع العسكر ينهبون فرجعوا إليهم بعدما ثقلت أحمالهم . فقتلوا من العسكر كثيراً ، بل قتل منهم ما رجع منهم إلا القليل .

ثم إن حضرة الوزير أرسل حسين باشا ابن يوسف باشا ابن سيفا وكان جمال العسكر ، وبهجة الفرسان ، وعروس الخيل ، فبرز كالأسد المصور ، وصدم بعسكره الجمهور . وألقى نفسه بين الصفتين ونادى : لا أثر بعد عين ، أنا حسين أنا حسين ، وأمسك سيفه وأقدم وتقدم ، واجتهد وصمّم ، وضرب بالحسام ، وقلق الهام ، وقال لأسوده ، وأقسم على جنوده : بأن من التفت وراءه ضربت أعلاه : وأخذت ما فيه عيناه . فأقدمت أمامه الأسود المجرّبة ، وضربت بين يديه السيوف المحدثبة . وكان فضله يسوقهم ، وزجره لهم عن التادي يعوقهم . حتى حمت سوقهم ، وأسرعت إلى

(١) انظر قاموس لبنان ص ٩

فلق الهامات موقهم ، وهم يقدونه بالنفوس ، ويجرسونه بالرووس ، حتى انتصر على الطغاة الدروز ، وجيشه بلطف الله تعالى محفوظ ومحروز . وأحصيَ مَنْ قُتِلَ منهم فكان فرق العدد ، وفاتهم من الله ومن الخلق المدد . لأنهم ينكرون الشرائع ويجزأون ببراءة الحق الساطع . وعندهم كتب ناطقة والعباد بالله تعالى بأن الحاكم العبيدي المحدث رب معبود ، وبلعنون مَنْ خالفه من سائر الجنود . وهذا أمر يشهد به العيان ، وينظره مَنْ له عينان . ولقد شاهدتُ من كتبهم المصراحة بالكفر في غالب الصحائف . وعلمتُ بأنهم من أفبح الفرق النارية المذكورة في أخزي المواقف . ولعمري إنهم كانوا في عيشة ناعمة ، وبإهنية من حوادث الدهر سائلة . خنازير في جبال ، وكلاب نابجة كالأبطال ، فبغوا تبعاً لطغيهم ، واعتدوا بالعدول عن جادتهم ، وعادوا إلى معاداة الأمير الكبير ، ذي الجرد العزيز ، والضل الكبير ، واحتالوا حتى اقتلعوا منه بالخداع معاملة خزي (١) أعني حضرة يوسف باشا السيفي الشهير بان سيفا ، مَنْ لم يزل يجبر كثيراً ويكرم ضيفاً . ولعمري (٥٦ آ) إن يوسف السيفي رجل أمير ثابت الأساس ، طاهر الذيل عن جميع الأدناس ، أصيل نبيل ، آخذ في عروق ذي القربة بالحظ الجزيل . وقد كانوا أسلاباً في سبل المكارم سلكوا ، والكثير من ممالك الروم قد ملكوا . وهو حنفي المذهب ، واعتقاده كالطراز المذهب .

[وفي يوم الخميس خامس جمادى الأولى من شهر السنة الزبورية صدر من الوزير قصة في الديوان . وذلك أن مصلي صاحب صنجد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهو حمزة الرومي البكوكباشي ، الساكن في باب الجابية عند باب السبائية الغربي ، دخل الى الديوان بدمشق . فكلنه الوزير في أمر يتعلق بأمر قرى الشريف صاحب مكة ، وأنها في يد مصلي المذكور ، فردت عليه رداً غنياً يخالف الأدب . فاحتد الوزير

(١) في ديوان بليان . انظر قاموس لبنان ص ٢٠٢

واشتد ، وأمر بأن يُحبس في قلعة دمشق . فراجعه في ذلك أكبر الجاويشية ، وهو محمد الشهير بابن الدردار . فرفضه الوزير برجله في صدره وشمته ، وأمر بأخذ مصلي المذكور وحبه بالقلعة المذكورة . فحبس على مقتضى أمر الوزير المذكور . ولا يُدرى ما يُفعل به بعد ذلك . لله الأمر من قبل ومن بعد .

قلت : وآل أمره الى أن شفّع الشيخ محمد بن سعد الدين الجبائي ، الساكن في محلة القبيبات ، وكذلك أكبر العسكر الشامي عليه ليشفع فيه . فشفع فيه . وأطلق من القلعة . وهو على منصبه وزيادة .^(١) دخل الوزير المذكور ، أحمد باشا الشهير بحافظ أحمد باشا الثاني - فانه تقدّم في نواب آل عثمان رجل آخر يُقال له حافظ أحمد باشا - إلى دمشق نائباً بها من جانب السلطان الأجدد الأسعد ، السلطان أحمد ، ابن المرحوم المغفور له الغازي المجاهد السلطان محمد ابن المرحوم السلطان مراد ابن المرحوم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان ابن المرحوم السلطان سليم فاتح بلاد العرب . وهو الذي بنى السليمانية السلطانية بالصالحية ، وعمّر مزار الشيخ يحيى الدين بن عربي . وكان دخوله إليها يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الثاني من شهر سنة ثمان عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية . وطلع العسكر بتامه الى استقباله ، وكذلك قاضي القضاة بدمشق السيد محمد بن السيد محمد الحميدي . وطلع العلماء للسلام عليه في قرية حرستا^(٢) فرادى ومجتمعين . وكذلك طلع الشيخ محمد ابن الشيخ سعد الدين الجبائي للسلام عليه في القرية المذكورة ، ولم يكن من عادته الطلوع الى لقاء الحكّام ، لكنّ هذا الوزير لما وصل الى قرية عذرا أرسل بعض مكاتيب الى أكبر دمشق ومن جملتهم الشيخ محمد السعدي

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) قرية قريبة من دمشق ، من قرى الفوطة . انظر غوطة دمشق الكردعلي

المذكور ، و كنتُ عازماً على أن لا أطلع الى القرية للاقائه ، ولكن جاءني منه مكتوبٌ يتضمنُ السلام وعرضُ المحبة والوداد . فطلعتُ إليه فقام إليّ ملاقياً ، وصافحته في أثناء البساط ، عندما قام للقضاء إظهاراً للانبساط . وجلستُ عنده ساعة فوجدته متيقظاً ، وبالصواب متلئظاً . ووجدته عارفاً بشيءٍ من أشعار التركية والفارسية ، وبشيءٍ من علم العروض ، وبشيءٍ من علم العربية ، إلى غير ذلك من الفضائل والفواضل .

وسألني عن بعض مهمات بلاد الشام ، ورأيتُه متطوعاً إلى إنصاف الرعيّة .

ولما دخل طلع إليّ كلٌّ منّ في دمشق ، وأشعلوا له الأسواق بالشوع^(١) والسُرُج . وكان يسلمُ يميناً وشمالاً . ولقد رمقني في جامع مسجد القصب المنسوب الى ابن منجك ونظر (٥٦ ب) إليّ وتبسّم في وجهي . ولما اجتمعتُ به في دار الإمارة بدمشق ذكرني بالرؤية المذكورة والتبسّم المشار اليه . فدلّ ذلك على تيقظه وتفطّنه . وما هو الآن جالسٌ في دمشق والمطلوبُ من الله تعالى أن يوفقه للخير ، ويدفع عنه كل ضيّر . وقد نظمتُ له تاريخين أحدهما قولي :

بَعْدَلٍ وَفَضْلٍ قَدْ بَلَغْتَ مَرَامِكَا وَأَصْبَحَ هَذَا الدَّهْرُ طَوْعاً غَلَامِكَا
فَفَعْلُكَ مَحْمُودٌ وَاسْمُكَ أَحْمَدُ فَأَعْطَاكَ مَوْلَاكَ المَنَى وَأَدَامَكَا
وَمَذْشَمْتُ تُفَرِّ الشَّاهِ يَضْحَكُ فَرِحَةً لِأَقْبَالِكُمْ أَرُخْتُ نُورَ شَامِكَا

فقولنا : نورت ، شامكا ، بحسب الجمل عدده ألف وثمانى عشرة ، وهو عامٌ دخول الوزير المذكور الى دمشق . وفي نقت شامكا لطيفة مبنية على اللغة الفارسية . وذلك ان لفظه شام في لغة الفرس بمعنى الظلمة ،

(١) هـ « بالشوع »

وهي أيضاً اسم بلاد الشام . ففهم ذلك ونسبه على المعنيين عند قراءة ذلك .
والتاريخ الثاني وهو قولي ناظماً مدحه (١) :

صفى وإقبال وعز و دولة
وعدل يصون الكائنات ويحياها
بإقبال من قد صار الملك حافظاً
ومن بلغ الآمال أقصى أمانها
أنى لدمشق الشام والدهر جائر
فبالبشر حياها وبالجود يحياها
أنى نحوها غيتاً وغرثاً لأجل ذا
به أخضر واديا وعتر ناديا
وزير لسلطان الإقليم من علا
إلى أن قدانى عنه أعلى معاليها
غدا مالكا لا دم إذ هو أحمد
فقل في معالي يبتديها ويبتديها
وقد سعدت منه دمشق وأهلها
فأرخه بشر دمشق كأهلها
وذلك أن لظة بشر دمشق كأهلها
عشرة وهو موافق لعام دخوله الى دمشق .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر شهر رمضان من شهر سنة عشرين بعد
الألف دخل الحافظ الوزير المذكور آنفاً الى دمشق بمركب عظيم .
وركب في خدمته العسكر الشامي ولس اطلس فروة مهور عظيمة
القيمة ، وأمامه سبعة جنب عليها مروج من الذهب المرصع بالجواهر
النيسة . وكان ضعيف الجسد بالحصى . وكان قدومه من مدينة آمد
من العسكر الوزيري ، أعني الوزير الأعظم المرحوم مراد باشا .

لما كان يوم الجمعة ثاني جمادى (٥٧ آ) الأولى من شهر سنة تسع
عشرة بعد الألف صدرت بدمشق عجيبة وهي أن سيداً شريفاً من
السادات الحسينية الخادمين لمرار (٢) السيدة رقية الصغرى ، بمسجد الراس

(١) « مدح الوزير المذكور »

(٢) انظر ذيل تاريخ المقاصد ص ٢٢٩

بالقرب من باب الفراديس ، يُقال له جمال الدين ، كان يتعاطى بيع الفواكه في الجانب المذكور . فصلت الجمعة في اليوم المذكور وخرج من الجامع الأموي طاهراً متوضئاً فوقف في جانب حانوته ، وإذا بملوكٍ أبيض تجري كان شكله غابة لا تدرك على ما يُقال ، بل قيل إنه لا نظير له في الحسن وقف عليه وطلب منه بطيخاً أصفر . فتناول معه واختلفا في ثمن البطيخ . فيقال إن الشريف المذكور كلم المملوك كلاماً يتعلق بطلب ما لا يليق من الفاحشة . ولا أتحقق صحة ذلك . فضربه بسكتين كانت معه في لوحه ، وهرب المملوك ، فدخل الدم الى جوف السيد وشرع يخرج من أنفه وفمه . وطلب الماء فلم يسق خوفاً عليه . فوقع ، ولم يلبث أن خرجت روحه . فبادر بعض خدام العسكر إلى إمساك المملوك والسكين مشرعة في يده . فتعاضى عن الإمساك ، فتكاثروا عليه ، إلى أن أوثقوا كنانة . واجتمع الناس وأهل المقتول وذهبوا بالمملوك الى حاكم دمشق . وهو الوزير الحافظ أحمد باشا . فقال لأقارب المقتول : أيا السادات . إن كان للمقتول أولادٌ صغارٌ فالرأي أن يُباع المملوك ويزاد فوق ثمنه إلى أن يُربى الأيتام بالمال ، إذ لا شبهة أنهم فقراء . فبادروا بالصراخ وإظهار عدم الرضا . وكان السيد محمد بن عجلان النازل في بيت الرفاعي بمحلة الميدان نقيب الأشراف إذ ذاك . فقال : الرأي قتل المملوك حتى لا يُقال : مملوكٌ في الرق قتل شريفاً صحيح النسب ولم يُقتل به . أو يُقال : باعوا شريفاً مقتولاً ظمناً بقليل من المال . فلما صمموا على القتل قتل المملوك بالقرب من مصرع السيد المذكور . وذهب به مع بعد المناسبة المناسبة بينها . والله الأمر من قبل ومن بعد . وقد شاهدنا المملوك مطروحاً في الجانب القبلي من مزار السيدة رقية ، والسيد ممدد في نفس المزار ، والنوائح يتعفن عليه ، إلى أن دُفن السيد وبقي المملوك ليلة السبت الى الصباح ، ففُسل ودُفن في تربة مرج الدحداح . وتأسف الناس على شرف المقتول وعلي حسن القتال .

وقد أفتيت ' بأن' المماوك لا يسوغ قتله الآن فوراً ، لان الوارثين للتصاص - أعني أولاد السيد المقتول - صغارٌ ، ولم يبلغ اكبرهم أربع سنين ، فكان الواجب أن 'يحبس' القاتل الى أن (٥٧ ب) يبلغ الأولاد وهم بعد ذلك بالحيار ، إن شاؤا أخذوا القصاص وإن شاؤا أعفوا عنه وأخذوا الدية . ولكن سبق السيف' العذال ، وكلُّ عاملٍ فعليه جزاءٌ ما صدر منه من العمل . فإن القاتل قد فات . وصار في عداد الأموات . ولا 'ينفي' أسفٌ بعد فقد ، والله الأمرُ من قبلُ ومن بعد .

ثم في رابع شهر ربيع الأول سنة أربعٍ وعشرين وألف نهار الأحد المبارك دخل الوزيرُ حافظ أحمد باشا الى دمشق معزولاً .

وفي نهار السبت ثالث عشر الشهر المذكور خرج من دمشق وشيئته الأعيانُ ، وقد أُعطي ولاية أنطاولي . وأن يحافظ بعسكره بأرض الروم . ثم في نهار الاثنين المبارك خامس عشر شهر ربيع الأول سنة أربعٍ وعشرين وألف دخل متسلم محمد باشا السلحدار الجرکسي ، وشهرته بابن البالقجي ، ونزل عند حسن باشا الدفتري ، وعمل له سماطاً عظيماً ، وتعدتى عنده . ثم إنه ركب وجاء إلى عند القاضي المولى شيخ محمد أفندي جوي زاده ، وسجل حكم ولاية الشام في السجل المحفوظ على العادة ، وتوجه بعد ذلك الى دار السعادة .

وكانت مدة إقامة أحمد باشا الحافظ في ولاية الشام سبعة أعوام . وهجاه بعضُ الأدباء وفيها تاريخ عزله (١) :

قد فرّج الله همّ بلدنا من حاكم الجور بئس من حاكم
أخرج من جنة الشام فلا أوصاه الله غيرها سالم

(١) في ٥ ، ب « وأرخ عزله الشيخ عبد الرحمن المهدي بقوله : »

وزيرٌ وزيرٍ وحافظٌ لأذى لا أحمد الله ذلك الغاشم
كم سنٌ في الظلم سنّةً نقدا عليه في الدهر وزرّها دائم
وما سمعنا كسوء سيرته فما علينا وربنا عالم
سَبَعٌ شِدَادٌ بعدهن أتى عامٌ يُغاثُ الوري به خاتم
إن شئتَ تاريخَ نكبتِه يا صاح أرخه : أحمدٌ ظالم

وقال أيضاً بعضُ الفضلاء (١) :

حافظ أحمد في البرايا سنّ أنواع المظالم
في دمشق الشام حتى زاد في أخذ الجرائم
مذّأناه العزل قالوا : أرخوه : بان ظالم

(١) « ب » « وقال آخر »

٤٥

السلطان^(١) أحمد المنصور

الشريف الحسيني سلطان مراکش وفاس^(٢) وما والاها

هو السلطان العالم ، العامر لأهل العلوم | أرفع^(٣) | العالم ، الراعي لرعاياه ، الحامي لمن قصد حماه . ورث الملك عن إخوته وأبيه ، وطالت مدته فيه ، لفقد من ينازعه وينافيه .

أما أبوه فإنه مولاي محمد الشيخ . وكان من أمره أنه كان في بدايته من أهل العلم . وكان مجتهداً في تحصيل الكمالات . فاطلع على شيء من (٥٨٨) الجفر ورأى فيه أن طالعه يوافق الملك . فصار قاضياً في نواحي السوس من ديار الغرب ، ثم وثب على بني حفص المنتسبين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلم يزل يُقاتلهم ويُقابلهم إلى أن ملك ديارهم وعنى من السلطنة آثارهم .

وقتل كثيراً من العلماء . فمن جملة من قتل الشيخ الزقاق . وذلك لأنه كان يقول في خطبته : ومن قتل سوسياً كان كمن قتل مجوسياً . فلما أمسكه قال له : أنت زِقُّ الضلال . فقال : لا والله بل أنا زِقُّ العلم والهداية . فجعل عليه الكلام المذكور جنحة^(٤) وبه قتله .

(١) ب ، ه « مولاي السلطان »

(٢) ب « فارس » خطأ

(٣) ساقطة من ه ، ب

(٤) لها حجة

واستمر يؤسس قواعد مملكة الى اوان هلكه ؛ فتولى بعده من اولاده
عدة منهم مولاي عبد الله ، ومولاي محمد . ثم قتل بعضهم ومات
بعضهم . وانتقل الملك الى المذكور مولاي احمد المنصور ، ثبتت قواعده ،
وارتفعت معاهدته . وهو موادع لسلاطين الزمان ، آل عثمان فيرسل
اليهم الهدايا السنية في كل سنة . وهم يرسلون اليه المكاتب والخلع المستعنة .
حتى إن السلطان المرحوم مراد بن سليم كتب اليه في أثناء مكاتبته :
ولك علي العهد ان لا امد يدي اليك إلا لهصافة ، وأن خاطري
لا ينوي لك إلا الخير واليساحة . ورسله دائماً تأتي الى قسطنطينية
من جانب البحر ، ويمكثون زماناً طويلاً ، ويتعهدون الوزراء ، ويمسحون
القضاة والأمراء ، ويكاتبون من كان له قرب الى الدولة . ولقد رأيت
من مكاتبتهم جملة يكتبون في رأس المکتوب هكذا :

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ، ويتبعون ذلك
بعبارة فصحة ، وألفاظ ملبحة ؛ على قاعدة الملوك في الزمن الماضي .
ولم يحصل لأحد من اولاد مولاي محمد الشيخ ما حصل لهذا المنصور
المقصود في هذه السطور . فانه قد طالت في الملك مدته ، واتسعت
مملكته (١) ، وقويت شوكة ، وزادت عدته ، وعظمت عدته (١) .
فابتداء مملكه من حدود إفريقية الى حافة البحر المحيط . وبلاني أنه ملك
حصة من بلاد السودان . وقواعد الشريعة في ولايته ثابتة ، وأصول
الحقيقة في بلاده ثابتة ، يراعي العلماء غاية الرعاية ، وينظر الى وجوههم
بعين العناية . والشعراء يدحونه بمحاسن المدائح ، ويمنحهم أعظم المنائح .
وله اولاد قد فرقتهم في البلاد . فجعل الأكبر وهو مولاي الشيخ
(٥٨ ب) في فاس . وجعل زيدان وهو دونه في مكناس . وهو بنفسه

(١) سائط من ه

مقيمٌ في مرّاكش . وأمور دولته في غاية الانتظام . وبسوس الناس
بشريعة جده عليه الصلاة والسلام .

وله شعر حسن ، أنشدني له الشيخ حسين العتيقي المغربي هذه
الآيات :

لا ولحظٍ سلب السيف المضا وثنايا مثل درٍ أو يود
ما هلال الأفق إلا حائرٌ لضياها وبهاها والفيذ
ولذا أمسى ضئيلاً فأحلاً كيف لا يتخفى نحولاً من حسد

| وأنشدني له غير ذلك وفي هذا القدر كفاية . وبالله العنابة .
والحمد لله وحده | (١) .

٤٦

السلطان أحمد

هو السلطان الأجد ، والحقان الأسعد ، والخنودكار الأوحسد ،
ابن المرحوم المجد ، السلطان محمد ، ابن الماجد مالك البلاد ، المرحوم
السلطان مراد . ابن الملك الملك الكريم ، حضرة المرحوم السلطان سليم ،
ابن الغازي المجاهد لأعداء الأيمان ، الملك الأعظم السلطان سليمان ، ابن الفاتح
للأرض المقدسة بالسيف القاطع والعزم العظيم ، صاحب القرآن السلطان
سليم ، ابن الملك المانح للجنود الذي ليس فوقه مزيد ، المرحوم الوالي
الصالح السلطان بايزيد . ابن الفاتح لقسطنطينية دار الملك المخلد ، المرحوم
السلطان أبو الفتح محمد ، ابن السلطان الفريد في الملوك الأجداد ، حضرة
السلطان مراد ، ابن السلطان الأجد ، السلطان محمد بن الغازي الشهير ،
حضرة السلطان يلدزم بايزيد ابن المرحوم الغازي مراد ، فاز بلطف الله
رب العباد . ابن المرحوم المقتدر الى المنان ، المرحوم السلطان أورخان ،
ابن جدته الأعلى عثمان ، فاتح بيت السلطنة الباقية الى انقضاء الزمان .
| (١) ثم ملك بعده أولاده واحداً بعد واحد ، وولداً بعد والد ،
وماجداً بعد ماجد ، الى أن وصلت رتبة السلطنة العظمى ، وحصلت
منزلة الخلافة الكبرى ، الى الملك الملك الأجد ، والحقان الكامل الأسعد ،
صاحب الطالع الغالب السعيد ، ومالك الجيش المنصور بلا شك ولا ترديد ،
الساك في سبيل أجداده العظام ، وأسلافه الكرام ، بتعظيم العلماء الأعلام ،
واتباع شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، رابع عشر أولئك الأماجد ،

(١) من هنا الى قوله « توفي والده » ساقط من هـ ، ب

وبدرهم الكامل الواحد ، الملك ملك الأقاصرة ، (٥٩ آ) الكامر لصناديد
الأكامرة ، المولى الأعظم الأكرم الأوحده ، الحوندكار أحمد بن محمد | .
توفي والده السلطان محمد في سنة اثنتي عشرة بعد الألف من الهجرة
النبوية . وتاريخ سلطنة السلطان أحمد المذكور بالتركية : اولدي سلطان
زمين أحمد خان . والتاريخ المذكور قاله قاضي القضاة بدمشق الشام ،
في ذلك العام ، المولى معطى أفندي الشهير بعزمي زاده . بلغه الله
الحسن وزبده .

فلما ان والده توفي كان الوزير له في ذلك الوقت رجلاً من أمراء
الدولة يُقال له قاسم باشا . فأخفى الوزير المذكور موت السلطان المزبور ،
ودخل الى داخل بيت السلطنة ، وذكر لحضرة السلطان أحمد المذكور كلاماً
يقضي أنك تلبس السواد ، وتحضر في الجمع ، وتجلس على الكرسي ،
وإذا حضر أعيان العلماء أصحاب المناصب وأرباب الدولة من أكابر الوزراء
والأمراء فإنهم يقبلون يدك ويبايعونك على السلطنة على قانون آباتك
وأجدادك فقل لهم : كل واحد منكم يشي على طريقه المعروف ، وقانونه
المألوف ، ويعله منا كمال الشفقة ونهاية الرحمة .

فلما صدر ذلك ، خرج الوزير المذكور وأرسل وراء الأعيان من
العلماء والوزراء فعضروا وأخذ كل واحد منهم مجلسه ، فبعد هنيهة
راوا شاباً حسن الوجه ، رقيق الجسم ، تعلوه هيئة عظيمة ووقار جسيم .
فجاء حتى جلس على كرسي السلطنة ، وعليه ثياب سود ، ومثرت من
العروف على رأسه ، على عادة آل عثمان في ما يلبسون عند موت أحدهم .
فلما جلس علموا أنه السلطان وتيقنوا أن والده السلطان محمد قد مات .
فقاهاوا وقالوا ما هو العمود ، وقبلوا يد السلطان أحمد . وحدثهم بما
عهد اليه به الوزير قاسم باشا . وانقضى المجلس على ذلك .
وشرعوا بعد ذلك في تجهيز السلطان محمد ، وأخرجوا جنازته إلى محل
دفنه في التربة التي أنشأها لنفسه .

وكان لسلطان محمد ولده أصغر من السلطان أحمد . فلما حضرته الوفاة قالوا لولده السلطان أحمد : لا تقتل أخاك حتى يصير لك ولد يصلح أن يكون سلطانا .

وقد بلغنا أنه في يوم تاريخه وهو يوم الاثنين تاسع ذي القعدة من شهر سنة تسع عشرة بعد الألف أن أخا السلطان أحمد المذكور حي باقي ، وأنه محفوظ في أماكن (٥٩ ب) مستورة لا يجتمع معه فيها إلا الموكثون بحفظه .

وما أنا أذكر من محاسن هذا السلطان أحمد ما يوجب له الدعاء الجزيل ، والثناء الجميل .

أما أولاً فإن السلطنة في زمن أبيه كانت قد قاربت الزوال ، ووصلت إلى رتبة ليس معها للبقاء مجال . ونحكت بها طائفة السكبان ، وملكوا غالب النواحي والبلدان . حتى إن خزينة مصر قدمت إلى الشام ومكثت نحو أربعة أشهر في ميدانها الأخضر الغربي ثم رجعت إلى مصر ولم يستطع من معها من عسكر السلطان ولا عسكر دمشق أن يوصلها إلى مقر السلطنة قسطنطينية .

وبما صدر في زمن أبيه أنه خرج في زمنه حسين باشا الذي كان حاكماً في بلاد الحبشة . ولخروجه أسباب بطول الكتاب بذكرها . فأفسد وجبى الأموال من البلاد ، وأحرق بعض النواحي من بلاد قرمان ، ونواحي أناتولي ، وقتل وسبي وأسر بعض النضاة ، واستمر في غلوائه حتى وصل إلى مدينة الرها ، وبها العاصي الذي أسس بناء السكبانة هو عبد الحليم الشهير باليازجي . فلما وصل إلى المدينة المذكورة التقى صلاتن صائلان ، واجتمع ثعبانان منثعبان . وأبرز كل منهما لآخر حكماً يشهد بأن آل عثمان قد أمروه بقتل الآخر . وقد اتفقا على المخالفة لآل عثمان دفعة واحدة ، ونزلا في قلعة الرها وتحالفا على أن لا يتخالفا .

فلما شاع خلافهما ، وثبت عن الطاعة انصرافهما ، عُيِّنَ السلطانُ نصره
الله تعالى لقتالهما الوزير الامجد محمد باشا الوزير ابن المرحوم الوزير الأعظم
سنان باشا ، وانضمَّ اليه عساكرُ الروم وعساكرُ الشام وحلب ، وغيرُ
ذلك . فرجع الأمرُ الى ضيافة اليازجي عبد الحلیم حسين باشا المذكور .
فأرسل يطلب رهناً من العسكر السلطاني على أن يدفع حسين باشا لهم .
فأرسلوا اليه من عسكر دمشق كنعان الجرکسي ، وهو من أعيان عسكر
دمشق ، وباكير دوادار حاكم دمشق ، أعني خسرو باشا الخادم ، وجماعة .
فأذعن لإعطاء حسين باشا . فلما تيقن حسين باشا أن اليازجي قد خانهُ ،
وما حمل الأمانة ، النفث إليه وقرَّعه ، ولغليظ الكلام سمَّعه . وقال له :
من يعتمد على مثلك فله هذا الجزاء ، بل هذا له أقل ما يستحق من الإجزاء .
ولما أخذت العساكرُ السلطانية حسين باشا ، مالت العساكرُ الدمشقية
الى ترك اليازجي عبد (٦٠ آ) الحلیم في قلعة الرها ، لأنَّ العهد هكذا
صدر معه . فغضب لذلك السردار محمد باشا ، وعرض ذلك لحضرة السلطان
محمد ، ولولا لطف الله تعالى لذهب رأس حاكم دمشق وهو خسرو باشا
الخادم الطواشي .

واستمر عبدُ الحلیم اليازجي عاصياً حتى عُين عليه الوزير حسن باشا
ابن الوزير المرحوم محمد باشا مع عساكر السلطنة العثمانية بأمرها . فالتقوا
بجميع البغاة وكبيرهم عبد الحلیم اليازجي وأخوه حسن في مكان يُقال له
البيستان وهو في نواحي مرثش . فاقتتلوا هناك . فأرسل الله تعالى
النصر على عسكر السلطان . فكسروا عسكر البغاة وقتلوا منهم ما يزيد
على أربعة آلاف .

ثم إنَّ اليازجي مات في قصة يُقال لها مسموم . واجتمع البغاة
بعده على أخيه حسن ، وكان أشجع من أخيه عبد الحلیم . فلزم أن
حسن باشا الوزير المعين لقتال البغاة أرسل عسكراً من جماعته نحو

خسماية رجل ، أرسلهم الى مدينة آمد ليأتوا بنسائه وحظاياها . وكانت أمواله كثيرة لا تُضبط بالأعداد . ولو رام ضبطها ألف عداد ، بحيث أن البغاة لما كسروا العسكر المعين للابتيان بالنساء والأموال لم يقدروا على تحميل غير الذهب والفضة والعزير من اللبوس ، وأما ما عدا ذلك من أحمال الشاشات الهندية ، والتحف الرومية ، والمكمخات الفرنجية ، فقد ألقوا فيها النار ، وجرت من ذهبها المذاب الأنهار . وقتل من بها من المقاتلين . وأما النساء والحظايا فإن منادياً كان ينادي من جهة كبير البغاة ، وهو حسن أخو اليازجي ، بأن من مد يده الى امرأة قُطعت . وجههن بالأمانة والسيانة الى حسن باشا بالمدينة التي يقال لها توقات .

فلما وصل الخبر الى حسن باشا بكسر جماعته وأخذ أمواله وقتل رجاله ، كادت روحه تخرج قهراً ، وجسده يذوب قسراً . والعجب أن الحارجي حسناً بذلك ما اكتفى ، وداء جسده بجسده ما استفى ، حتى أنه جاء الي الوزير المذكور على حين غفلة ، ليلة عيد الأضحية الى توقات وأرسل إليه يطلبه للمقابلة ، ويستدعيه للمقاتلة ، فخرج إليه حسن باشا ومن معه من العساكر فما ثبتوا قدام البغاة لحظة واحدة وكسروا كسرة شنيعة ، وخذلوها وأخذوا أخذة فظيعة . وهرب حسن باشا الى قلعة توقات . وما رفعوه إلا بالأحبال القويّات . وهجم العدو على المدينة بأسرها ، وصارت عساكر (٦٥ ب) السلطان مع البغاة في أسرها ، ما عدا الوزير حسن باشا مع بعض الخواص ، فإن اعتقاله في قلعة توقات كان أقرب أسباب الخلاص .

ولما تحققت الكسرة ، وحقت على عسكر السلطان ساعة العسرة ، أغلقت أبواب القلعة والعدو الباغي يحفشها ، وجنوده الباغية يرتبها ويصفها . فاتفق أن صبيّاً جميلاً يُقال له درّتي ، كان قد نال من الوزير حسن مقاماً حسناً جليلاً ، ضرب صبيّاً من صبيان خزينة حسن باشا . فنزل المضروب الى المدينة وخالط البغاة وعساكر الضلال . فقالوا له : أنت جاسوس . فقال : بل أنا ناموس . ثم حكى لهم ما صدر من درّتي من

ضربه له ، وأنه ما جاء إلا مُصادقاً لهم مصاحباً مرافقاً . فقالوا له : إن كنت صادقاً في مقالك فأين يجلس الوزيرُ حسن باشا في القلعة ؟ فقال لهم : إنته يجلسُ دائماً في هاتيك القرنة وراء هاتيك الدفوف . فجاء رجلٌ من البغاة وجلس تحت القرنة التي عيَّنها الصبيُّ وفي يده بندقة متضمنة لرصايتين ف ضرب بها ، فجاءتُ للقضاء المقدَّر تحت إبطِ الوزير حسن باشا . فمات لساعته ، واستمر مستنداً الى الجدار لا يعلم أحدٌ حاله . والعجبُ أنه استمر من الصباح الى الظهر والناسُ يظنون أنه حيٌّ ساكن . فبعد ذلك أشرفوا عليه قد مات ، وهو يابسٌ جالس . فثار من القلعة واضطربوا ، وماجوا وهاجوا ، وفرح العدو ، وجاء الهدوء . وسار وتقرَّب من جانب قره حصار ، بل شتى بها .

ثم إن جماعةً قرَّبوه الى خاطر السلطان محمد ، وقالوا له : هذا حسن يقنعُ بمنصبٍ في بلاد روم ايلى . فأعطوه مدينة ديشوار ، وهي في أقصى مدن الاسلام ، ، ومنها بداية ولاية الكفر .

فدام حسن الخارجي أخو اليازجي الى أن قدر الله عليه المخالفة بينه وبين أهل مدينته . فأخرجوه منها . فذهب الى مدينة بلغراد . فوضعه حاكمها في القلعة مكرماً في الظاهر محبوساً في الباطن . وعرض أمره الى السلطان فأرسل أمراً الى حاكم بلغراد بقتله . فقطع رأسه ، وطفئ نبراسه .

وخرج بعد ذلك على السلطنة علي باشا ابن جانبلاذ حاكم كلز وعزاز . ووصل الى أن جرَّ العساكر وقاتل عسكر السلطان على حماه . وكان سرداد العساكر يوسف باشا ابن سيفا التركماني حاكم بلاد طرابلس . فلما وقعت المصافاة غلب جانب السرداد ابن (٦١ آ) سيفا ، فرت العساكر الشامية وانتصر ابن جانبلاذ انتصاراً قوياً ، بحيث أنه لم يُقتل أحدٌ من جماعته . وقد نقل لي من كان في صحبة ابن سيفا أنه رجع ومعه أربعة من جماعته . فلما مرَّ على عمه الأمير محمود بن سيفا حاكم بلاد حصن

الأكراد قال له عمه : يا مولانا ! انزل حتى نكون في خدمتك . فقال له الباشا يوسف : والله يا عمي بئس الرجوع رجوعنا . ذَهَبْنَا بِالْأُلُوفِ وَرَجَعْنَا مِنْفَرِدِينَ . فقال له عمه : هكذا حكم الله .

ثم إنه بات ليلة في حصن الأكراد وأمر ابن عمه درويش بن حبيب على العسكر الذهاب الى بلاد طرابلس . فهرب ابن سيفا في البحر وأخذ أمواله وغالب أهل طرابلس من كان يخاف على نفسه أو عياله أو ماله فذهب وذهب معه من ذكرناه من أهل طرابلس .

فأما يوسف باشا فقد دار في البحر الى أن وصل حيفا . وهي على طرف البحر ، في بلاد اللجون ، تحت حكم الأمير أحمد بن طرباي . فاستجار الأمير يوسف بابن طرباي المذكور . وصدر من ابن طرباي في حقه مروءة عظيمة لأنه خرج اليه ومعه مال يكفي أمرآء آل عثمان سنين عديدة ، ومعه خمسة وعشرون رجلاً بغير سلاح . فطلع من السفينة فوجد نحو ألف فارس كل واحد منهم يتلمظ عن الموت السريع ويهتز طرباً . فقال له الأمير أحمد ، عند إقباله : مرحباً بالعم العزيز ورجاله . وتربة والدي طرباي لو كان عندي مال لقد منته اليك ، ووضعته بين يديك ، ولكن جهد المقل دموعه ، وكرم البدر على الأرض طلوعه ، هذه الخيل المسومة غاية ما أقدر عليه ، ونهاية ما توصلني قدرتي اليه . فخذها ولك المنة ، ولا تشن الى غيرها الأعتة . فإنها أخوات ربح الشمال ، بل هي النسيم يسري في الصبح والآصال ، تخلفه من كريم ، فتكون الآن لكريم .

وقد كان ابن جانبلاد وابن مَعْن قد أرسلوا إلى الأمير أحمد المذكور أن فلانا قادم اليك بجمعه القليل وماله الوفور . فخذ رأسه واقطع أساسه ولك المال وعلينا الرجال عند القتال ، فقال : حاشا و كلاً لا يتنزل الى الدنيئة من كان على مولاه كلاً . هذا ضيفي ، ودونه غرار سيفي

أنا أحمدُ بن طرباي الشهير الذي ليس له في العرب والعجم من نظير .
والولدُ سرُّه أبيه من (٦١ ب) خلقه تأتبه .

ثم إنته قال لِحضره يوسف باشا السيفي : يا عم دونك رأسي ورحي
وسيفي ، فطِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً ، ولا تخف من وعدي كذباً ولا
مَيْناً . وقدتم الى يوسف باشا ، ما أرادَه من المال وماشا . ومكث
عنده ثلاثة أيام ، وليس له عنده فيها سوى الإكرام .

وعزم يوسف باشا على الدخول الى دمشق الشام ليستحصن بها عند
عساكر الاسلام . فقام معه مَنْ هو عنده نزيل ، وساراً الى دمشق
ومعها عسكر جرّار ثقيل ، واقتتل ابن جانبلاذ مع العسكر الشامي ،
وانضم ابن سيفا مع العسكر الشامي في مكانٍ يقال له العراد بالقرب من
دمشق ، في جهتها الغربية ، فما مكثوا مقدار تسخين الماء في القِدْر إلا
وقد وقعت الكسرة على العسكر الشامي وولّوا هاربين راهبين ،
وتركوا دمشق بمن فيها وما فيها ، اللهم إلا قليلاً منهم . فإنتهم مكثوا
على الأبواب يُقاتلون ، ولو أراد ابن جانبلاذ أخذ دمشق لأخذها من
غير تعب ، ولكنه سلّط العساكر السكبانية الباغية الذين معه على دمشق ،
فذهبوا خارج سورها ، ونهبوا ما حولها من القرى إلا قليلاً ، واستمر
النهبُ ثلاثة أيام ، وكانت أياماً عصبية .

ولما قام ابن جانبلاذ في قرية المزّة خرج اليه حسن باشا الشهير بشوَرِيره
حسن ، وقطع على دمشق مئة ألف قرش وعشرين ألف قرش على ان
يأخذها ويقوم ، والذي صدَرَ صدَرَ ، والنهبُ يُسامح أصحابه به ،
فَقَبِيل ، وكانت هذه القروش التي هي مئة ألفٍ قد أعطاهها له يوسف
باشا ابن سيفا حتى افرج عنه أهل دمشق ومكثوه من الهرب عن دمشق
الى بلاده . فإنته كان مخفياً داخل السور . وقال له أهلُ دمشق : لولا
أنت لما قصدنا ابن جانبلاذ ، فإنه ليس له معنا عداوة ، وعداوته معك

ظاهرة ، فأعطي المبلغ المذكور . وكان في ذلك حكمة بالغة . أراد الله بها صيانة دمشق .

فلما 'جهزت' إليه ، واشتري له ما أراده بعشرين ألفاً زائدةً على مئة ألف قرش من 'سكّر' و'بن' وغير ذلك ، قام عن الزّرة في اليوم الرابع . وكان أهل دمشق يرون من الموائد صور المشاعل تشرق من بعيد وهو ذاهب ، وفتحت دمشق ، ودخل من كان خارج سورها من الساكنين فيه عرايا حيارى ، سكارى وما هم بسكارى ، وكانت واقعة هائلة (٦٢ آ) .

واستمر ابن سينا هارباً الى حصن الأكراد ، وبه تحصن . ثم إن ابن جانبلاذ مرّ على البقاع ومرّ على أرض بعلبك ، ونصب خيامه تحت حصن الأكراد . وأرسل الى حضرة يوسف باشا السيفي يطلب منه المصالحة على المصاهرة بأن يتزوج ابن جانبلاذ بنت الأمير يوسف بن سيف ، ويتزوج ابن سيف بنت الأمير ابن جانبلاذ . فدار الكلام بينها وسعوا في الصلح . فاتفق الحال على ذلك مع مالٍ يحمله ابن سيفاً الى ابن جانبلاذ . فاتفقوا على ذلك وأرسل ابن سيفاً أكلاً ونفائس وسكراً وغير ذلك من اللطاف ، وسار الأمير ابن جانبلاذ الى حلب ومكث بها . وكانت سكبانيته تزيد يوماً ما واشتهر أمره ، وشاع مكره ، وقوي الى الغاية ، وتمكّن من أعوانه الى النهاية .

إلى أن ورد الوزير الأعظم مراد باشا الى قسطنطينية وتشاور الوزراء معه في شأن المذكور فكان شورته أن يذهب الى المذكور ، وهو بحلب ، وأن يسعى في إزالته وقهره . ففعل ذلك . وورد الى حلب وانتزعها من أعواد ابن جانبلاذ .

وهرب ابن جانبلاذ الى أن آل أمره الى دخول قسطنطينية المحمية ، واجتمع بحضرة السلطان الأعظم الأجد الأوحّد ، الأسعد ، حضرة السلطان أحمد ، وحكي له قصته وأبدي له غضته ، فقبل عذره ، وشرح بلطف

الوعد صدره ، وأعطاه إمارة مدينة بلاد في روم ايلي يُقال لها دمشقوار .
ولم يزل على حكومتها إلى أن عرض له أمرٌ أوجب قتاله لرعايا تلك
الديار ، ولزم أنه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم ، فعرض أمره على
باب السلطنة الأحمديّة فبرز الأمرُ بقتله وعدم إخراجه من تلك القلعة .
فقتل وأرسل رأسه إلى باب السلطنة . وذهب بيت الأمير جانبلاذ مفراً
شعاعاً ، وصاروا بعد أن كانوا حكماً محكومين رعايا .

والموجودُ منهم الآن ولدٌ صغيرٌ يخدمُ في داخل بيت السلطنة يُقال
له مصطفى ابن المرحوم أمير الأمراء حسين باشا ابن جانبلاذ ، ورجلٌ
آخر كبيرٌ يُقال له حيدر بك . وحيدر هذا مقيمٌ الآن في قسطنطينية
على زيّ الفقراء الدراويش ، وبقية نسائهم في بلاد حلب ، وأحوالهن
ضائعة . إلاّ أخت علي بك ، صاحب الاسم الذي أوجب فساد البيت
بأمره ، وصيرهم بعد إطلاقهم من الضيم في أسره ، فإنها في حباله نكاح
أمير الأمراء الكرام ، حسين باشا الحاكم بإيالة طرابلس (٦٢ ب) الشام ،
ابن الأمير الكبير أمير الأمراء وظهير الوزراء ، حضرة يوسف باشا واليها ،
تنسبُ كلُّ امرأةٍ من بيت جانبلاذ وتأوي إليها . وأما بيوتهم في حلب
الشهباء فقد أصبحت فاسدة الانباء ، وهبّت بها الريحُ بعد أن كانت
شمالاً نكبا . نزلت عروشها بعد أن كانت عالية ، وأصبحت بعد التوطن
خالية ، أنكرت السكّان واستوحشت من القُطّان . ذهب عنها الأنيس ،
وفقدت بالوحشة وصف التأنيس . كأنّ النعاب ، أنشد فوق الأبواب

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ إلاّ اليعافيرُ وإلاّ العيسُ

وأنشد ، من إلى الاعتبار أرشد ، للشريف الرضي :

ولقد مرّرتُ على منازلهم وطلولها بيد البليّ نهبُ

فوقفت حتى هجّ من أنبٍ نضوي وضجّ بهذليّ الركبُ

وَتَلَفَّتْ عَيْنِي فَمَذْخَفِيَتْ
عَنِّي الطَّلُوبُ تَلَفَّتْ الْقَلْبُ

وَمَا أَنشَدْتَهُ نَمَّةً ، بَعْدَ أُمُورٍ عَجِيبَةٍ جَمَّةٍ :

أَيُّهَا الْبَابُ لِمَ عَلَاكَ الْكَتُّابُ
أَيْنَ ذَاكَ الْحِجَابُ وَالْحِجَابُ

ولولا ما يتضمنه هذا الشعر من الإكرام ، الذي لا يليق ببغبي القوم اللثام ، لأنشدتُ هذين البيتين ، وأجريتُ دمع العين ، وهما قول من قال وأجاد في المقال :

عليك سلام الله من منزلٍ قَفَرٍ
لقد هجرت لي شوقاً شديداً وما تدري

عهدُك منذ شهرٍ جديداً ولم أخلُ
صروف الردي تبلي مغانيك في شهر

ولعمري لقد رأيتُ القاعة التي زعم أهلُ حلب قاطبة أنها عمّرت في خمس سنين ، وُصِفَ على عمارتها خمسون ألف دينارٍ من الذهب . ولم يعرف القوم قبل ذلك ما ذهب عليها من فضةٍ أو ذهب . ولعمري لقد حَسُنَ أنْ ينشد في حقِّ هذه القاعة :

وقالوا بنى بالظلم للظلم قاعة
وعمّا قليلٍ تلتقيها مرّخه

قلتُ : وقد حَجَجْتُ في سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، وُسُلِطَ على السلطان أحمد ، ونظمتُ منازلَ الحجِّ في قصيدةٍ نائية . وكان صاحبُ مكة وما يليها السلطان إدريس بن حسن ابن أبي نُمَيٍّْ بن بركات الحسيني . وكان خطيب بلادهم يدعوا لحضرة السلطان أحمد أولاً ، ثم للشريف إدريس المذكور ، ثم للشريف محسن بن حسين ابن حسن بن أبي نُمَيٍّْ . وكان إدريس المذكور يعترف بالعبودية الكاملة لحضرة سلطان البسيطة السلطان أحمد ويكتب في (٦٣ آ) أسفل عرضه إليه : المملوكُ إدريس بن حسن الحسيني لطف الله به آمين .

٤٧

السلطان أبو يزيد

ابن المرحوم السلطان سليمان ، ابن السلطان سليم خان ، ابن المرحوم السلطان أبي يزيد ، ابن المرحوم السلطان محمد فاتح قسطنطينية . هو الأمير أبو يزيد . كان والده السلطان سليمان - روتحه الله في غرف الجنان - قد فرّق أولاده الثلاثة في البلاد . وهم السلطان مصطفى ، والسلطان أبو يزيد ، صاحب الترجمة ، والسلطان سليم . فلما طالت مدة والدهم السلطان تَحَرَّك كل واحدٍ منهم الى السلطنة . فأما السلطان مصطفى فقد أخذ خزينة مصر وهي مقبلة من مصر ذاهبة الى جانب الروم وقال : هذه نفقة أمي . وكانت أمه معه في بلده .

وأما السلطان أبو يزيد فقد تحارب مع أخيه السلطان سليم على باب قونية ، ووقعت الكسرة على أبي يزيد فولّى هارباً الى جانب ديار العجم . ومرّ من جانب بغداد الى أن وصل الى بلاد شاه العجم . وهو شاه طهماسب ولد إسماعيل شاه قزلباش ، واستأذنه في الحضور إليه الى قزوین فأذن له في ذلك . ولما قرّب الى قزوین طلع الشاه الى استقباله ونصب أوطاقه خارج قزوین ، وتلاقيا على ظهور الخيل . ولم يكن عند الشاه عسكر كثير . وكان مع الأمير أبي يزيد ما يزيد على عشرة آلاف رجل . فقال له رجل من كبار جماعته ، يُقال له قطز فرهاد : اسمع من شوري وافتل الشاه ، فإنك تصير مالكاً لديار العجم ، وربما تتوصل الى أن تملك ديار الروم أيضا . فما أقدم أبو يزيد على ذلك . فلما اجتمع

الشاهُ أظهر له الشاه كمال الخضوع والانقياد ، وأنزله في مكانٍ قريبٍ منه .
وعلم الشاه أنه لا يستطيعُ دفاعه إن نوى له غدراً لكثرة مَنْ معه .
فشرع في تفريق عسكره في البلاد كلها . وكان يُرسل الى كل بلد جماعة
ويأمرُ أميرُ تلك البلد أن يقتلهم . ولم يزل على ذلك حتى أفنى جميع
عسكره . ولم يعلم أبو يزيد ما جرى لهم ، وبقي هو في منزله وليس
معه سوى الأولاد الصغار الذين يخدمونه . واستمرَّ على ذلك مدَّة .
وكان قليلَ الاجتماع بالشاه على كثرة ركوب الشاه اليه .

وأخبرني مَنْ (٦٣ ب) أثقُ به ممن كان حاضراً ناظراً لجميع ما
صدر بينها أن الشاه كان يدعو أبا يزيد الى البستان ، وكان يأخذ الفواكه
الحسنة ويضعها على يديه ويمدُّها إليه ليأكل منها . فكان يأكلُ منها
ما اختار ، ولا يتكلم ولا يتواضع ، مع الشاه ، ولا يقولُ له شيئاً .
فلما تكرر ذلك منه أرسل اليه يُعاتبه ويقولُ : أنا مثل أبيه ، وأعرضُ
عليه الفواكه بيدي فيأخذها ولا يتواضعُ معي بكلمةٍ واحدةٍ أبداً .
فأرسل اليه أبو يزيد يقول له : أما التواضعُ فشيءٌ ما دخل بيتنا ولا
نعرفه إلا مع الله تعالى الذي هو خالقُ الخلق وباسطُ الرزق ، فإن كان
الوالدُ الشاه يعرف ذلك فليعلمني حتى أستعمله معه عند الإكرام . فلما
سمع الشاه ذلك تغافل عنه . واستمرت الوحشةُ تزيد بينها إلى أن نوى
أبو يزيد على أن يتدارك ما فات وهيات هيات . فنوى أن يضع للشاه
السُّمَّ في الطعام . وذلك أن الشاه خرج الى بستانه في أيام الفواكه ودعا مَنْ
عنده من أولاد السلاطين . والأمراء ، وكان عنده نحو سبعة من أولاد السلاطين ،
ولكن كان أبو يزيد أكبرهم وأعظمهم . فلما حلُّوا في البستان قال الشاه : ليطنخ
كلُّ واحدٍ منا طعاماً يعرفه على طريقة بلاده ، وقصد بذلك الانبساط معهم .
فوضع كلُّ واحدٍ فوطهً واتزرَّ بها وشرعوا في الطبخ على ما يعرفون من الأساليب .
فنوى أبو يزيد على أن يضع السُّمَّ للشاه في طعامه . فشرع بذلك رجلٌ

كان من جماعة أبي يزيد ، ولكنه كان يأنس بالشاه ويختص بمصاحبه . فأشار الى الشاه وأعلمه بما نوى عليه أبو يزيد ، فأسرع الشاه في الذهاب من البستان ولم يأكل من الطعام . فتعجب الحاضرون من ذلك . فلما اطلع أبو يزيد على ذلك قتل ذلك الذي وشى به الى الشاه بأنه يريد أن يسمه في طعامه . فلما علم الشاه بقتل الرجل عاتب أبا يزيد على ذلك . فقال أنا قتلتُ خادمي ، والانسان إن قتل خادمه لا يعاتب فيه . فأضمر له الشاه الضغينة في نفسه ، وطلبه يوماً إليه ، فكأته أحسن بالسوء فتعلل في الخروج كثيراً ، ثم ذهب مكرهاً . فلما دخل عليه قام من مجلسه وأمر بالقبض عليه . فسارع عسكر الشاه الى القبض على أبي يزيد . فلما شرعوا في ذلك قال (٦٤ آ) قطز فرهاد للسلطان أبي يزيد كلاماً معناه : ما سمعت من شوري ياصبي لما أشرت عليك بقبضه فذق طعم الأمر ، هذا جزاء من خالف النصيحة .

فلما تم القبض عليه حبسه في بيت بستانه الذي داخل سراياه . وأرسل الى والده السلطان سليمان يخبره بالقبض عليه . فأرسل السلطان سليمان يقول للشاه : أقتله أو أرسله إليّ حياً . فقال : لا أقتله ويبقى لك عليّ دم سلطان عظيم ، ولا أرسله إليّ حياً لاحتمال أن تغفو عنه ويصير سلطاناً فلا تبقى له هم إلا الانتقام مني ومن أولادي لكوني أهنته وقبضت عليه ، ولكن أنت أرسل إليّ من خواصك من يقتله حتى أسلمه اليه .

فاضطر عند ذلك السلطان سليمان الى قتله . وخاف من انتشار الفتنة إن بقي سالماً ، فأرسل اليه جماعة وكبيرهم خسرو باشا الذي كان حاكماً في مدينة وأن ، وحكم بغداد والشام مرتين . وأرسل مع خسرو المذكور بمالك يعرفون أبا يزيد حق المعرفة خوفاً من إخفائه وإظهار غيره للقتل ، وقال لخسرو : إذا ظهر عليك ولدي في مكانك ، فانظر إلى المالك الذين معك . فإن قاموا وبادروا في الحال الى الوقوع على رجل ولدي ويده فاعلم أنه ولدي ، وإلا فهو غيره .

فلما وصل إلى قزوين طلب الشاه من خسرو باشا تمسكاً بنخط السلطان وختمه بأنه قد أذن له في تسليم ولده لخسرو باشا يقتله . فأعطاه التمسك بذلك كما طلب . ثم أدخله إلى داخل البستان الذي فيه أبو يزيد وهو معه . فلما وقع نظراً المالك على مخدمهم وابن مخدمهم بادروا بالبكاء عليه ووقعوا على يديه ورجليه يقبلونها . فقال لهم خسرو باشا : ما بالكم فعلتم هكذا ؟ فقالوا : كيف لا وهو مخدمنا السلطان أبو يزيد . فعلم عند ذلك أنه هو ، فسلم عليه . فقال أبو يزيد : يا لاله ! أنا أعرف سبب قدومك إلى هذه البلاد . ولكن أمهاني لأصلي ركعتين وأطلب لي أولادي لأنظرهم ، فإن لي نحو سنة ما رأيتهم . فقال : حباً وكرامة . فتوضأ وشرع في الصلاة . فما أمهله حتى فرغ منها ، بل بادر إلى الأمير بخنقه قبل حضور أولاده . وكانوا أربعة أكبرهم أرخان وكان من أحسن خلق الله صورة . أخبرني من رآه أنه ما وقعت عينه على أحسن منه شكلاً ولا ألطف صورةً . (٦٤ ب) فحضر أولاده فوجدوه قد قضى عليه . فشرعوا في خنق أولاده إلى أن بقي منهم واحد صغير فدخل تحت ذيل الشاه وقال له : يا أبت . اعتقني أنت ، فقال له : نعم . ثم غمز عليه فقتلوه أيضاً . وجهتوا أجساد الجميع وأرسلوهم إلى ديار والدهم السلطان سليمان . فلما وصلوا أمر السلطان بدفنهم .

وبلغني أن السلطان سليمان سأل عن لباس ولده أبي يزيد ، فقال له خسرو باشا : يا مولانا السلطان . كان لباسه الصوف الفستقي ونحته المتقالي الأزرق . قال : فبكى السلطان سليمان وقال : قبّح الله طهباسب ما أقبل مروءته ! أما كان يوجد عنده ثوب مُذهب يُلبسه لولدي . ولكن الذنب لولدي حيث أوقع نفسه في يد عدو في الدين والدنيا . وبلغني من الثقات أن شاه طهباسب أرسل يقول للسلطان سليمان : أنا راج منك أن نحسن إليّ لكوني تكلفتُ على ولدك وعلى أولاده

وعلى جماعته وخدمه . فأرسل له السلطان سليمان ست كرات كل كورة
مئة ألف دينار ذهباً . وكتب له مع الدراهم ورقة بخطه ترجمتها
بالعربي هكذا .

شاه طهماسب بهادر . أصلح الله شأنه .
نعله بعد السلام أن " مملوكنا حسنًا قد أخبرنا أن لك طعمًا في
إحساننا . وقد رسمنا لك من مالنا بأربع كرات ، ومن مال ولدنا
سليم بكورة واحدة ، ومن مال وزيرنا رستم باشا بكورة واحدة أيضا .
فالمجموع ست كرات .

والعجب أن السلطان سليمان يعتقد أن الدراهم أرسلها صدقة ،
والشاه يعتقد أنها تاج . ولعمري إن جميع الناس عابوا على طهماسب ما
فعله مع أبي يزيد ، فإنه ضيفه ، وقد خاناه ، وأخذ ماله ، وقتل
رجالاه ، وآخر الأمر أمسكته وحبسه ، وقصر في لباسه وفي خروجه ،
وأخذ أجره على إتلاف ضيفه . وحاصل الأمر أنها معدودة من قبائحه ،
ومحسوبة من أعظم فضائحه . نسأل الله تعالى أن يعصنا من الزلل في
القول والعمل .

وأرسل أبو يزيد الى الشيخ منصور الدمشقي المعروف بخطيب السقيفة
رجلاً حمله اليه ليسأله عن أمر السلطنة هل هو له . فأجابه بهذين البيتين :

مَدِكُ الْمُلُوكِ إِذَا وَهَبَ لَا تَسْأَلُنَّ عَنْ السَّبَبِ (٦٥ آ)

اللَّهُ أَعْطَى مَنْ أَرَا د فَكُنْ عَلَى نَهْجِ الْأَدَبِ

وكان قتل أبي يزيد المذكور في (١) .

٤٨

المولى ^(١) أبو السعود أفندي

عليه رحمة الرب الودود .

هو المولى العلامة ، الكامل' الفهامة . شيخ' الاسلام على الاطلاق ، ومفتي الدهر بالاتفاق ، الذي اشتهر صيته في الآفاق ، وبرع على علماء عصره وفاق .

كان والد' المذكور شيخاً صوفياً ، وعالماً تقياً . جمع بين المرتبتين ، وحاز الفخر في الطريقتين . وصار معلماً في العلوم والهداية الربانية لحضرة السلطان أبي يزيد ولد حضرة السلطان الغازي محمد فاتح قسطنطينية المحمية . ونشأ ولده المولى أبو السعود صاحب' هذه الترجمة طالباً لمراتب العلوم السامية ، رامقاً بطرفه المنازل الرفيعة العالية ، فحصل من الفضائل ما أراد ، وحاز من العلوم مرتبة الأفراد . بحيث أنه صار ابتهاجاً في وجه الدولة العثمانية ، وابتساماً في ثغر السلطنة السليمانية ، فاق وبرع ، وإلى أرفع المواطن ارتفع . كانت الدولة تباهي به الملوك وتفاخر به افتخار الملك على الملوك . والعجب أن غالب ما رأيناه من قضاة دمشق من تلامذته ، وكلهم ينتسبون الى حضرة ، ويتشرفون بنسبته ، ويرجعون في المناصب الى ملازمته .

أخبرني منهم المولى الكامل كمال الدين محمد الآتي ذكره في حرف الكاف إن

(١) ه ، ب « المولى المفتي »

شاء الله تعالى أن شيخه المولى صاحب الترجمة ما ذاق طعم العزّل في حياته ، بل استمرّ يتنقل في الولايات من ولاية مدرسة الى مدرسة ، ومن منصب الى منصب ، الى أن تولى قضاء العسكر ، وبعد ذلك تولى منصب الفتوى بقسطنطينية العظمى .

وكانت له حشمةٌ وافيةٌ وحرمةٌ باهرةٌ ، وقوة بين أمثاله قاهرة . بحيث أنه كان محطّ الرّحال ، ومرجع الرجال ، ونتيجة الآمال . باهت به الدولة وافتخرت به الجملة . بحيث أنه كان يأمر فلا يخالف في أمره ، ويطلب فيعطى ما طلب مع أداء حمده وشكره .

روينا عن الثقات أن حضرة المرحوم السلطان سليمان سأل المرحوم المولي ابن كمال باشا وقال له : لو فرض أنك كنت في زمن المحقق التفتازاني أو في زمن المدقق السيد الشريف الجرجاني ما كنت تكون لهما ؟ (٦٥ ب) فقال : لو كانا في زماني لجملاي الغاشية . فاستكثر السلطان منه ذلك وأنكره في باطنه ولم يُجيبه بجوابٍ بعدها . فبعد ذلك بمدة سأل المفتي أبا السعود صاحب هذه الترجمة عن السؤال بعينه ، فقال في الجواب : كنتُ أكونُ تلميذاً قابلاً . فاستحسن السلطانُ منه هذا الجواب . وقال له : أنت صاحبُ الرأي والصواب . وخلع عليه سموراً كبيراً يساوي ألف دينار ذهباً . وقد أُعطيَ حظاً عظيماً في عمره بحيث أنه ما أصيب بشيء من مواد كاله .

وكان له ثلاثة أولاد محمد وأحمد ومصطفى .

فأمّا محمد فصار قاضياً بدمشق في حياة أبيه . وكان متساهلاً فيما يجب لمنصب القضاء من التحجّب والصيانة . وعزّل من الشام وأُعطيَ حلب ، فما رضى بها ومات بها .

وأما أحمد فقد كان غايةً في العلم ، ومات مدرساً ، ولم يصر قاضياً . وأما مصطفى فإنه كان أصغرهم . واستمرّ حياً الى سنة ثمان بعد الألف .

ومات في السنة المذكورة قاضياً بعساكر الروم . وكان أصغرهم وأقلهم
علماً ، ولكن كانت الدولة تراعيه لمكان أبيه من الرفعة .
ولما كان ابنه محمد قاضياً بالشام كتب إليه من القسطنطينية مكتوباً
ينصحه فيه ويحذره من الرشاء في قضاؤه . وكتب له في المكتوب هذين
البيتين وأظنها للفارسي المصري :

أَلَا خُذِ الْحِكْمَةَ ^(١) مَنِّي وَخَلِّ الْقَيْلَ وَالْقَالَا

فَسَادُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا قَبُولُ الْحَاكِمِ الْمَالَا

والعجب أن المفتي المذكور ألتف تفسيراً عظيماً مقبولاً عند الخاص
والعام . وعبارته غاية في الفصاحة والبلاغة . وأما محافظته على العبارات
الفصيحة ، والمعاني البليغة المليحة ، فذلك أمر قد وقع عليه الاجماع ، ولم
يقع فيه اختلاف ولا نزاع ، ولقد لظمت مطالعته ، وداومت مراجعته .
وأنا الآن ألقيه في مجلس درسي التفسيري بالجامع الأموي وغالب تحقيقه
وقع في أوائله . وأما النصف الثاني فغالبه عبارة البيضاوي ، ولا يزيد
غالباً إلا بعض النكت المتعلقة بالبلاغة .

ولقد تفرّد بشيء في تفسيره جزاء الله خيراً الجزاء ، وهو أنه يتقيّد
غالباً باعتماد الوجه الذي يناسب سياق النظم الكريم وسباقه ، ويسلك
غالباً الإيضاح لمعاني كلام الله عز وجل .

وحاصل الأمر أنه كان نزهة (٦٦ آ) زمانه ، وابتهاج عصره وأوانه .
افتخرت به سلاطين آل عثمان ، واعتقدوا وجوده توريداً في وجنة الدوران ،
وابتساماً في ثغور الزمان .

وكان مع ذلك محافظاً على الورع والديانة ، مثابراً على التقوى والأمانة .

(١) ب ، ه « حكمة »

مع أنه ما دخل ديار العرب ، بل كان يتنقل في المناصب بديار الروم من منصب الى منصب .

وله القصيدة المشهورة المبيحة التي يشكو فيها الزمان ، ويتوجع لاندراس معالم العلوم ، ويتألم لفقد قواين الموالي بديار الروم . ومطلعها :

أَبْعَدَ سُلَيْمِي مَطْلَبٌ وَمَرَامٌ وَدُونَ هَوَاهَا لَوْعَةٌ وَغَرَامٌ

وَهِيَّاتٍ أَنْ يَتَنَى إِلَى غَيْرِ بَابِهَا عَنَانُ الْمَطَايَا أَوْ يُشَدَّ حَزَامٌ

هِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى فَإِنْ فَاتَ نَيْلُهَا فَكُلٌّ مِنَ الدُّنْيَا عَلَيَّ حَرَامٌ

إلى أن يقول فيها :

تَقَطَّعَتِ الْأَسْبَابُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَلَمْ يَبْقَ فِينَا نَسَبَةٌ وَلِثَامٌ

فَلَا هِيَ فِي بَرَجِ الْجَمَالِ مَقِيمَةٌ وَلَا أَنَا فِي عَهْدِ الْمَجُونِ مَرَامٌ

فَمَا كُلُّ قَوْلٍ قِيلَ عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ وَلَا كُلُّ أَفْرَادِ الْحَدِيدِ حَسَامٌ

ومنها :

وَكَمْ عُسْرَةٌ مَا أُوْرَثْتُ غَيْرَ عُسْرَةٍ وَرَبَّ كَلَامٍ فِي الْقُلُوبِ كِلَامٌ

أَجْدُكَ مَا الدُّنْيَا وَمَاذَا نَعِيمُهَا وَمَاذَا الَّذِي تَبَغِيهِ وَهُوَ حَطَامٌ

تَشْكَلُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ بِشَكْلِ مَا يَعَانِدُهُ وَالنَّاسُ عَنْهُ نِيَامٌ

فَعَزُّ بَهُونٍ وَالْهَوَانُ بَعِزَّةٌ تَذِبُهُ فَمَا تَيْكَ الْحَيَاةُ مَنَامٌ

مَحُوتٌ نُقُوشُ الْجَاهِ عَنْ لَوْحِ خَاطِرِي فَأَمْسَى كَأَنْ لَمْ يَجْرُ فِيهِ قَلَامٌ

أَنْتُ بِالْأَوَّاءِ الزَّمَانُ وَذُلُّهُ فَيَا عِزَّةَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ سَلَامٌ

وله قصيدة أخرى يشير فيها الى الدوام المطلق لله تعالى ، وثبوت

القناء لمن سواه . وهي قصيدة حسنة في بابها . ومطلعها :

مقالة الحق عز قائمها مركزة في النهي دلائلها
قوية لا ترى لها عوجاً لا قدم الله من يجادلها
ظاهرة للحجى دقايقها واضحة عنده جلائلها
تجيب عن كل نكتة سُئلت بعير خلف فأن سائلها (٦٦ب)
سريّة الحق غير خافية على أريب وذاك كافلها
طف بالبلاد التي قبواها ملوك عصر وقف نسائلها
أين الذي اختطها ومصرها وأين معارها وعاملها
من شق أنهارها وعمرها ومن له حفرت جداولها
وأين سلطانها وسوقتها وأين أشرافها وخاملها
قل للمصانيع أين صانعها وللأفاعيل أين فاعلها
خرت على عرشها قواعدها وفرقت حوله جنادلها
تجيبك عما سألت مغربةً عن الشؤون التي تحاولها
تروي أحاديث أمة سلفت راوية لا يرد قائمها
ومنها :

فهل رأيت العروش قائمةً من بعد ما هدمت أسافلها
تطوي يد النائبات دفترها طي سجل فمن يساجلها

فيا لها من مُلِمَّةٍ نَزَلَتْ إنَّ الدُّنْيَ جَمَّةٌ نَوَازِلُهَا
والدَّهْرُ صَعْبُ المِخْطُوبِ مَنْكَرُهَا ومَشْكَالُ النَّائِبَاتِ هَائِلُهَا
لَا يَأْمَنُ الغَدَرَ مَنْ يُسَالِمُهَا وَلَا يَرَى النُّصْرَ مَنْ يُنَازِلُهَا
فَلَا يَغْرَنُكُمْ زَخَارِفُهَا وَلَا يَضْرِبُكُمْ شَوَاعِلُهَا
وَكُلُّ مَا فِي الوجودِ مِنْ نَعَمٍ إِمَّا تُرَايِلُكَ أَوْ تُرَايِلُهَا
سُلْطَنَةُ الدَّهْرِ هَكَذَا دَوْلٌ فَهَزَّ سُلْطَانٌ مَنْ يُدَاوِلُهَا

وله فتاوى مرتبة على أبواب الفقه ، ورأيتُ منها نسخةً وافيةً كاملةً . تارةً يكتبونها بالتركيَّة وتارةً بالعربيَّة .

ومات رحمه الله تعالى وهو مفتٍ بدار السلطنة العظمى قسطنطينية الكبرى ، ولم يخلف بعده مثله ، ولا ترك في الوجود شكله ، وكانت وفاته في سنة ثلاثٍ وثمانين وتسع مئة ، كما نُقِلَ إلينا بالتواتر رحمه الله تعالى ، [في دولة السلطان سليم ابن السَّعيد الغازي السلطان سليمان .

قلتُ : وأخبرني قاضي القضاة المولى كمال الدين محمد ابن المولى المرحوم أحمد الشهير بطاش كبري زاده عن المولى المفتي أبي السعود المذكور أنه أنشد قبيل موته بساعة هاذين البيتين وهما :

ألم ترَّ أنَّ الدهرَ يومٌ وليلةٌ يكرِّان من سببتِ جديدٍ إلى سببتِ
فقلْ لجديد الثوب لا بُدَّ من بليٍّ وقلْ لاجتماع الشمل لا بُدَّ من شتٍّ^(١)

(١) الزيادة من ه ، ب

أبو طالب الحسيني

هو الامير الذي رَفَعَتْ له السيادةُ أعلامها ، وَوَهَبَتْهُ الأيامُ إنعامها . فهو الشريفُ ابن الشريف ، المستظلُّ في الدوحة الحسنية بالظلِّ الوريث . وهو أبو طالب بن الأمير حسن ابن الأمير الكبير أبي نُميِّ محمد ابن الأمير السيّد (٦٧٧ آ) بركات . وهو في هذا التاريخ وهو سنة تسعٍ بعد الألف وليُّ عهد أبيه السيّد حسن . ويتعاطى الحكومة عنه في غالب الأوقات . وهو مشكورُ السيرة ، طاهرُ السريرة . له الإصاباتُ العجيبةُ في حكوماته ، والشجاعاتُ العظيمةُ في منازلته . وله الفضيلةُ التي تزين الأمراء ، وينظمها في مدائحهم الشعراء . فاق على إخوانه ، وبرّز في محاسن الأخلاق على أبناء زمانه . فلذلك سلّم له أبوه مقاليدَ الامارة ، وجعل له ولاية العهد أظهر إماره .

وردت الخلة السلطانية من الحضرة الخونكارية المحمدية من دار السلطنة قسطنطينية المحمية ، لحاكم مكة على العادة المعروفة ، والطريقة المألوفة ، فألبسها الشريف حسنٌ لولده هذا أبي طالب ، وصيّر له بذلك أرفعَ المراتب ، وأنجح المطالب . وها هو الآن نائبه في جميع مهماته ، والقائمُ بأعباءِ أموره في سائر أوقاته .

ولما ورد ركبُ الحاج الشاميّ الى دمشق في سنة عشر بعد الألف في صفر ، أخبروا بأن والده تنزّه عن الحكومة بالكلية ، وأنه أمر الخطباء بالحرمين الشريفين أن يخطبوا باسم ولده مع اسم حضرة السلطان محمد . ففعلوا ذلك واستقرت الإمارة مع وجود أبيه . فاعلم ذلك .

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان من سنة عشر بعد الألف
وردت الأخبارُ بموت السيد الكبير حسن بمكة . وأنّ ولده المذكور
جلس على مسند الحكومة ، وأنه قتل ابن عتيق الظالم وألقى جسده
الحيث على المزبلة بمكة حفظه الله تعالى آمين .

ولقد تولّى قبله النيابة عن أبيه أخوه المرحوم السيد حسين فأذاقه
الحمامُ طعم الحين .

ثم تولى بعده أخوه السيد مسعود ، فلم يكن في سعيه بمشكور ولا
في فعله بمحمود ، وتوفي في أيام الشباب ، وذاق والده بوفاته طعم القتاب .
فآلت ولاية العهد للسيد أبي طالب المقصود بالذكر في هذه السطور ، وهو
الآن بالجمل المذكور ، وبالأحسان مشكور ، لا زال علمه منشوراً ،
وجيشه منصوراً . آمين آمين .

٥٠

أبو القاسم الشريفُ السفياني (٦٧ ب)

الحسينُ الحُسَيْنِيُّ أبا وأماً الخارجُ في بلاد اليمن
كان ابتداءُ خروجه من مكانٍ يقالُ له وَصَابُ (١) من نواحي اليمن
| في صفر من سنة خمسٍ بعد الألف (٢) | ودعا الناسَ الى بَيْعَتِهِ ،
وانتشرتْ دعوتهُ الى أن تملك من حصون اليمن ما يزيد على عشرين حصناً ،
لكن | كان (٣) | تملكه لها بتسليم أصحابها . كان إذا ورد إلى جانبٍ
من جوانب اليمن وفيه حصنٌ من الحصون أو مدينةٌ من المدن فيُرسل
إلى أهلها مكتوباً بدعوهم | فيه (٤) | إلى نفسه وإلى بَيْعَتِهِ بآياتِ قرآنيةٍ ،
وأحاديثِ نبويةٍ ويقولُ للناس : أنا ما أريدُ منكم إلا أن تبايعوني على
كتاب الله وسنة نبيه ، وعلى العدل والاستقامة على قانون الشرائع ، وعلى
إيصال | مال (٥) | بيت المال لأهله .
رأيتُ مكتوباً وارداً منه وفيه العجائبُ من الآيات والأحاديثِ
والمواعظ . وكان أكثرَ مَنْ (٦) يوافقه | من (٧) | الزيدية ، لأنه زيدي .

(١) صقع متسع في اليمن يشتمل على وَصَابِ عَالِي ووصاب أسفل ، غربي وادي زبيد
في تهامة . (انظر معجم أماكن اليمن ، في ذيل طبقات فقهاء اليمن) .

(٢) ما بين الخطين ساقط من هـ

(٣) ساقط من هـ

(٤) ساقط من هـ

(٥) ساقط من هـ ، ب

(٦) ص « ما »

(٧) ساقط من هـ

وفي كل مكتوب يدعو الناس إلى قتال عسكر بني عثمان الموجود في بلاد اليمن .
وبعد استقرار أمره في الحصون التي أطاعته كتب لنفسه سكتة
على النقود . وكان يكتب في أحد الوجهين : لا إله إلا الله ، محمد
رسول الله . وعلى الوجه الآخر : المنصور بالله ^(١) أبو القاسم أمير المؤمنين
الحسني الحسيني .

فعندما استفحل أمره عرض على سلطان المسلمين السلطان محمد نصره الله
تعالى . وكان الذي عرضه على حضرة السلطان أمير الأمراء في بلاد اليمن | هو ^(٢) |
حسن باشا . فأمدته السلطان بعسكر بعد عسكر ، وبمال بعد مال .
فخرج حسن باشا مع العساكر السلطانية وقاتل الخارج المذكور إلى أن
استخرج منه غالب الحصون التي كان قد قتلها . وصحمت من فخر
الأعيان الخواجا فخر الدين [بن زريق ^(٣)] الكاتب أنه لم يبق معه
سوى حصنين متقابلين . اسم الواحد شهارة واسم الآخر حصن أبي
عريش ^(٤) .

وفي يومنا هذا وهو يوم الثلاثاء سابع عشر رجب من سنة إحدى
عشرة بعد الألف ورد الخبر بأن الرجل الخارج المذكور باق إلى الآن
في الحصنين المذكورين . انتهى .

(١) ب « لله »

(٢) ساقط من هـ

(٣) الزيادة من هـ . وفي ب « فخر الدين بن الكاتب »

(٤) هـ « حريش »

الشيخ أبو الفتح | ابن عبد السلام^(١) | المالكي

التونسي مولداً^(٢) والدمشقي^(٣) المنزل^(٣) (٦٨ آ) والوفاء .
هو شيخ الاسلام ، وفاضل الأنام ، ومفتي المالكية بدمشق الشام .
ورد إلى دمشق من المغرب بعد وروده إلى مصر المحروسة . وكانت عمامته
سوداء عند وروده . وكان عند قدومه إلى دمشق متلبساً بيهة الصالحين .
ونزل بصاحبة دمشق ، وصار خادماً لزار الشيخ نحبي الدين ابن عربي
بها . ومكث على ذلك مدةً مديدةً وأعواماً عديدة . ثم إنه تغير عن
ذلك الطور ، وسكن في دمشق ، وصار قاضياً بالمحكمة الكبرى . وتقلب
أحواله ، وتغيرت أعماله ، وصار متهماً بأمور لا تليق بأمثاله ، ولا
ينبغي أن تصدرَ عن أشكاله . وأصرَّ على ما | كان^(٤) | قد أمرت .
ولم يزل بدمشق يتقلب في أطوار الأيجاد ، ما بين أغوار إلى أنجاد ،
فتارة ينهبط^(٥) وآونة يسر ، وحيناً يجذب ووقتاً ينمو ، لكنه مع
ذلك كان يفتي على مذهب إمام دار الهجرة ويقضي على مذهبه ، لكن
بسيوة ليست مرضية .

وكان ينطق بالكلمات الفصيحة . شهدت له موقفاً مع شيخ الاسلام

(١) قوله : « ابن عبد السلام » ساقط من ه ، ب

(٢) ه ، ب « المولد »

(٣) ه « المولد » خطأ

(٤) ساقط من ه

(٥) ه « ينهبط »

الشيخ^(١) | عبد النبي ابن جماعة الكنازي المقدسي ، وقد ورد إلى دمشق فرأيتها جالساً بعد صلاة الجمعة في الإبروان الشمالي بالجامع الأموي عند الشباك المطل على الكلاسة . وشرع | الشيخ^(١) | عبد النبي يتكلم مع الشيخ أبي الفتح صاحب الترجمة كلاماً علمياً فيما أظن . فإني كنت صغير السن ، وكنت بعيداً عنها في الجملة . فما أتم الشيخ عبد النبي كلامه الذي كان يتكلم فيه حتى أقام الشيخ أبو الفتح رأسه وتنحنح ، وقال :
'سبحان الله ،

كأنك من جمال بني أقيشٍ يُقَعِّعُ بين رجليه بشنٍ .
وقال أيضاً : جَعَجَةٌ ولا طحن . ورُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة .
سبحان الله ! يدلُّك على جناة الشجرة الواحدة من ثمرتها . وعلى خزامى^(٢) الأرض النفحة من رائحتها .

وجالا فيما كانا فيه من الأبحاث ، مستعجلين من غير ارتياح^(٣) .
وظهرت زيادة الشيخ أبي الفتح على الشيخ عبد النبي ظهورا كاملاً ، وألبسه الله تعالى من الفضل لباساً شاملاً .

وكان من أعاجيب الزمان ، ومن مفردات الدوران . كان ماهراً في المعقولات بأسرها ، وفاضلاً في المنقولات عن آخرها . (٦٨ ب)
كان إذا تكلم في العلوم يصير كالسيل إذا طمى ، وكالغيث إذا همى .
وكانت له الفصاحة التي تندى ظلها ، وبُسْكِرُ جريالها ، ويروق سلسالها . وكان له النظم الذي يفوح نثره ، ويلوح بشره . لأنه كما قيل : شرب من ماء الغوطتين ، وهب عليه نسيم الواديين . فمن ذلك أنه كان جالساً بين إخوانه ، وعنده طائفته من خلانته ، وإذا برجلٍ

(١) ساقط من هـ

(٢) هـ ، ب « خزامى »

(٣) هـ ، ب « ارتياح »

أقبل وقبّل يد الشيخ أبي الفتح وقال له : يا مولانا هذا البيت لمن ؟
وهو قول الشاعر :

لا ضراً أحبائي ولا رُوّعوا غبنا فما زاروا ولا ودّعوا
فأجابه عن قائله . وقال له : قف واستمع مني أبياتاً على وزنه
وقافيته وقال :

يا من لصبٍ بين أطلالهم يريمُ ، لا يرقى له مدمعُ
ترحلوا فالدارُ من بعدهم لبُعدهم أطلالها بَلقعُ
خاتٌ كأن لم يكُ فيها لنا مقامٌ أنسٍ لا ولا مَرابعُ
نذرتُ إن عادوا لهم هُجتي هيماتٍ ماني عودم مطعُ
لا ضراً أحبائي ولا رُوّعوا غبنا فما زاروا ولا ودّعوا
وله القصائدُ الطنّانةُ التي ما أدرك حسان فيها إحسانه .

وكتب إلى شيخ الاسلام علاء الدين بن عماد الدين هذين البيتين
بطلب القصيدة المسماة بقاق ، وهي من نظم الشيخ بدر الدين الغزي في
الشيخ محمد الأبي نزيل سفح قاسيون وهما قوله :

مولاي خفّاشُ الدجى قد هجا حمامةَ السفح بذات الشقاق
فأنقضّ بازي الحيّ من شاهقٍ يا أيها الصقر تفضّل بقاق
والمرادُ من خفّاش الدجى شيخ الاسلام بدر الغزي ، وذلك لأنّه
كان متحجباً لا يظهر من حجرته إلاّ من الليل | إلى الليل^(١) | . والمراد
من حمامة السفح الشيخ | محمد^(٢) | الأبي [لأنه كان^(٣)] نزيل سفح

(١) ساقط من هـ

(٢) ساقط من هـ

(٣) الزيادة من ب

قاسيون^(١) . وبازي الحمي يريد الشاعرُ به نفسه . ويريد بالضقر الشيخ علاء الدين لأنه كان أنجر أحدب ، وهكذا الضقر ، وقاق هي القصيدة التي هجا بها البدرُ الغزيّ الشيخ الايجي ، وسيأتي ذكرهما في حرف الميم إن شاء الله تعالى .

وكان كلُّ منها في غاية الصداقة لصاحبه . ففرق بينها الزمان ، وأيُّ شخصٍ (٦٩ آ) من الدهر في أمان . ومطلعها :

أخِلَّيَّ^(٢) بالسفح طالَ الفراقُ وساورني ألمٌ وأحترق
إلى أن يقول منها في الهجو :

وكم دبُّ ليلاً على أمردٍ وأحدث فتحاً بأعلى الرواق
ومن نظم الشيخ أبي الفتح | المالكى^(٣) | رحمه الله تعالى :
حبذا بالحمّام ساعة بطرى ولو أبترت من مدى العمر شطرا
حبذا الارتحال من دارٍ سوءٍ نحن فيها في قبضة الأسر أسرى
وإذا ما ارتحلتُ بإصاحٍ عنها لا سقى الله بعدي الأرض قطراً
ومن شعره :

ألا يا أيها الساقى أدِر كاساتِ أحداقِ
ولا تقطعْ مودتنا وواصلْ كلَّ مشتاقِ
ولا تبخل على الفاني ببذلِ جلالِكَ الباقي

(١) في هـ « حمّامه السفح الشيخ الايجي ، وسيأتي ذكره في حرف الميم ، وبازي ... »

(٢) في هـ ، ب « خليلي »

(٣) ساقط من هـ

وله نظم إيساغوجي ، نَظْمُهُ أدقُّ من رايق النسيم ، وأبدعُ ،
بألفاظٍ تذكّر سامعها السلافةَ والنديم . وله في القهوة البغية مواقفُ
ومشاهد . وذلك مع شيخ الإسلام الشيخ يونس العيثاوي الشافعي ،
فإنه كان يرى تحريمها . وكان الشيخ أبو الفتح يكاد يرى وجوبها . فحصل
بينها شقاقٌ طال أمدُهُ ، وتأجج حسدُهُ .

وحضرا مرة لدى قاضي الشام علي أفندي الشهير بقنلي ، وتباحثا فيما
يتعلق بالقهوة . وذكر كلُّ منهما دليله . فظهر الشيخ أبو الفتح في البعث
على الشيخ يونس حيث لم تكن أدلةُ التحريم ناهضة . وشرع الشيخ أبو
الفتح بعد ذلك في نظم مقطعاتٍ وموشحاتٍ وقصائدٍ في محاسن القهوة
وبيان منافعها . ويقول في بعض موشحاته مشيراً الى الشيخ يونس العيثاوي .

أنا أفتي بقتضى الظاهر أنها مفسم

لبت شعري من أين الماهر أنها تحرم ؟

وكتب بعض فضلاء عصره إليه سؤالاً فيما يتعلق بجلّ القهوة وحرمتها ،
ويطلب منه أن يُبيّن حكم الله فيها . فأجابه بجواب يعترف بحسنه
الجميع . ومطلعُ السؤال :

ما قولُ مولانا الإمام الأوحدي ومَن به في الشرع كلُّ يقتدي
ومَن هو المحقُّ العلامة الجهبذُ المدقُّ الفهامة
شيخُ الشيوخ رحلةُ الطلاب بجرُّ العلومِ روضةُ الآدابِ
في حكمِ شربِ القهوةِ البنية بظاهرِ الشريعةِ العلية
وما على مَن بالهوى حرّمها جهلاً ونارَ فتنةٍ أضرّما
وهلّ له من شبهةٍ فتدفعُ أو حجةٍ في منعها فتقطعُ

فَأَمَّنْ عَلَيْنَا بِجَوَابِ جَزَلِ مُتَمَنِّعٍ^(١) سَهْلٍ بِقَوْلِ فَضْلِ
إِذْ أَنْتَ أُولَى مَنْ أَجَابَ السَّائِلَ وَعَمَّ طُلَّابَ الْعُلُومِ نَائِلًا
لَا زِلْتَ قَوَامًا بِحَقِّ الْعِلْمِ وَرَادِعًا كُلَّ جَهُولٍ قَدَمِ
مُؤَيَّدًا بِاللَّهِ وَالْأَمَلِكِ مَا أَنْتَظَمْتَ كَوَاكِبَ الْأَفْلَاقِ
وَأَجَابَ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ . وَلِنَذَكُرْ مِنْهُ بَعْضَ آيَاتِ تَدَلِّ عَلَى
بَاقِيهَا ، قَالَ :

أَقُولُ وَاللَّهِ هُوَ الْمَوْفِقُ وَإِنَّمَا بِهِ تَعَالَى أَنْطَقُ
يَا سَائِلِي عَنْ قَهْوَةِ الْبُنِّ الَّتِي كَمَ مِنْ فَتَى عَلَى هَوَاهَا مَا فَتِي
سَأَلْتَ عَنْهَا وَبِهَا خَبِيرًا فَاسْتَمِعِ التَّحْقِيقَ وَالتَّحَرِيرًا
وَأَعْلَمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِجْمَالِ بِأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الْحَلَالِ
وَأَنَّ حَكْمَ شَرِبِهَا الْإِبَاحَةُ يَنْخَنُ مَنْ حَرَّمَهَا جِرَاحُهُ
وَيَسْتَحِقُّ الْحِزْبِيَّ وَالنَّكَلَا لِأَنَّهُ^(٢) قَدْ حَرَّمَ الْحَلَالَ
وَهُوَ كَمَنْ قَدْ حَلَّلَ الْحَرَّمَ مَا يَكْفُرُ قِطْعًا عِنْدَ كُلِّ الْعُلَمَاءِ
ثُمَّ قُصَارَى أَمْرِهِ أَنْ كَذَبَا وَقَالَ فِي الْقَهْوَةِ قَوْلًا عَجَبِيًا
مَنْ كَوْنَهَا تُنْسَبُ الْإِسْكَارِ وَشَبَّهَهُ التَّشْبِيهِهِ وَالْإِضْرَارِ
وَمَا أَنَا أَرَدُّ مَا قَدْ قَالَ رَدًّا مُزِيلُ الْوَهْمِ وَالْإِشْكَالَا
مَبِينًا شَبَّهَتْهُ وَغَلَطَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَحْضُ الْعِنَادِ وَرَطَطُهُ

(١) ب : « متنع »

(٢) ب : « لكوه »

أو ابتغاء شهرة بين الوري وقال ما قد قاله رياء
وسمعة قد مان فيها وافترى فاسمع لما أقول يامستفتي
مقال حبر في العلوم ثبت ثم إنته بين خواص القهوة ، وما تشتمل عليه من المنافع ، إلى أن
قال في خاتمة الجواب :

هذا جواب حسن بديع مُتَّعِفٌ بحسنه الجميع
هذبه بالسبك فكر ناظمه فجاء كالإبريز في معالنه
يسكاد من عذوبة الألفاظ نشره مسامع الحفاظ
والحمد لله على إتمامه مضمخاً بالمسك في ختامه
وصلواته على خير الوري محمد وآله أسد الشرى
وصحبه أئمة الهداية ومنقذ الخلق من الغواية
ما ألت يد الجنوب الدِّمَّاء ودارت القهوة بين الندما
وكان رحمه الله كثير الهجاء . واستمرت بدمشق متولياً منصب القضاء
ومفتياً على مذهب مالك رضي الله عنه إلى أن توفاه الله تعالى في سنة
خمسٍ وسبعين وتسع مئة ، ودُفن في تربة مرج الدحداح فوق النهر ،
في مكانٍ خاصٍ معروف به إلى الآن .
وبالجملة فقد كان رحمه الله تعالى من محاسن الدنيا . ومات ولم يُعقب
بذكر ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٥٢

الشيخ أبو السرور البكري

ابن الأستاذ العارف ، شمس العلوم والمعارف ، الشيخ محمد ابن الأستاذ [الكامل] (١) أبي الحسن البكري [الصدّيق] (٢) رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وحشرنا في زمرة جدّهم تحت لواء سيّد المرسلين .
هو الشيخ الأصيلُ العريقُ ، ربحانةُ روض بني الصّدّيق ، وغصنُها اليانعُ الوريق . نشأ في دولة والده المهّام ، وحاز بها غاية الإجلال والإكرام (٣) .

ويُنقَلُ عن الشيخ أبي السرور أنّه مال (٤) إلى مجالس الأُنس مع بعض الخواص على سبيل الاختصاص . وأمّا ميله إلى الصور الجميلة فهو ثابتٌ بلا استثناء . وأهلُ مصر في صفاء العيش أشباه . فبينما هو صاعدٌ في درجات التعظيم ، موصوف بغاية الإجلال ونهاية التكريم ، مدّت إليه يدُ الحدّان باعها ، وطلبت منه الحياة فسمح بها وباعها . وذلك أنه طلع إلى بعض قرى مصر الموقوفة على جهاته فأضافوه ميمكاً . وكان الوقتُ في غاية الحرارة ، فكأنته ألقى في بدنه شرارة . فرجع إلى مصر

(١) الزيادة من هـ

(٢) من هنا الى قوله « ويُنقَلُ عن الشيخ أبي السرور » ساقط من هـ ، ب . وفيها مكان الساقط ما يلي :

« ولد صاحب الترجمة في دوة أبيه الباهرة . وتربى في رياض الفضل والصلاح الناضرة ، وينقل ... »

(٣) ينتهي الساقط هنا

(٤) هـ ، ب « مائل »

محموما ، وقال قوم (٧٠ ب) : إنه مات مسموما . ففارق الدنيا في أوائل سنة ثمان بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله الصلاة والسلام . وله أخٌ يُقال له أبو المواهب ، وهو الآن في قيد الحياة . لكنه تابعٌ دليل هواه ، لا يشتغل بشيء من العلوم ، ولا يطلب الفرق بين المنطوق والمفهوم ، وقد ترجمناه بالاستقلال ، وأنزلناه في منازل الإجلال . لكن العرق الطاهر في ذاته موجود . فلهذا أن يرجع إلى الطريق ويعود . أخبرني الوزيرُ السيّدُ محمد أمير الأمراء بدمشق في هذا التاريخ ، وهو من شهر رمضان من سنة تسع بعد الألف ، أنّ أبا المواهب هذا ليس من أرباب الرشاد ، ولا يميل إلى طريق التوفيق والسداد . والسيّدُ المذكور عارف بأحوال المذكورين لكونه بمصر حاكما في هذا الزمان . والله تعالى هو المستعان . والحمد لله على كل حال ، وإليه المرجع في جميع الأحوال .

٥٣

الشيخ أبو المواهب البكري

مولانا الشيخ أبو المواهب البكري ابن الأستاذ الشيخ محمد ابن الأستاذ الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله عنهم أجمعين .
ولد هذا الشيخ أبو المواهب ودولة أبيه وريفة الظلال ، بديعة الجمال ، عديّة المثال ، وافرة الفضل والافضال . فنشأ هبةً من^(١) ربه الكريم ، فكان أبا المواهب ، ونبغ من دوحته الطاهرة فجاء افتخاراً للمشارك والمغارب ، لما عنده من لطف الطباع ، ومن القرينة السليمة في التمثل والابداع . وهذا البيت بارك الله فيهم ، من قواديمهم إلى خوافيهم ؛ وذلك لمصادفة دعوة القطب الفوت جدم الشيخ أبي الحسن ، بأن الله جلّ وعلا يبارك في ذريتهم ويجعلهم أهل فصاحة ولسان . وقد استجاب الله^(٢) دعوته للمذكورين سريعاً ، وسرت في ذريته سراية جعلت منهم كل لسان فصيحاً . وهم بيت كبير ، وفضلهم شهير .
وقد ذكرنا عدة منهم في كتابنا هذا فليُنظَر كل واحد في محله .
والشيخ أبو المواهب وإن لم يكن مشهوراً بين (٧١ آ) أهل مصر بالفضائل الكاملة ، ولم يتّصف بالأوصاف البديعة الشاملة ، وهو مع ذلك يجلس في موضع التصدير ، ويُلقي دروس التفسير ، من غير تقصير . وينظم الشعر المليح ، ويُنثي البديع الفصيح . ويكتب الرسائل البديعة ، التي حازت الحسن جميعاً . والغالب عليه الخلاء ، وكلما سمع بذي نعمة

(١) ب « نشأ هبة الله من ربه ... »

(٢) ه ، ب « استجبت دعوته »

|حسنة|^(١) أَحَبَّ قُرْبِيَهَ وَاسْتَمَاعَه . ولذلك لم يصرف همته إلى تحصيل العلوم والمعارف ، ولا وجهه فكره إلى استحضار النكات واللطائف . لكنَّ جِبِلَّتَه |جُبِلَّتْ|^(٢) بالذات على الطبع الذي يرفُّ كَأَنَّهُ^(٣) عذبات الأغصان في زمن الربيع ، أو كأنه شكوى العاشق إلى خليله وهو به عليم^٤ وله هَمِيع . وسمعتُ أنَّ له هيئة في غاية القبول ، وأنَّ جماله عند كلِّ ناظرٍ مقبول . وقد وصل إلينا من نظمه ، الصادر عن بديع فهمه ، مواليا وهو قوله :

بِاللَّهِ يَا أَثَلَاتٍ بِالنَّقَا يَهْزُونَ أَغْصَانَهُنَّ أَخْبَرْنِي لِاجْتِمَاكَ الْمَزْنِ
هَلْ الظُّبَاءُ اللُّوَاتِي حَزْنَ قَلْبِي حُزْنَ بِالْأَمْسِ جُزْنَ عَلَى الْجِرْعَاءِ مَا جُزْنَ

وله كلُّه معنى حسن . وله من هذا القبيل شيء لطيف ، مستغن عن التوصيف والتعريف . فحفظه الله تعالى فهو خير الحافظين ، وأبقاءه جمالاً للدنيا والدين | آمين آمين |^(٤) .

(١) ساقط من هـ

(٢) ساقط من هـ

(٣) هـ « له »

(٤) ساقط في هـ

الشيخ أبو الجود البتروني الحلبي

هو الشيخُ المفتي الحنفي ، ووالده الشيخ عبد الرحمن البتروني .
وُلد الشيخ أبو الجود المذكور بمدينة حلب الشهباء ، ونشأ بها متلبساً
بمخرقة العلم طالباً أن يكون معدوداً في العلماء ، لكنه ترتب وهو حصرم ،
وتكبر فوق قدره ، وتاه على أبناء نوعه . وطار إلى الدرجة العالية قبل
استحقاقه لها . وأما فتواه في مدينة حلب فهي من مداهنة قضاة السوء
على الحق . يَرِدُ إلى حلب بعضُ القضاة ثم يُعزل ، فيأتي إليه بعد عزله
بأبته عظيمة : أما العمامة فتنازع القبة كبراً ، وأما الأكامُ فإنها تكنس
في الطريق ماتمراً عليه . وإذا مرت في طريق رفع يديه من الجهتين ويستمر
رافعاً لها (٧١ ب) كل ذلك لتقويل العوام لها . فإذا رآه القاضي وارداً
بهذه الهيئة استعظمه في نفسه . فإن كان القاضي جاهلاً زخرف عليه الكلام ،
وموته عليه في المرام . ويأخذ منه عرضاً في أنه مستحق لمنصب الفتوى
وأنته من الفضل في الرتبة القصوى ، وإن كان عالماً أعطاه ما يُعبي عينيه
من الأموال فيأخذ منه عرضاً كذلك . ويُرسَلُ العرضُ إلى باب السلطنة
مع رجل بصير بأمر الدهر يُقال له ابن الاعمى ، ويرسل معه مالاً كثيراً
وهديّةً عظيمة . فيدخل على قوم غشام^(١) ليس لهم فهم ولا اطلاع على
حقائق الماهيات ، ومعه العرضُ الذي يُسأل عنه صاحبه يوم العرض ،
ومعه المالُ الذي يُعبي العيونَ ويسدُّ منافذ البصائر . فيُخرج حكماً
بأنّ أبا الجود أهلٌ لمنصب الفتوى ، لا سيما وليس في حلب من أهلها من

(١) ب ، ه « أغنام »

هو عالمٌ بفقهِ الامام الاعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . فهذه الصورة في
صيورة أبي الجود مفتياً في مدينة حلب . فلا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم .

أخبرني أستاذي العلامة العمادُ الحنفي السمرقندي رحمه الله تعالى عنه قصة
عجيبة تقتضي كمال جهله وقلة عقله ، وهي أن العماد كان قاطناً بحلب في
مدرسة يُقال لها العادلية فحضر الشيخُ أبو الجود صاحب الترجمة ، وجلس
على باب حجرة فيها العماد ، وحضر إليه جماعة يقرأون عليه . فقرأ القاريء :
ولا زكاة في آلة الحرب والكتِّب . ونطق بالكتب مضمومة الكاف والتاء
على أنها جمع كتاب فيصير المعنى : ولا زكاة في كتب العلم ، لان العالم
يحتاج إليها للانتفاع بها ، وما هي من عروض التجارة . فقال له الشيخ
أبو الجود : غلطتَ إقرأ والكتِّب بفتح الكاف وسكون التاء على أنه
مصدرٌ بمعنى الكتابة . أي ولا زكاة في آلة الحرب ولا في آلة الكتابة .
فقال القاريء : يا مولانا ، وما آلة الكتابة حتى 'تنفي' الزكاة عنها ؟ .
وهل هي إلا الأقلامُ والدواة ؟ ثم تزايد بينهما الجدل حتى أدت
إلى الجلاد .

قال المولى العماد : فقلتُ لأبي الجود : يا شيخ ! الصوابُ (٧٣ آ)
ما يقوله تلميذك . إذ لا معنى لما قلته أنت ، إنما المرادُ 'نفي' الزكاة
في كتب العلم إذا لم تكن من عروض التجارة . قال فلم يجبني بغير
الضحك . فتأملتُ من ضحكه وبالغتُ في الردِّ عليه . فلما رأى مني الجدَّ
في الردِّ ضحك وقال لجماعته : لأجل خاطر الملامد نقولُ : يجوز الوجهان .
على أن المراد الكتِّب جمع كتاب ، أو الكتِّب مصدرأ .
وقال لي العماد المذكور : مَنْ أراد أن ينظر إلى رجلٍ مرَّ كتب
من الجهل والكبر | فليُنظر^(١) | إلى أبي الجود .

(١) ساقط من ه .

هذا ما كان قد ثبت عندنا بطريق اليقين ، لا بطريق التخمين .
ولكن أخبرني في هذه الأيام جماعة^(١) من ليس لهم غرض ولا من
عادتهم الكذب أنه قرّن على الفتوى فصار له استحضار^(٢) حسن في فروع
الفقه ، حتى قرب من أن يكون له ملكة علمية^(٣) لكثرة المراجعة والمطالعة
بسبب الفتوى . والله تعالى أعلم .

وهو اليوم مقيم في حلب على منصب الفتوى ، ومدرّس بالمدرسة
المقدّمية بحلب^(١) . فإن في الشام مقدّمية^(٢) وكذا في حلب مقدّمية ،
وكلتاها وقف شمس الدولة عبد الملك بن المقدّم ، ووقفها بدمشق
قرية جسرين وقرية المحمدية^(٣) . وقد يرسل الشيخ أبو الجود وكيلاً يقبض
له ما يخصه من جهة مقدّمية حلب .

وله أخ^(٤) يقال له | الشيخ^(٤) | أبو اليمن . وقد تولى الفتوى بحلب
أيضاً . وقد رأيتُه بدمشق ذاهباً إلى الحج في سنة أربع بعد الألف .
وما تيسر الاجتماع به ، لكنني رأيتُه من بعيد . والذي ثبت عندي من
أخبار الأخيار أن أبا اليمن خير من أبي الجود في الفضيلة العلمية ، والله
تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وقد بلغني من كثير من أهل حلب أن والداهما الشيخ عبد الرحمن
البتروني كان من الصالحين الواعظين ، وأنه كان سالكاً مسلك السلف في
التقشف ، وقلة التكلف . وأن ولديه مخالفان لطريقته في أقواله وأفعاله .
والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، في جميع الأحوال . والحمد لله على نعمه
أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

(١) انظر عنها : الآثار الإسلامية في حلب ، لأسمد طلس . ص ٦٧

(٢) انظر النعيمي ١ : ٥٩٤ . والصحيح أن في دمشق مقدّمتين ، جوائية وبرانية .

(٣) جسرين والمحمدية قربتان من قرى غوطة دمشق . انظر غوطة دمشق لكرد علي

(٤) ساقط من هـ

الشيخ أبو اليمن البتروني الحلبي

مفتي حلب المحروسة على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه
اجتمعت به في حلب سنة سبع عشرة (٧٢ ب) بعد الألف عند
رحلتي إليها في السنة المذكورة لاجل الاجتماع بحضرة الوزير الاعظم
| حضرة (١) | مراد باشا في مهمم يتعلق بأهل دمشق . وهو أخو أبي
الجود البتروني ، لكن بينهما بون بعيد و فرق شديد .

فأين الثريا وأين الثرى ؟ وأين الحسام من المنجل ؟

فإن أبا الجود أبي الجود ، وأبا اليمن قبل اليمن .

فهذا بالتواضع في الثريا وذلك بالتكبر في الحضيض

وكان أبوها صالحاً ، وبالوعظ لاهل حلب ناجحاً . وأتى الاب
وذهب ، وما تلبس من هذه الدنيا الفانية بفضة ولا ذهب ، أستغفر
الله الا ما كفى ، وعن الاحتياج إلى الخلق نفى . ونشأ أولاده للعلم
طالبين ، وفي علو المنازل راغبين ، وكل في فلك . وقال كل لآخيه
عند طلبها : إن لم تكن لي فلك . ولم يزل أبو الجود يعلو إلى فتوى
دمشق بتدريس المدرسة السلطانية السلمانية (٢) بميدانها الانيق ، عوضاً عن
قصرها الابلق (٣) الذي له كل مدح يليق . وأخوه أبو اليمن هذا طلب

(١) ساقط من هـ

(٢) هي المسماة في أيامنا بالنكية السليمانية . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٥ .

(٣) هو القصر الابلق الذي بناه الملك الظاهر بيبرس وانخذه داراً للسلطنة وقد وصفه

ابن طولون في ذخائر القصر (مخطوط) ونشر الوصف احمد تيمور باشا في

مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٢٢

ونِعْمَ ما طلب . إلى أن نال فتوى حلب ، وأدرك منها غاية الأرب .
مع سلوك التواضع وحسن الأدب . وذلك بعد ما اجتهد ودأب .
اجتمعتُ به في حلب عند توجيهي^(١) إليها في سنة سبع عشرة بعد
الالف في المنزل الذي نزلتُ به بحلب ، وهو المدرسة البهرامية^(٢) ، في
جوار بيت نقيب الأشراف إذ ذاك ، وهو السيد محمد الرامحمداني من
رام حمدان وهي قرية من قرى أريحا . فرأيتُ الشيخ أبا اليمن المذكور
في غاية ما يكون من اللطف وحُسن الخُلُق وكَمال الفضيلة التي لا توازيها
فضيلة من أقرانه . وأنشدني هذين البيتين قائلاً :

ذكر الشيخ محيي الدين ابن عربي في كتاب المسامرة حكاية عن ملكٍ
حلَّ به الشيب ، ثم قال : أنشدني في هذا المعنى صاحبنا عليّ القفصي^(٣) :

وناذرةً بالشيب حَلَّتْ بهارضي فبادرتُها بالنتفِ خوفاً من الحتفِ
فَقالتُ : عليّ ضهني استَطَلَّتْ ووحدتي وويدك للجيش الذي جاء من خلفي

قلتُ : وأنشدته في ما يتعلق بالشيب قولَ مَنْ قال [وأجساد
في المقال^(٤)] :

سألتُ من الأطباء ذاتَ يومٍ خبيراً ممَّ شيبِي ؟ قال : بلَغَمٌ
فقلتُ له علي غير احتشامٍ لقد أخطأتُ في ما قلتَ بلْ غَمٌ (T ٧٣)

قلتُ : وهو إلى يومنا هذا ، وهو يوم السبت تاسع عشر رجب
المرجَّب من شهر سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، مفتي حلب ومدرس

(١) ه ، ب « توجيهي »

(٢) تسمى اليوم جامع البهرامية . بناها بهرام باشا والي حلب ، في أواخر القرن
العاشر . انظر : الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب لطلس ، ص ١٢٩

(٣) ه « القفصي » . واسم القفطي الوزير « علي بن يوسف » . وانظر آخر الترجمة

(٤) الزيادة من ه . وفي ب « قول من قال وأجساد »

المدرسة العادلة بها . والناسُ يذكرون عنه الثناء الجميل ويصفونه بكلِّ وصفٍ حميدٍ جليل .

قلتُ : والقفصيُّ المذكور في رواية الشيخ عن صاحبه علي بن محمد نسبة إلى قَفْصَةَ (١) بفتح القاف وضمها وسكون الفاء بعدها صاد مبهمة مدينة بطرف إفريقية . منها مالك بن عيسى ، وإبراهيم بن محمد المحدثان . واصلُ والده من البترون وهي قرية من توابع طرابلس ظهر منها جماعةٌ والله تعالى أعلم .

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان بفتح القاف ولم يذكر الفم

صاحبنا الشيخ أبو الطيب [الغزّي]

الماطرُ فهمه من البلاغة بالغيث الصيّب ، الأصيلُ العريق . الخطيبُ المنطيق ، الغزّيُّ العامريُّ الشافعيُّ القادري . ولد شيخ الإسلام البدر الغزّيُّ ، صاحبُ التفسير المنظوم ، الجامع بين العلم والفهم ، والحلم والكرم ، والخطِّ وتمييز المنطوق من المفهوم .

وأما شعره فهو في المحاسن غاية ، وأما لطفه فهو النسيم إذا مرى روى عن زهرِ الرياض أصدق رواية . كتب إليّ ملفزاً في لفظ داءٍ أعاذنا الله منه آمين :

يا إماماً واحِ بدراً كاملاً في سماء العلم زاد الله فضله
وهُماماً مانحاه قاصدٌ سائلاً إلاّ ويُعطى منه سُؤله
أيُّ شيءٍ يوجب الضعفَ كما يورثُ الصّحة إذا ما زيدَ عليه
إنْ جَزوتَ المدَّ منه تلقه في مدىّ لكن بحرفٍ زيد قبله
وإذا ذيلته أيضاً بما زدته فيه ابتداءً فأسمُ خاه
فشفاك الله منه أن يجلّك لكن لا وقاه أن تحله
وبقيتَ الدهرَ بجراً زاخراً لو ذعياً ألمعيّ الفهمِ رحله
قلتُ : فأجبتُه عنه مرتجلاً وأرسلته إليه خجلاً :

سيدي لا زلتَ للقصاد رحله وإليّ بابك ينوي الخاقُ رحله

يا ابن من أنسى الذي | قد^(١) كان قبله
يا أبا الطيب يا من فاته
كل من حاول إدراكا لكم
جاءني من بجر ك الدر الذي
كل من شاهد ما أبديته
أنزكم أبدى الذي في خاطري
صير القاب له بيتا ولم
شاقني والله قول قلته
كان داء وبما أودعته
عندما أوردني عين الصفا
قد كساني ثوب عز سابغا
لا بوحته الدهر بدرأ كاملا
قلت : وأبو الطيب المذكور درس في دمشق | بالمدرسة^(٢) |
القصاصية^(٣) الشافعية . ثم إنه فرغ عن تدريبها للشهاب الفاضل الأجدد ،
الشيخ أحمد ابن المرحوم القاضي ولي الدين ابن قاضي القضاة ولي الدين بن
الفرفور الحنفي ، وقبض منه في مقابلة الفراغ نحو ستين دينارا .

(١) ساقط من هـ

(٢) ساقط من هـ

(٣) النظر النعيمي ١ : ٥٦٥ وهي من مدارس الحنفية

وخطئه في غابة الجودة ، ونظمه في نهاية اللطافة .
ولكن عرض له عارضٌ سوداويٌّ اقتضى أنه طلق زوجته وفرق
ثيابه على كثير من أصحابه . ويُقال إنهم حجبوا عنه ولده خوفاً عليه
منه ، لأنهم سمعوا منه أنه يقول : لا بُدَّ من قتل هذا الطفل لأنني أخاف
أن تُفعل به القبيحة بعد كبره . وهو الآن محبوسٌ في بيت أبيه
بالقرب من الجامع الأموي عند التربة الكاملة^(١) . ولكنه مع هذا
الحال يكتب تفسير المولى أبي السعود كتابةً صحيحةً مليحةً الى الغاية من
غير نقصان ولا تبديل . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قلت : وكان الأديبُ الفاضلُ جامعُ أشتات الفضائل ، الشيخ درويش
محمد بن أحمد بن طالوا قد نظم قصيدة في مدح أحمد الأنصاري القاضي
بمصر والقاهرة يوم نظم المذكور للقصيدة المذكورة ومطلع القصيدة (٧٤ آ) :
فخرُ البلاد بأحمد الأنصاري فخر العباد بأحمد المختار

فعارض القصيدة المذكورة الشيخ أبو الطيب المذكور وجعلها نعتاً
في فضائل أمير المؤمنين أبي الحسن | علي^(٢) | رضي الله عنه .
والشيخ أبو الطيب المذكور يلقب نفسه بالرضي ، لأن جده يُقال
له رضي الدين . وقد أشار الى رد بيت في قصيدة ابن طالو المذكورة ،
ولوح الى كونه يلقب بالرضي . وبيت الشيخ درويش آخره هكذا :

« تروي فنون الشعر عن مهيار »

وبيت [الشيخ^(٣)] أبي الطيب :

صدحت بها ورق الرضي فبالحرى أن ليس تروي الشعر عن مهيار

(١) انظر النعمي ٢ : ٢٧٧

(٢) ساقط من .

(٣) الزيادة من .

وما ذكرناه من غلبة الخلط عليه صدر في سنة خمس عشرة بعد الألف من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام .

قلتُ : وكتب اليّ متعطفًا على هذا اللفظ . وصورة ما كتب ونقلته من خطّه ، وقد أرسله إليّ في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان من سنة عشرين بعد الألف - وأجاد فيما أفاد : باسمه سبحانه ، أطال الله بقاء سيدي الشيخ نبيه الذكر ، رفيع القدر ، سعيد الجدّ ، أثيل المجد ، واحد العصر ، برغم الجاحد .

وما على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحد

وقد قصدتُ حضرته الزاهرة ، في ما هو نتيجة الساعة وعفو البداة ، نزعة أدبيّة ، ومحبة حسنيّة ، وذلك أمرٌ مقصورٌ على سيدي الشيخ حرس الله بحده القيام بأعبائه ، ومحجّب هو المستقلّ بإبرازه ، من منيع خبائه .

والناسُ ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالآلِفِ إن أمرٌ عنا

فأقولُ بلسان المستفهم العاجز ، لا بلسان البارز البارز : ما جمادٌ إذا نكس تحرك ، وإذا زاد نقص . يُكسَى فيعري ، ويموت فيحیی ، يؤذّن لنفاد عمره ، ولا يُصلّي على قبره . يُبعث لانصرام الزمان ، ما اختلف الموان ، ملازمٌ للصلوات وهو دائمُ الحدث ، ولابسٌ للزئثار غير مكثوث . معتدل السير ، سريع الخطا ، وربما ضلّ وهو أهدى من القطا . يُنجد ويغور مافار منه التنوور . (٧٤ ب) يشبع ويجوع ، وبأخذه الهجوع ؛ فإنّ نُبّه قام ، وإنّ ترك نام ، وهو ملازم للقيام ، ذو صيام وغيرُ ذي صيام . صاحبٌ مصحوب ، راكبٌ مركوب . قائمٌ جالس ، ساكتٌ نابس . فصيحٌ أعيّا من باقل ، يُعقلُ عنه وهو غيرُ عاقل . حيّةٌ برأسين ، ومعاقرة بين كأسين ، في زجاجة الزجاج ، سيّالة المجاجة . هو واحدٌ بل اثنان بل ثلاثة ،

مزيّن بثلاثة ، وفيها ما لا يعد ولا يحصى ، وهو على أنه محصور غير
محصول ولا مُستَقْصى .

أنعموا بالجواب ، ولجنابكم الثناء المستطاب ، والدعاء المستجاب جعل
الله سعيكم مشكوراً ، وقولكم مبروراً . ورزقنا الحجّ في ركابكم في هذا
العام ، والسلام . | الحقيّر ابن الغزّي^(١) | .
واللغز المذكور في زجاجة الرمل التي تُعلم بها الأوقات وتُعلم به
حدود الميقات .

وهذه صورة الجواب :

بعون الله الملك الوهّاب . سائلاً من ربه جل وعلا ، إته لا يضيع
أجرَ مَنْ أَحسن عملاً ، أنْ يُطر سحاب فضله المدرار ، وأن يطلع بدر
منّه مُشرقاً بساطع الأنوار . على منازل المولى الفاضل ، صدر صدور
جميع الأفاضل ، بقية السلف القديم . وواسطة عقد الخلف الكريم ،
مطر أنواء^(٢) السحاب الهامي ، بانياً مباني أعلام الكمال السامي . محمد
الرضي ، الشهير بأبي الطيّب الغزيّ العامريّ الأشعريّ الشافعيّ القادريّ ،
حرس الله مهجته ، وأدام في صدور المحافل بهجته ، ما امتدّ مداد ، ودام
إمداد . آمين .

ثم إنّ الفضل ما زال عنه مروياً ، وظمان الطلب قد رام من غيث
غوثه رويّاً ، مُنشئته موروثه ، وعادة عن الصدق مبعوثه . وقد جبر
هذا المنزوي في كسر بيته كسيرا ، وأسدّى إليه من جود جوده
لطفاً كثيراً .

وللشيخ أبي الطيب المذكور :

صادفته والحسن حيايته
كالريم لا رعثاً ولا قلباً

(١) سائط من ه ، ب

(٢) « الأنواء »

أهوى لتهنّتي فدّ يداً وفق الهوى وتناول القلبيا

وله :

لسرّ حبيبي مكمنّ من جوانحي تمنّع أن تدنو إليه المباحثُ (٧٥آ)

تغلغل مني حيث لا تستطيعه كؤوسُ الندامى والأندىسُ المحادثُ

وأرسل^(١) إلى حضرة الشيخ المذكور هذه القصيدة الفريدة ، الجامعة للدرر النضيدة ، في يوم الاثنين سابع شوال من شهر سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، عليه من الله أفضل [الصلاة]^(٢) التحية . وفيها إشارة إلى الشيخ سعد الدين ابن الشيخ سعد الدين لما انتصر على أقاربه بعد قتالٍ ونزاع . وكان الفقيرُ كاتب الحروف له به بعض اجتماع ، أدّى إلى مساعدة مني طلباً للثواب | من الملك الوهاب^(٣) | . فإنه جلس على سجادة المشيخة السعدية بعد أخيه الشيخ محمد صاحب المكارم الحانبة . وكان جلوسه بحق ، فأراد ابن أخيه الشيخ كمال الدين ابن الشيخ ابراهيم أن ينازعه بعد الجلوس ، واستقرار النفوس . فلم يكن نزاعه مفيداً ، ولا رأى الناسُ كلامه سديداً ، لاستقرار عمته ونفوذ سهبه . وكان الوزير الأجد الحافظ أحمد ، حاكماً بولاية الشام . فكان الشيخ محمد قد سلّم أخاه الشيخ سعد الدين المذكور في حياته السجادة والأعلام ، فشهد وشاهد الاستخلاف ، وعامل الشيخ سعد الدين بالانصاف ، وأمر بانقطاع المشيخة الكاملة ، لكونها حادثة غير موافقة للطريقة السعدية ، وذلك في أواسط شهر رمضان من شهر سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها ألف ألف تحية .

(١) في هـ ، ب « هذه القصيدة الفريدة ، الجامعة للدرر النضيدة أرسلها إليّ حضرة

الشيخ ابو الطيب المذكور في يوم الاثنين ... »

(٢) من هـ ب

(٣) ساقط من هـ

وَأَرْحُ طَلَانِحَ قَلْبِكَ الْمَجْرُوحِ
وَأَرْبَابًا بِنَفْسِكَ عَنْ رَبَاهِ الْفَيْحِ
وَلرَّبِّمَا سُدَّتْ مَهَا فِي الرِّيحِ
مَتَمَلِّلاً مِنْ لَاعِجِ التَّبْرِيحِ
وَتَرَى وِلِيَّ النَّصِيحِ غَيْرَ نَصِيحِ
غَابَا حَمِيٍّ مِنْ ذُبُلٍ وَصَفِيحِ
تَشْفِيٍّ ، وَلَا مِنْ فَتْكَهِ بِمَرِيحِ
لرَأَيْتِي بِالرُّوحِ غَيْرَ شَجِيحِ (٧٥ ب)
فِي مَجْلَدِي وَصَوَارِهِ فِي سُوْحِي
مَتَعَفِّفٍ حِينَ الْإِقَاءِ كَشُوْحِي
وَلزِمْتُ وَرِدِي مُذْهَجَتْ صَبُوْحِي
يَوْمَا بَتَحْسِينٍ وَلَا تَقْبِيحِ
وَقَصِدْتُ نَحْوَ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ
وَخَوَارِقُ تَأْتِي بِكُلِّ صَرِيحِ
مَتَمَكِّنِ فِي صَدْرِهِ الْمَشْرُوحِ
هَذَا وَرَبُّ الْعَرْشِ خَيْرُ فَتُوْحِ
كَالْبَدْرِ كَانَتْ فِي الظُّهُورِ وَبُوْحِ

تَهْنِهِ دَوَالِحِ جَفْنِكَ الْمَقْرُوحِ
وَدَعِ الْهَوَى طَلَقَ الْعِنَانَ لِأَهْلِهِ
فَلرَّبِّمَا ضَاقَ الْفَضَاءُ وَلَا هَوَى
كَمْ ذَا تَبَيْتُ مُسَهِّدًا تَرعى السَّمَا
كَمْ ذَا تَصَدَّقْتُ عَنِ النَّصِيحِ عَمَائِيَّةً
وَمُتَمَنِّعٍ كَابِنِ الْغَزَالَةِ دُونِهِ
لَمْ يَعْتَلِقْ مُضْنَاهُ مِنْهُ بِزُورَةٍ
لَوْ شِئْتُ لَأَشَدَّتْ الْمَعَادُ إِلَى الْهَوَى
وَرَأَيْتُ آرَامَ الصَّرِيمِ سَوَانِحًا
وَرَأَيْتِي ضَمَّتْ عَلَيَّ مَتَنَسِّكِي
لَكِنِ صَحَا قَلْبِي وَأَقْصَرَ بَاطِلِي
وَقَدْ اعْتَزَلْتُ عَنِ الْأَنَامِ وَلَمْ أَقْلِ
وَرَفَضْتُ قَوْلَ الشَّعْرِ إِلَّا نَادِرًا
لِلشَّيْخِ مَعَدِ الدِّينِ حَالٌ بَاهِرٌ
لِللَّهِ دَرٌّ فَوَادِهِ الْمَعْمُورِ مِنْ
ضَاهِي أَخَاهِ الْبَحْرِ أَوَّلِ أَمْرِهِ (١)
وَلَكِمْ كَرَامَاتٍ لَهُ لَمَّا بَدَتْ

(١) هـ : «سرة» .

وبنصر سيّدنا له وقيامه
أعني الإمام الأُحد الحسن الذي
العالم اللج الذي أفكاره
كشاف جون المعضلات اذا انبرت
علامة العلماء سعد زمانه
وله اليد الطولى بحسن النقد في
ينتاب مشتجر الخلاف بفكره
وإذا رأى الأقوال غفلاً زانها
أعيت مزاياه وحسنُ خلاله
اني لأشكر فعله وجميله
حسب البديهة فيه لامتقنيا
مولاي | كن | صدر الصدور على المدا
واسلم ودم ما فتقت ربح الصبا

معه ترجيح فوق كل رجح
بصفاته يزدان عقد مدح
تأتي بكل مديحة ومديح
تعتاض بالتنوير والتوضيح
في شرحه التلخيص والتلويح
كل العلوم وجودة التنقيح
فيه راجحه من المرجوح
بمدارك الترجيح والنصحيح
وكاله المحسود كل فصيح
بلسان حمد فايح التصريح
ما ينبغي لعلاه بالتمديح
في عصرنا [لاك] لحسه^(١) كالروح
فارات رنج او نوافج شيخ^(٢)

الحقير أبو الطيب الغزي العامري .

(١) : « جسمه » .

(٢) : « فأدارنداً أو نوافج شيخ » .

٥٧

ابو سعيد بن صنع الله التبريزي الكلون كناني^(١)

من أعمال تبريز ، رحمه الله تعالى . ولد في تبريز سنة عشرين (١٣١ب) وتسع مئة . وقرأ على المولى غياث الدين منصور وفاق ، و اراد الخروج الى جانب الروم مهاجرةً من حكم طهماسب المبتدع . فشعر به فعذبته مع عمه ، وصادرها بعشرة آلاف دينار ذهباً ، فباعوا املاكها في ذلك ، ولم يحصل المبلغ المذكور . وهرب الشيخ ابو سعيد الى اردبيل ونجا بذلك ، لأن القانون أن من هرب اليها ينجو ، ولو كان مجرماً لكونها مقبرة اجداد طهماسب . ولما غزا السلطان سليمان ديار العجم تخلّص مع عمه وخرجا مع السلطان المذكور الى بلاد الروم . فمات عمه بديار بكر سنة تسع مئة وخمسين ، وذهب الشيخ ابو سعيد صحبة السلطان الى حلب . ولم تزل علوفته تترقى الى ان صارت مئة عثماني ، وحج في سنة ست وسبعين وعاد . وكان عالماً فاضلاً كريماً جواداً تقيّاً ، واكن كان في غاية الوسوسة حتى انه يصافح الناس ويغسل يده من مصافحتهم ، ولم يتأهل في عمره . ومات بقسطنطينية في سنة ثمانين وتسع مئة . وُدُفن بحضرة الشيخ ابو الوفا رحمه الله تعالى .

(١) هذه الترجمة خافضة من ص ، أضافها من ه ، ب

٥٨

الشيخ ابو بكر المغربي

هو الشيخ أبو بكر بن مسعود المغربي المالكي .
اخبرني من لفظه بدمشق في منزلي بها سنة إحدى وعشرين بعد الألف
أن مولده بمدينة (٧٦٦ آ) مراکش . ونشأ بها وحفظ بها القرآن . قال
لي إن شهرته بمراكش بيت الورددي .
ورد إلى دمشق من مصر أولاً في سنة ثلاث وتسعين ، ثم رجع إلى
مصر ، وأقام بها إلى سنة ثلاث بعد الألف ، ثم ورد إلى دمشق ، وألقى
بها عصا الترحال ودرس بها في المدرسة الشراييشية لأنها مشروطة للمالكية .
وأخبرني أن مولده في سنة أربع وستين تقريباً .
قال : وفي تلك السنة توفي مولاي محمد الشيخ الشريف الحسيني سلطان
افريقية ومراكش وفاس والسوس الأقصى .
وأخبرني أنه قرأ على الشيخ حسن الطناني في الأصول ، وهو الآن
مفتي المالكية بدمشق المحروسة .
قال : ومعظم قراءته على الشيخ سالم السنهوري المالكي المتحدث
مفتي المالكية .
وفي هذا التاريخ ، وهو سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، جلس في
الغزاليّة بجامع بني أمية ، ويفتي بها ويدرس . وقد تزوج بها وتأهل ،
وعليه في مذهب الامام مالك الأعول .

٥٩

الشيخ أبو بكر الصهيووني

هو المنفرد بعلم النجوم في زمانه ، الحائزُ قصب السبق في ذلك بين أقرانه .

أصلُ والده من صهيون . وكان من آحاد الناس . فنشأ ولده هذا ذكياً فاضلاً عالماً كاملاً . قرأ على علماء عصره . ودرس في غالب العلوم على فضلاء مصره ، لكن تميّز على الجميع في علوم الأفلاك ، وكان له في ذلك غاية الإدراك ، ومن جملة مشايخه شهابُ الدين أحمد الطيبي الكبير المتقدم ذكره في ترجمته من جهة المشط الذي طلبه منه فأرجع إليه . وكان غالباً مقيداً في أحواله بأحكام النجوم ولذلك نسبة بعض أهل عصره إلى قلة التحفظ والتقيد بالشرائع . والله أعلم بحقيقة حاله .

وفي أواخر عمره سافر إلى باب السلطان بقسطنطينية بطلب من صاحب الرصد تقي الدين بن معروف الذي رام أن يبني الرصد بقسطنطينية في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد بن سليم العثماني ثم عدل عنه لأمرٍ بطولُ شرحها . طلبه ليساعده على بعض ما يحتاج إليه الرصد (٧٦ ب) من مسائل النجوم لشدة مهارته في ذلك . ولما بطل عمل الرصد أخذ تدريس الناصرية البرثانية بصالحية دمشق . ورجع إلى دمشق فما تصرف في التدريس المذكور ، لأنَّ صاحبه كان الشيخ أمد الدين التبريزي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وكان الشيخُ من العلماء الذين يرجع إليهم الطلبةُ في تحقيق العلوم . ونال في آخر عمره بعضَ ثروةٍ من بعض الحكام الذين لهم اعتناء بالنظر

في أحكام النجوم . ولما أثرى قال لصاحبه الشيخ محمد الشفري الكتبي :
سبحان الله ، قرب الرحيل من الدنيا لأنها أقبلت ، ومن عادتها أنها
إذا أقبلت ، أدبرت . وكان كذلك فإنه ما أطال بعدها . ولما مات
رثاه صاحبنا الأديبُ الغيايبي السابق ذكره بتصيدةٍ داليةٍ حسنةٍ . وأشار
فيها الى مهارته في علم النجوم وهي قوله :

عزَّ البقاءُ لغيرِ الواحدِ الصِّدِّ وما سواه فمدفوعٌ إلى أمدٍ
فأعجب لمن عيشه ظنُّ وموته حتمٌ وتلقاه كالمسرور بالتمكدِ
مازلتُ في كمدٍ من حين مررتُ على سمي بأن خلقَ الإنسانُ في كبدِ
دنيا وإن لم تكن مثل البموضة في التـ حقيرٍ يُدمي قذاها مُهجة الأسدِ
والناسُ في هذه الدنيا مآربهم شتى وهم من سبيل الموت في جددِ
فعدَّ من آدمٍ كم باد من عددٍ لم تُغنهم كثرةُ الأموالِ والعددِ
سقى المنون لببداً كأساً أربد وأنـ تضى للقماتِ ما أمضاه في لبـ
مادار تخليدٍ هذي الدار في خلدِي سلُّ دارَ ميةٍ بالعلياء فالسندِ
وكم قصورٍ عوالٍ لا قصورَ بها أقوتُ وطال عليها سالفُ الأمدِ
ماردٌ عن ماردٍ كف الردي غمد بل ردَّ غمدان سيف منه في غمدِ
ياراصدَ النجمِ يرجو سعدها ويخا ف النّحسَ منها وعينُ الموتِ بالرصدِ
لا بدَّ أن يفقس المقدارُ مديته في لبّة الجدّي أو في جبهة الأسدِ
تخون كفتُ وثياها خواتمها وتسلم العقد جوزاها إلى البددِ

ويجمع القمران النيران فلا مساء ليلٍ مضى يأتي بصُبحٍ غدٍ (٢٧٧)
لهفي عليك أبا بكرٍ إذا احتجب الـلالُ للصوم واحتاجوا إلى العدد
لهفي عليك لتقويم برّعت به فاحتاج بعدك للتقويم من أود
قد كنت قت بعلم النجم منفرداً بطالعٍ فيه بالإسعاد منفرد
تبكيك بالنوء أحداق النجوم فلا — ريخ عينٌ قد احمرت من الرمدي
فكأها لك طرفٌ جدٌ منكب وكأها لك قلبٌ جدٌ متقد
لو كان الشمس حكم في نصرها غابت وبعدك لم تطلع على أحد
وكان خاطري يعتقد أو لا أن الشيخ أبا بكرٍ المذكور لا يحسن من العلوم
إلا ما يتعلق بالنجوم ، باعتبار ما هو مشهور بين الناس . حتى اجتمعت
به في مكان الطائفة المعروفة بالمولوية بدمشق^(١) ، وطال به المجلس ،
حتى تجاذبنا معه كثيراً من أهداب العلوم في فنون شتى . وكان يتكلم
فيها بكلام حسنٍ محررٍ مهذب . فعلتُ أنه من الذين حققوا
مشكلات المسائل ، وحرروا معضلات الدلائل ، غير أن شهرته بالنجوم
قد غلبت على بقية العلوم . وكان الغالب عليه الرياضة والتقلل من
المعيشة . ومات ولم يُعقب ، بل أظنُّ أنه ما تزوج . وكانت وفاته
في سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة من الهجرة النبوية على مهاجرها الصلاة
والسلام ، وعلى آله واصحابه الكرام .

(١) هو التكية المولوية في شارع النصر اليوم مقابل المحطة الحجازية . بنيت سنة ١٩١٣ هـ .
انظر : البنات والقضاة لابن جمة . (سنة ١٩١٣)

٦٠

الشيخ أبو بكر الذبّاح
الحنبليُّ الصالحِيُّ الدمشقيُّ

هو الشيخ الذي ثبت صلاحه ، وتقرّر فلاحه ، وحسّنت أحواله ،
وصدقت أقواله . كان على أسلوب المتقدمين في سلوكه ، لم يل من
الدهر الى ملوكه ، بل الى فقيره وضعيفه وصلوكه . اجتمعت به في صالحية
دمشق في حدود سنة خمس وسبعين وتسع مئة . وكان ابتداءً الاجتماع
به في المدرسة العمريّة^(١) ، لأنه كان إمامها ، وكانت له حجرة بها .
وكان يأتي اليها من بيته في الثلث الأخير من الليل ، فيشعلُ سراجَه
من قنديل المدرسة . ويستفتحُ في قراءة القرآن العظيم الى وقت الصلاة .
فيقومُ ويصلي بالناس . ثم يرجع الى حجرتَه ويشغلُ بالأوراد الى طلوع
الشمس ، فبعد ارتفاعها يصلي الضحى ثم يسير الى المدرسة دار الحديث
بالصالحية أيضاً ، فيدرّس بها فقه الإمام أحمد رضي الله عنه ، وغير
ذلك من نحو حديث ونحو .

قرأتُ عليه بالمدرسة المذكورة « الأذكار » للإمام النووي ، رضي
الله عنه ، وانتفعت بعلمه ودعائه .
وكان كثير التغفّل فيما يتعلق بأمور الدنيا بحيث أنه كان يسألُ
غالب تلاميذه كل يوم عن أسمائهم ، ومن أي بلد هم .
وأظنُّ بل أتحمقُ أنه كان صاحب درجة كبيرة من الولاية . شهدتُ

(١) انظر النبهي ٢ : ١٠٠ ، وهي من مدارس الحنابلة .

له كرامة وهي أنه كان يترك السراج مملوءاً بالزيت في حجرته العريقة كما ذكرنا ليقلو القرآن عند قدومه آخر الليل . وكان الفار يأكل الزيت والفتيلة ، وكان الشيخ رضي الله عنه يُظهِرُ التَّألمَ لذلك . فقال لي يوماً : أنا أنذرت الفئران . فإن استمروا على الفساد قتلتهم . فبعد أيام دخل الحجرة فوجد بها أكثر من عشرة من الفئران قد ماتت . فقال : سبحان الله أنذرتها فأبَّت إلاّ الفساد ، فأهلكها الله تعالى بفسادها . ولقد رأيت الفئران وأصحابه يُخرجونها ويلقونها واحداً بعد واحد .

وكان وكيه^(١) في مصالحي دنياه الشيخ أبو بكر بن زيتون ، وكان يأكل من ماله كثيراً ، وكان يدعو عليه ، فلذلك ترى ابن زيتون المذكور مذموم السيرة عند غالب الناس بعد أن كان صاحب حالٍ حسنة . نعوذ بالله تعالى من الضلال بعد الهداية ، ومن الحسرة بعد العناية .

وكتب الشيخ أبو بكر كثيراً من نسخ الفتوحات المكيّة للشيخ محيي الدين بن عربي ، وكتب غير ذلك كثيراً . وكانت معرفته بالعلم الروحاني مقطوعاً بها من غير شبهة ، وقفت له على مجموعٍ بخطه فيه نفائسُ الفوائد ، وكتب في آخره : كتبه أبو بكر بن ابراهيم الحكيم الذبّاح الخنبلي .

ومن جملة ما كتب فيه من الفوائد ما نصه :

قال ابن خلكان : وما جرتب لدفع النوازل :

كُنْ عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا (٧٨٧)

وابشر بنخير عاجلٍ تنسى به ما قد مضى

فلربّ أمرٍ مُسَخِّطٍ لك في عواقبه رضا

(١) « وليّه »

ومن جملة ما رأيتُ فيه من الفوائد أيضاً ما صورتهُ :
بسم الله الرحمن الرحيم ، سئل الشيخ الامام علامة الأنام مجد الدين
الفيروزابادي ، صاحب القاموس رحمه الله تعالى عما صورته :
ما قولُ السادة العلماء شدّ الله بهم أزرَ الدين ، و لمّ بهم شعثَ
المسلمين ، في الشيخ محيي الدين ابن عربي وفي كتبه المنسوبة اليه ،
« كالمفتوحاتِ » و « الفصوصِ » هل تحلُّ قراءتها وإقراؤها ، وهل هي
من الكتب المسموعة المقرّوة أم لا ؟ أفتونا مأجورين جواباً شافياً
لتحوزوا جزيلَ الثواب من الله الكريم الوهاب .

فأجاب بما صورته :

اللهم أنطقنا بما فيه رضاك . الذي اعتقدهُ في حال المسؤل عنه وأدينُ
الله تعالى به أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً . وإمام التحقيق حقيقةً
ورسماً . ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً . اذا تغلغل فكرُ المرء في
طرفٍ من بجده غرقت فيه خواطره فهو عباب لا تكدره الدلاء ، وسحاب
تتقاصر عنه الأنواء ، كانت دعواته تخرق السبع الطباقي ، وتفترق بركاته
فتملأ الآفاق . وأني أصفه وهو يقيناً فوق ما وصفتهُ ، وناطقٌ بما كتبه ،
وغالب ظني أنني ما أنصفته كما قيل :

وما عليّ اذا ما قلتُ معتقدي دع الجهول يظنّ الجهلَ عدوانا
واللهِ واللهِ العظيمِ ومَنْ أقامه حجةً لله برهاننا
إنّ الذي قلتُ بعضٌ من مناقبه ما زدتُ الا لعملي زدتُ نقصانا^(١)
وأما كتبه ومصنفاته فالبهارُ الزواخرُ ، التي جواهرها لكثرتها

(١) نل صورة هذا السؤال المقترني في نفع الطيب في ترجمته لابن عربي .

لا يعرف لها أولٌ ولا آخر . وما وضع الواضعون مثلها ، وإنما خص الله تعالى بمعرفة قدرها أهلها . فمن خواص كتبه أنه (٧٨ ب) من لازم على مطالعتها والنظر فيها انشرح صدره لحلّ المشكلات وفكّ العضلات والحمد لله وحده .

وفيه فوائد عظيمة ، وخيرات عميمة . أعرضنا عن استقصائها خوف الاطالة ، وخشية الملالة .

واستمر على ما ذكرناه من الإفادة والعبادة إلى ان توفاه الله تعالى .

٦١

الشيخ أبو بكر الجوهري

صاحبنا الشيخ أبو بكر تقي الدين الجوهري ، المتقدم ذكر أبيه
الشيخ أحمد الجوهري في حرف الهمزة .

هو أبو بكر بن أحمد بن علاء الدين بن محمد بن محمد بن عمر بن ناصر
الدين بن عمر بن علي بن ناصر الدين بن منلا علي الهرام آبادي نسبة الى
قرية من قرى أصفهان (١) وجددهم منلا علي رجل جليل القدر كان في
بداية أمره صدراً عند أعداء ملوك العجم والصدور عبارة عن قاضي العسكر .
ثم إنه رمى المنصب المذكور وانقطع الى الله تعالى مشغلاً بالعبادة في
زاويته بهرام آباد إلى أن توفي الى رحمة الله تعالى .

وأول من ورد من هؤلاء الجماعة الى دمشق منلا محمد الشهير
بشيخ زاده . وكان قدومه الى الشام في سنة أربع وثمانين وسبع مئة .
وكان قد صحب معه جواهر ومعادن ، فمن ثم اشتهر البيت كله ببيت
الجوهري . وفي دمشق محلة بالقرب من البيارستان النوري تسمى حارة
حجر الذهب (٢) ، فعمر بها بيوتاً كثيرة ، وبعضها مقيم إلى الآن
في يد أولادهم .

ولم يزالوا يتناسلون إلى أن وصلوا إلى الشيخ أحمد الجوهري والد
صاحب هذه الترجمة المذكورة في حرف الهمزة .

وامه بنت المولى بدر الدين بن حسام الدين التبريزي الجوهري .

(١) لم يذكر ياقوت هذه القرية .

(٢) انظر مخطوط دمشق القديمة لنا .

| وكان بدر الدين هذا من أفاضل الناس . وكانت له معرفةٌ بصناعة القماري اللطيفة ، حتى إن القماري الثلاث التي هي فوق محراب الجامع الأموي من صناعته . وكان له (٧٩٧) حظٌ عظيمٌ^(١) | . ولما ورد المولى عبد الرحمن الجامي الى الحج أنزله الملائكة بدر الدين المذكور في بيته بدمشق وأقام عنده أياماً .

وأما صاحبُ هذه الترجمة الشيخ أبو بكر المذكور فإنه طلب العلم في بداية أمره [بها]^(٢) . ونشأ في وصاية عمته الشيخ محمد الجوهري ، لأن والده مات وهو صغير . وله إخوة سيأتي ذكرُ بعضهم إن شاء الله تعالى . وكان قد قرأ عليّ وتخرج لديّ ، وكانت قراءته في « شرح الشذور » لابن هشام ، وترددت الى مصر كثيراً وقرأ على علمائها ، وحضر دروسهم . وهو الآن يتعاطى بعض المتاجر بإرسال بعض البضائع الى أخيه الشيخ حسن بمصر ، ويلتزم حضور دروسنا ، وله الذكاء الكامل ، والكرم الشامل .

وله نظمٌ كثيرٌ ، وإنشاءٌ ماله نظير . فمن نظمه هذه الأبيات يُناظر بها قصيدة الملك الأجدد بهرام شاه الأيوبي . ومطلع قصيدة الملك قوله :

عهدُ الصُّبا ومعهْدُ الأَحبابِ درستُ كما درستُ رقومُ كتابِ
وأبياته قوله :

أَمِنَ النَّوَى أُمَّ فِرْقَةَ الأَحبابِ هَطَلَتْ دَموعُكَ مِثْلَ هَطْلِ سحابِ
أَمٍ مِنْ زَمَانٍ جَارٍ فِي أَحكامِهِ حَتَّى اسْتَطالَ عَلَي ذَوِي الأَحسابِ
أَمٍ مِنْ تَذَكُّرِ مَعهْدِ الأَحبابِ أُمَّ مِنْ ذِكْرِ خِلالٍ بِهِ وَصِحابِ

(١) ما بين الخطين التامين ساطع من .

(٢) الزيادة من .

أَفْصَحَ فَشَجْوُكَ قَدْ أَثَارَ بِلَابِلِي
وَأَعَادَ فِي ذِكْرِي النِّقَا مَعَ جِيرَةٍ
عَفَّتْ رَسُومُ طُلُوهْمِ وَتَقَوَّضَتْ
وَمَحَتْ رِيَاخُ الْبَيْنِ أَرْبَعَهُمْ كَمَا
وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى الرَّبُوعِ مَسَائِلًا
عَنْ جِيرَةٍ كَانُوا بِهَا فَأَجَابَنِي
سَفَهًا رَجُوتُ بَأَنَّ أَرْدًا لِيَالِيَا
فَأَسَاتُ^(١) دَمَعَ الْعَيْنِ مِنْ آمَاقِهَا
وَذَكَرْتُ أَيَّامَ الشَّبَابِ وَمَلْعِي
وَمَقَامِنَا بِالْأَجْرَعَيْنِ وَبِالنِّقَا
فَأَجَابَ نَطَقُ الْحَالِ عَنْهُمْ مُعْرَبًا
تَبَغِي دَنُوقَ الدَّارِ بَعْدَ بَعَادِهَا
وَلَهُ مِنْ أَبْيَاتِ فِيهَا تَفْرِيعُ :
وَمَا أُمَّ أَفْرَاخٍ تَمَزَّقْنَ بِالْفَلَا
وَقَدْ مُنَعْتَ مِنْ أَنْ تَرَاهُنَّ وَاغْتَدْتَ
بِأَوْجَعِ مَنِّي عِدِّ وَشَكِّ رَحِيلَانَا

(١) « فَأَسْبَكُ » ، « فَأَرْسَلْتُ » .

وكتب اليّ هذه الايات يسألني فيها المير الى بستان كان
معهوداً لسيرنا :

أمولاي هل من عودة جلو سنا
ومن فوقنا صدح الحمام مفرداً
وقد سال ما بين الرياض جداول
نبث شكايات الغرام بنشأة
قدم سيدي في عزة بعد عزة
ولا زال منهلاً بأوطانك الوابل
على روضة غناء كلامها العال
على أثلات طال من تحتها الظل
كدمع محب حين فارقه الخل
تفوق غرام الغابرين وإن جدوا
وقد أجبته مراعياً للوزن والقافية بقولي :

لأمرك قد لبيت يا من له الفضل
يميناً لقد شوقني نحو روضة
ومالت بها الأغصان تحكي معاطفاً
يميل على ضعف الحب قوامه
يخاطبني أهلاً وسهلاً لدى اللقاء
أناجيك في تلك الرياض عن الهوى
وأبدي الذي في خاطري من صباية
ولولم تكن خلي لما كنت شاكياً
لديك من الحب الذي في جوانحي
فمني ومنك اليوم بث شكايه
وأهلاً بما قد رمت يا من هو الأهل
لدمعي على حافات أغصانها وابل
لمن وصله سعد ومن هجره قتل
بلين اعتدال ماله أبداً عدل
وما وصله والقرب من حبه سهل
وتسكب دمعاً طله أبداً هطل
لقلي بها عن كل اشغاله شغل
غرامي ولكن كل صب له خل
أفانين حب مالها أبداً نقل
لها لب في وسطاً حشائنا تغلو (٢٨٠)

فقل لي بحق الله ما ذا جنيتُهُ ومقد وفائي ماله أبدأ حلُّ
يعاقبني والذنبُ في الحبِّ ذنبُهُ نعم أنا ذو ذنبٍ وأنتَ لك الفضلُ
فإيه أبا بكرٍ سليلَ أُمّاجِدِ ومنَ لفظه درُّ وأفضاله سَجَلُ
بحقك قل لي ما الذي قد صنعتهُ إلى أن مضى وصلُّ وأعقبه فصلُّ
وما كان مني ما حبيتُ سوى الوفا ويعلم ما قد قلتُهُ الحكمُ العدلُ
تجددَ منه الجورُ والمجرُّ والجفما وودّي قديمٌ ما علا قبله قبلُ
فدُم هكذا ترقى إلى غير غايةٍ وقولك بالإحسان يسبقه الفعلُ
وبالجملة فهو من محاسن أبناء الناس ، ومصاحبتُهُ تُذهب الرحشة
وتجلبُ الإيناس . وكتب الكثير بخطه . وحفظ وروى ، وهو الآن
مُتأبرٌ على تحصيل الفضائل ، ومعدودٌ بين الأماثل ، من جملة الأفاضل .
وكان قد حصل من المال كثيراً ، واستفاد نَسَباً غزيراً . فصدمه
الزمانُ على عادته من أبناء الكرام ، ولم يُظهر نَأْسْتَفَأً على المال الذي
مال . والحمد لله على كل حال .
ولد في غرّة شهر ربيع الأول من سنة تسع مئة وثمان وستين . انتهى .

٦٢

الشيخ أبو بكر العمري العطار الأديب

الدمشقي الشافعي

هو من نبغ في دوحة الأدب ، وبلغ من ذلك غاية الأرب ، غير أنه الآن ليس له زِيُّ الأفاضل ، ولا يختلط بزمرة الأماثل ، لكونه مباشراً لصناعة سوقية ، يحصل منها معيشته الدنيوية ، وهو ابن الشيخ منصور العمري ، لأنه منسوبٌ الى عمر العُقَيْبِي الذي ورد الى دمشق خليفة من جهة الشيخ علوان الحموي . وكان الشيخ عمر أمياً ، غير أنه كان ماهراً في الكلام على الخواطر على قاعدتهم . ووالدُ الشيخ أبي بكر المذكور مريدُ الشيخ عمر المذكور . فذلك يُقال له ولأولاده العمري . والشيخ أبو بكر نشأته غريبة ، له من الفطنة والذكاء ما لا يُحيط به الوصفُ أبداً . غير أنه أخرج نفسه من طريق العلم واشتغل بطريق الصنائع وتحصيل المعيشة في السوق . (٨٠ ب) ولو داوم على تحصيل العلوم واستمرَّ على طريقة العلماء لحاز رتبة عالية ، وورق منزلة سامية .

له من الشعر محاسن ، لها في القلوب أماكن . وينظم في الزجل وفي الموآل أمراً عجيباً ، ونظماً غريباً . بحيث انه متقدِّمٌ في النظم على أمثاله ، وسابق على أشباهه وأشكاله . كتب في أواخر سنة سبع بعد الألف قصيدة فريدة وعرضها عليّ فاستحسنتها وطلبت منه أن يكتبها وهي قوله :

لو تمَّ لي في الحبِّ سعدي ياغصنُ ما أخلقتَ وعدي
لكن مقاديرُ القضا كما أنها حكمت بيّعي

أَوْ حَظًّا كُلِّ مُتَيْمٍ مِنْ عَكْسِهِ يُرْمَى بِطَرْدٍ
يَافَاثِبًا فِي الْقَابِ مِنْ نِيرَانِ قَدِّكَ أَيَّ وَقْدٍ
مَا كُنْتُ أُدْرِي قَبْلَ بَعْدِكَ أَنْ سَهْمَ جَفَاكَ يُرْدِي
صَدِيتَ لِرُؤْيَيْكَ الْعِيُونَ نِشْرًا عِلَامًا تَرْوِيهَا بَصَدًّا
يَاسِيدِي إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَقُلْ أَخْطَأْتُ عَبْدِي
[مَآخِذُ عَهْدِكَ فِي الْمَحَبَّةِ كَيْفَ حَتَّى خَنْتُ عَهْدِي
كَلَا وَلَا أَفْشَيْتُ سِرَّ هَوَاكَ وَالْأَسْرَارُ عِنْدِي
وَلَعِي بِجَبِّكَ لَمْ يَزَلْ وَلَعِي وَوَجَدِي فِيكَ وَجَدِي] (١)
أَرْضِي بِأَنْ أَفْنَى وَتَبَّ— قَى أَنْتَ يَا مَوْلَايَ بِعَدِي
أَخْفَيْتُ حَبِّكَ فِي الْفَوَاكِدِ فَخَطَّهْ دَمْعِي بِمُخْدِي
وَعَدَا عَلَى جَسْمِي النَّحْوُ لُفْعَادٍ لِلْأَسْقَامِ بِعَدِي
مَحْنُ الْهَوَى جُمْتُ عَلَيَّ فَلَسْتُ أَحْصَرُهَا بِعَدِّ
فَالسَّقَمُ يَشْهَدُ وَالِدَمُوعِي بُوْحَدْتِي فِي الْعَشَقِ وَحَدِي
يَا بَدْرُ سَلِّ عَنِّي السُّهْبَا إِنْ السُّهْبَا أُدْرِي بِسِيدِي
وَابْعَثْ رَسُولَ الطِّيفِ بِسَمْعِ مَا أُعِيدُ لَهُ وَأَبْدِي
أَهَا عَلَى زَمَنِ مَضَى لَوْ كَانَ قَوْلِي آهٍ بِمُخْدِي

(١) الزيادة من ٥

أيام وصل منك لم تقطع ولم توصل يود
والشملُ يجمعنا على حب يود بصدق وودي
وأضمُّ منك معاطفاً بردت جوى وجددي ببردي
وتميل اذ تهوي الى نحوي وجيدك فوق زندي
وتقولُ عجباً هل يرى مثلي وأهلُ الحسن جندي
والشمسُ والبدرُ المنيّر سناه جاريتي وعبيدي
والعصنُ يقصف قدّه إن قاس قامته بقدي
ومنحتني منك الوصال تبرّعاً وهجرت صدي
فجعلتُ وجهك حضرتي وحديث راح لملك ورددي
وعلمتُ لما بان رو ضُ الوجدانُ الحدّ ورددي
وشهدت لما ذقت طعم الريق أن الثغر شهدي
والفرق يشرق صبحه في ليل شعر^(١) منه جعد
قأطعت فيك صبايتي (٢٨١) وعصيتُ لوأمي وزهدي
وقضيتُ أوطاري وقد غفل الرقيب فنلتُ قصدي
والحصرُ أتهمي بأنسي بت في أكناف نجد
والردفُ زاد وقد تكفّل منه منه برفدي

(١) ب « فرع »

أحسن بتلك ليالياً قد أشرفت بيدور سعدي
فسقى معاهد للصبا صوب العهد بكل عهد
وسرت بها روح الصبا سحراً فأحيت ميت بعد
وكان الشيخ أبو بكر المذكور قد حضر معنا جمعاً في الشرف
الأعلى بدمشق في أوائل المحرم من سنة تسع بعد الألف ، وفي ذلك
الجمع رجل عواد يقال له سالم . وكان معه عبد له يقال له سرور يضرب
بالدف . فقال في ذلك :

حضرنا مجلساً قد راق حسناً مع القوم الكرام أولي الكرامه
سرور جاهنا منه سرور وأذهب سالم عنا الملامه
فيا لله ما أغنى وأهني إذا وافى السرور مع السلامه
وكتب الي في ذلك الجمع بعينه لغزاً في لفظه سرور فقال مرتجلاً :
ياروضة الفضل التي ثمارها مازلت منها كل حين اجتني
ما اسم يغيب الحزن في حضوره تصحيفه وقلبه زورتني
فأجبتُه أسرع من لمح البصر كما يعلم الله تعالى بقولي مرتجلاً :
سرورنا منتظم في نظمكم ياروضة مازلت منها أجتني
فما أردت فهو في زورتني ترى سروراً مذهباً للحزن
فابلغ مناط النجم نوراً وعلياً ودم كما تختار في عيش هني

وحاصل الأمر أن الشيخ أبا بكر المذكور قد سدّ فضله . وحجب
نبه . لعدم دخوله في سلك أرباب الكمال ، ولتلبسه بلباس أرباب
الصنائع الجاهل . وهو الآن مقيم على صناعته ، ملازم على اكتساب رزقه
من حرفته . وفقه الله للخيرات . وهداه الى طريق البركات . آمين آمين .

الشيخ أبو بكر السقّاف

سيدي الشيخ ابو بكر بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمن السقّاف
الحضرموتي الشافعي .

السيدُ الحسيبُ النسيبُ الحسيني الشيخُ (٨١ ب) الصالح الولي
العارفُ . كان من مشاهير الأولياء ومن محاسن الدنيا . وكان أولاً
قاطناً بقريةٍ من قرى حضرموت يقال لها تَريم^(١) ، ثم انتقل منها الى
قريةٍ يقال لها عينات^(٢) . وبين هذه القرية وقرية الأولى نحو فرسخين .

ينتهي نسبه الى أحمد بن عيسى بن جعفر الصادق رضي الله عنهم . وكان
رحمه الله صاحب كرامات ومعارف غزيرات .

توفي تقريباً في سنة خمس وتسعين وتسع مئة على ما أخبرني بذلك كله الشيخ
الصالح الشيخ أحمد بن مظفر البلخي . وُذكر لي عنه كرامات كثيرة شهيرة .
منها أن رجلاً ثلاثة جاؤا إلى زيارته وكانوا من صلحاء الناس . فلما وصلوا
إلى حضرته نادى واحداً منهم ورفع عمامته عن رأسه وخطَّ بأصبعه المسبحة
من ابتداء مفرق رأسه إلى حدود عنقه من خلفه ، وجعل يُكثر من ذلك الخطِّ
مترات ، فما رَفَعَ أصبعه الشريف إلا وقد صار ذلك الخطُّ شعراً أبيض
وخطاً على مقدار أصبعه ، وعبقت من رأسه رائحة العنبر الخام الأثهب .
ونادى الثاني وحمل له إبريقه وسقاه منه ماء رويّاً . ونادى الثالث وقال له :

(١) بفتح التاء وكسر الراء . اسم قبيلة سميت القرية بها . انظر معجم البلدان .

(٢) لم يذكرها ياقوت .

انظر من الباب . فنظر فإذا رجلٌ كهلٌ واقفٌ على الباب لمحهُ بالباب وغاب
عن بصره .

فسأل الحاضرون عن السرِّ في هذا الفعل . فقال الشيخ أبو بكر :
اسألوه عن الذي خطر في بالهم عند دخولهم الى ابتداء وادي حزموت .
فقال الأول : أما أنا فطلبتُ من حضرة الشيخ أن يعطيني رائحة
عظرية لاتزول مني مادمتُ حيًّا .

وأما الثاني فقال : أنا طلبتُ من باطن الشيخ أن يسقيني ماء من
إبريقه الذي يشرب هو منه .

وأما الثالثُ فقال : أنا طلبتُ من باطن الشيخ ومن الله أن يريني
الحضر عليه الصلاة والسلام . فكشف رضي عنه خواطر الثلاثة المذكورين
وأعطني 'كلاء' أمنيته .

انتهى ما حكاه لي الشيخ أحمد بن مظفر سلمه الله تعالى ورضي عنهم
أجمعين . (٨٢ آ)

الشيخ أبو بكر العمادي

الشيخ أبو بكر الكردي العمادي قدم من بلاده إلى دمشق صغيراً ، فجاورَ في المدرسة الكلاسة في جانب الجامع الأموي ، وسلك طريق الصلاح ، وركب مركب الفلاح بحيث أنه ما أتهمَ فيما أعلم بكبيرةٍ ولا صغيرة ، ولا رأيتُ في الغالب في الواردين إلى دمشق نظيره ، لكنته كان في مبدأ أمره في غاية الفقر حتى إنّه كان يسقي الماء في دمشق للناس عند اجتماعهم في المسجد للصلاة .

وخدم صاحبنا الشيخ أحمد الكردي العمادي المتقدم ذكره في الأحمدين ، وقرأ عليه وتخرّج به . ولم يزل ملازماً للقراءة على الشيخ أحمد المذكور وعلى مولانا الشيخ أحمد العيثاوي المتقدم^(١) ذكره ، حتى حصل من الفقه طرفاً صالحاً ، فلازم على إفادة الفقه للطلبة المبتدئين في تعلم علوم الشرائع ، حتى إنّه صار له ذكرٌ بين بعض الحواسب ، وعند غالب العوام . وبرع في طلب الفقه . وكتب بخطه الكثير . وكان قد قرأ على الكثير . فمن ذلك أنه قرأ « متسنّ العزّي » في علم التصريف . بعد أن قرأ من علم النحو حصّةً شهيرةً لاحتياج إلى تعريف . ولما ختم قراءة العزّي على الفقير الداعي شرع في قراءة « شرحه » للامام المحقّق السعد النفذاني . فأتمّ قراءته على . وحقق إفادته بين يدي . وصار مُدَرِّساً في بقعةٍ بالجامع الأموي على عادة المدرّسين في البقاع . وتزوج في دمشق ، فصار له ولدٌ ذكر . وعاد من

(١) ه ، ب « السابق ذكره » .

أعيان الطلبة الفضلاء ، ومن مشاهير الفرقة النبلاء . غير أن الشيخ أحمد الكردي العمادي الذي ذكرنا أنه كان يخدمه ويقراً عليه قد تغير خاطره عليه ومقته في آخر أمره عند انقضاء عمره ، وهذه سنة في المشايخ إذا غضبوا على الطلبة فإن ذلك والعياذ بالله تعالى سبب لفوات ما أرادته أحدتهم وطلبته .

وحاصل الأمر أنه كان من صالحى أهل العلم ، ومن جمع بين العلم والحلم . وكان يباليغ في التقشف الى الغاية . ويظهر أسباب الورع الى النهاية ، بحيث انه كان يُنمّمُ بالرياء رحمه الله [وأنه يُظهر ما قلبه ياباه . والله تعالى أعلم بحقيقة حاله ، في جميع أحواله ، وكانت وفاته تقريباً في سنة ^(١) بعد الألف ، من هجرة خير الأنام عليه من الله الصلاة والسلام ، وعلى آله وأصحابه الكرام] ^(٢) .

(١) بياض في ه ، ب مقدار كلمتين .

(٢) الزيادة من ه ، ب .

[أبو بكر المقدسي]^(١)

[مولانا شيخ الاسلام ، افتخار فضلاء الأنام الشيخ أبو بكر المقدسي الشافعي ابن أبي اللطف الحصكفي الأصل ، المقدسي المولد والمنشأ ، الدمشقي الوفاة ، والشيخ أبو بكر المذكور ولد شيخ الاسلام الشيخ محمد شمس الدين ابن أبي اللطف ، والشيخ شمس الدين هو تلميذ الكمال بن أبي شريف .

قرأ الشيخ أبو بكر المذكور على والده ، وتخرج به غالب إخوته . وسافر الى مصر لطلب الكمال هو وأخوه الشيخ عمر سراج الدين . وكان يُلازم التردد الى دمشق ، وقرأ كثيراً على شيخ الاسلام بدر الدين الفزري صاحب « التفسير المنظوم » الآتي ذكره في حرف الباء ، عن قريب إن شاء الله تعالى . وفتت على نسخة من « جمع الجوامع » على هامشها في بعض الفصول : بلغ العلامة الشيخ أبو بكر بن أبي اللطف المقدسي قراءة عليّ من أوّله الى هنا . وكتبه محمد الفزري لطف الله به .

وحاصل الأمر أن الشيخ أبابكر المذكور من بيت أبي اللطف ، وهو بيتٌ بارك الله فيه وفي نسله ، وأودع العلوم والمعارف لأهله ، لا نجد فيهم سوى فاضل كبير ، أو عالم شهير ليس له نظير ، كأنهم أدركتهم دعوة وليّ كامل ، أو نظّر قطب صالح فاضل .

وكان الشيخ أبو بكر هذا من محاسن فضلاء زمانه ، وبمن أدركه التمييز بين إخوانه . قرأ هو على والده شيخ الاسلام شمس الدين بن أبي اللطف . وللشيخ

(١) أضفنا هذه الترجمة من ه ، ب .

ابو بكر المذكور ولد يُقال له جارُّ الله ، وسيأتي ذكره إن شاء الله ، وهو في يومنا هذا مفتي الحنفية بالقدس الشريف ، ومدرّس المدرسة العثمانية بها .
والشيخ أبو بكر له نظم لبعض مهتمات مسائل الدين . رأيتُ بعضاً منها بخط شيخ الاسلام الشيخ محمد بن أبي اللطف فمن ذلك في الرخصة المتعلقة بالسفر:

مهمة من غير شك تعتبر في الرخص التي تُسناط بالسفر
يُخصّ منها بالطويل أربعة الفطر للصائم والقصرُ معه
والمسحُ للخف من الأحداث حيث جوازه الى ثلاث
وفي الأصحّ أجمع يُختص كما قد خصص المذكور مما قدّمنا
وأربع تجوز في القصر وفي الطويل فاستمع تصوري
أكل لحوم الميت في كل صفة وترك فرض الجمعة المشرفة
كذا على الرواحل التنقل على الأصحّ وعليه العمل
ثم الى الأصحّ أيضاً ينتمي سقوط فرض الشخص بالتيّم

قال أبو بكر المقدسي : نظمتها في لحظة لنفسي ، ثم لإخواني ، وجل مقصدي أن تنفع النجل السعيد ولدي .

وكان من محاسن أبناء الزمان ، وبتن يتزين به الإخوان . وكان موصوفاً بغاية الصلاح ، ونهاية الفضل والفلاح . وكان يُكثر التردد الى دمشق . وله مباحث مشهورة بين فضلائها الأعلام . وكان قد عرض مرض أوجب الحضور الى دمشق لتداويه ، فما أبل من ذلك المرض بل مات فيه . فدُفن بدمشق غربياً ، وحاز من شهادة الأخرى نصيباً . توفي في سنة خمس وستين وتسع مئة كما في خطّ والده . ودُفن في مقبرة الصغير الى جانب شيخ

الاسلام الشيخ أبي الفضل عم والده ، وذلك بقرب سيدي نصر المقدسي
رضي الله عنه . (٨٢ ب)

ومن نظمه ايضاً على ما في خطّ والده قوله :

لا خير في غير الكتاب فكُنْ له دون الخلائق صاحباً وصديقاً

ودع الأنام وعد إنك سائر بين الأسود وقد وجدت طريقاً

رحمه الله رحمة واسعة ، وسقاه من سحائب رحمته الهامعة .

٦٦

[الشيخ أبو بكر بن محمد ^(١)]

[هو صاحبنا الفاضل ، وخلصنا الكامل ، زارني بمنزلي بدمشق في زقاق النحاسين نهار الجمعة سنة عشرة وألف . وكتبت له يوم الأحد المبارك ثامن المحرم سنة ست عشرة وألف هذه الكلمات معترداً عن وعدٍ سبق لتأخيره الى غد ، وهو يوم الاثنين :

أسعد الله صباح الصباح ، بكل فلاح ونجاح . ولا زال مخصوصاً بكل حماية ، مرقوماً بعين العناية ، آمين .

المعروض بعد الدعاء المفروض أنه سبق منا بالأمس وعدٌ وثيق لحضرة الصدوق الصديق ، وهو المولى الحال ، صاحب الحال الحال ، بالذهاب الى محله بالقنوت ، لوقفه تُعادل كما قيل الوقفة بعرفات . فعَرَضَتِ المقادير ، لهذا العبد الداعي الفقير ، بالتربص في هذا اليوم السعيد ، لأمرٍ يريدُه المولى المجيد . فإن جاز إنجاز دعوة منكم اليوم من غير تأخير ففي وجودكم الكفاية عن كل مأمور وأمير . وإن جاز الصبر الى غد ، وهو يوم الاثنين ، فالمسير من الفقير مع الخطير على الرأس والعين . من غير إخلافٍ ولا مَين . والمسئول من الله تعالى أن يطوي شقة البين ، ويقرب العين من العين ، حامياً لحمي الوصال ماحية نقطة الغين] .

(١) ضفنا هذه الترجمة من ه ، ر

٦٧

الشيخ ابراهيم الدمشقي الشهير بابن الطباخ

رحمه الله تعالى

هو رجلٌ نشأ في طلب العلم والمعارف ، واستظلّ من ذلك بالظلّ الظليل الوارف . كان والده رجلاً أسمرَ اللون يُشبهه الحبوش . لكن أخبرني ولده محمد جلي الكاتب أنّ أصلهم من بلدة الحليل عليه الصلاة والسلام . ونشأ له أربعة أولاد : إبراهيم ، وأحمد ، ومحمد ، وعبد الغني .

فأما ابراهيم صاحب الترجمة فإنه قد نشأ طالباً للعلم ، لكن على طريق الأروام ، لأنه كان يعرف لسان التركية . فسافر مع بعض القضاة الى مصر وإلى غيرها من المدن الكبيرة . وكانت ملازمته العرفية من مولانا السيد^(١) النقيب الشهير بابن معلول واستمرّ ابراهيم هذا في ديار الروم إلى أن صار مدرساً بأربعين درهماً عثمانياً في كل يوم في بعض مدارس مدينة بروسة المحروسة .

ولما انفصل عن الأربعين حضر الى وطنه الأصلي وهو دمشق لأجل أن يقطع زمان البرزخ . وهو أنّ الرجل إذا وصل إلى تدريس الأربعين يُعزل ثمان سنين أو عشر سنين مثلاً بغير منصب ، ثم بعد ذلك يتولى تدريس الخمسين . ولا يزال ينتقل من مدرسة الى مدرسة حتى يتولى قضاء مدينة كبيرة ، مثل حلب والشام ومصر وما أشبهها . فلما حضر إبراهيم افندي الى الشام رآها جنةً قطوفها دانية ، ووجدتها من أكابر العلماء خالية . فتوى الإقامة بدمشق ، وعزم على ترك ديار الروم بالكلية . فسعى ، في دولة سنان باشا الوزير^(٢)

(١) اضيفت في ه ، ب

(٢) انظر الباشات والقضاة لابن جمعة ص ١٣ ، ١٤ ، ١٨

بدمشق على شيء من علوفة العلماء مجزينة دمشق . فعصل له في كل يوم ما يقرب من ستين قطعة فضة . ومكث بدمشق ملازماً على العبادة بالجامع الأموي مدةً طويلة لا يبرح منه ، وكان متقيداً بحسب الظاهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فاتفق أنه سمع الشيخ نجم الدين ابن شيخ الاسلام البدر الغزالي صاحب « التفسير المنظوم » وهو يلي تفسير والده المذكور . فأنكر عليه ذلك . وكان ينادي في الجامع الأموي بأعلى صوته : يا معشر المؤمنين ! متى سمعتم بأن كلام الله تعالى يُنظَّمُ من بحر الرجز ويُقرأ (آ ٨٣) على رؤس الأشهاد ، والناس يسمعونه ؟ وكيف نزه الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن الشعر ويأتي رجلٌ من علماء أمته يُدخِلُ كلامه في الشعر ، وهو الكلام الذي يتنزه^(١) عن مقام الشعر ؟ فانتدب الرد عليه القاضي محب الدين الحموي نزيل دمشق وصنّف رسالةً في الرد عليه . ولما وصلت الرسالة المذكورة إليه شرع في تصنيف رسالة الردّ رسالة القاضي محب الدين . وعرضها على فرأيتها خاليةً من الغلط وشهدت منها أموراً ما كنت أظنّ أنه يصل إليها . وقال لي الشيخ نجم الدين ولد شيخ الاسلام المذكور إنّ الرسالة المذكورة ليست من تأليف إبراهيم وانما هي من تأليف الشيخ لطفي الضرير الشهير بابن | بونس |^(٢) اليازجي ؛ وذلك لصهاةٍ بينها . وحاصل الأمر أنه كان رجلاً ملازماً على الصلوات في أوقاتها ، وأداء كلِّ عبادةٍ في ميقاتها . ولكن كان لسانه مُفترطاً في حقوق الناس . لكنه ما كان يُظهر اغتيابه للناس إلا في صورة النصيحة . والله تعالى أعلم بحقيقة حاله ، في جميع أحواله .

ولما شاعت الرسالة بين القاضي محب الدين وإبراهيم افندي صاحب الترجمة

(١) ب « ينزه » ، ه « يتنزه عنه »

(٢) ساقط من ه

أراد مولانا محب الدين أن يُظهر للفضلاء رسالته ، وأن يعرض عليهم عبارته ، فجعل ضيافة عظيمة ، مشتملة على خيراتٍ جسيمة ، في بستان الأعجام في الشرف الأعلى بدمشق ، ودعا العلماء إلا قليلاً منهم . وكان الفقير من جملة مَنْ دُعِيَ . فلما حضرنا الى البستان المذكور جلس العلماء صفين متقابلين . ولما استقرت بنا الجلوسُ دفع اليّ مولانا القاضي محب الدين رسالته وقال في المأ العام : أريدُ منكم أن تفضلوا بقراءة هذه الرسالة في حضرة هؤلاء الجماعة جهرة ، حتى يشترك الجميع في استماعها ، فقلتُ له : سمعاً وطاعة . فأخذتها في يدي وشرعتُ في قراءتها كلمةً كلمةً ، من غير استعجال ، بحيث أن الفضلاء الحاضرين في ذلك المجلس على كثرتهم دعوا وحسبوا للوؤائف وللقاريء . وكانت الرسالة المذكورة مشتملةً على محاسن من الإنشاء ، وعلى لطائف من الكلام . والقاضي محب الدين لطيف المحاضرة جميل المذاكرة ، له سكون في ذاته ووقار في جميع أوقاته .

ونظم صاحبنا الشيخ أبو بكر العطار الآتي ^(١) ذكره | في حرف الهزة | ^(٢) أرجوزةً في معنى اعتراض الشيخ ابراهيم صاحب الترجمة (٨٣ ب) على نظم الشيخ بدر الدين للتفسير ، وأرسلها الى الجمعية في البستان ، وقرأناها أيضاً . وكانت لا نظير لها في بابها . ومن جملة أبياتها يخاطب ابراهيم صاحب الترجمة وبشيرٍ إلى أنه كان طبّاخاً لشهرته بابن الطباخ :

فَعَدُّ عَنْ مِبَاحِثِ التَّفْسِيرِ وَعُدُّ كَمَا قَدْ كُنْتَ لِلْمَقْدُورِيِّ ^(٣)

وما أحسن قوله للقدوري ^(٤) بياء وبدونها . وإذا كان بالياء فهو

(١) « المتقدم ذكره »

(٢) ساقط من هـ

(٣) « الى القدوري »

(٤) « الى القدوري »

إشارة إلى كتاب القدوري في فقه الحنفية يقرأه المبتدئون في المذهب ،
والمذكور حنفي . وما أطف قوله في عدّ وعُدّ .

ولم يزل الشيخ ابراهيم صاحب الترجمة مقبلاً بدمشق يعبد الله تعالى
ويعترض على القضاة في أفعالهم المخالفة للشريعة الى أن توفاه الله تعالى في
سنة ست بعد الألف . وكانت وفاته في زمن قضاء مولانا يحيى أفندي^(١)
ابن مولانا زكريا أفندي .

وأخبرني مولانا القاضي تاج الدين ابن يحيى أفندي المذكور قال :
لما مات ابراهيم المذكور خلصنا الآن من المحتسب . يُشير الى أن الشيخ
ابراهيم المذكور كان يعترض على القضاة والحكام .
وأوصى أن يُدفن في مقابر الصوفية . وعين موضعاً لذلك ، فنقذ
أخوه محمد چلبی الكاتب وصيته ، ودفنه في المقابر المذكورة في طرف الطريق
على جانب الشمال للذاهب إلى جهة المزة في مقابلة نهر باناس^(٢) رحمه الله
تعالى رحمة واسعة ، وسقاه من سحائب الرحمة الهامعة . آمين .

(١) انظر الباشات والقضاة لابن جمعة ص ٢٦

(٢) « باناس » انظر كتابنا خطط دمشق

شيخنا الشيخ ابراهيم بن الأحذب

الفرضي الشافعي الصالح الفالح المحدث نزيل صالحية دمشق .
شيخ حلب في فن الحساب والفرائض ، عليّ كامل راض . نفع كثيراً
من الطلبة ، وما أحد من الطلبة إلا قصده في ذلك وطلبه . بحيث أنه
أحيا هذا العلم في ديار الشام . وتلمذ له كثير من العلماء الاعلام .
ولما وردنا الى دمشق في سنة ثلاث وسبعين وتسع مئة تولى^(١) المدرسة
العربية بالصالحية . وقرأنا عليه « النزاهة في علم الحساب » وابتدأت عليه
في بعض مقدمات النحو أيضاً . وانتفعت به انتفاعاً عظيماً . ورأيت منه
لطفاً جسيماً . ولازمته ما يزيد على خمس سنين . وهو الى الآن حيّ
يُرزق مقيم بالصالحية . وأظنه فات تسعين سنة أو قاربها .

أخذ الفرائض والحساب عن الشيخ الفاضل ، الولي الكامل ، الشيخ
محمد النجدي الذي كان مقبلاً بالعربية بصالحية دمشق . وكان يلحق
بابن الهائم في فن الفرائض والحساب . وحاصل الأمر أن الشيخ ابراهيم
المذكور من مفردات الزمان في هذا الأوان وأصله من قرية الزبداني^(٢)
من ضواحي دمشق . وأهلته من مشاهير (٨٤ آ) أعيان ذلك الوادي^(٣) ،
لهم الشهرة والتقدم على غيرهم في كل نادي .

ثم إن الشيخ ابراهيم المذكور مات في أواسط سنة عشر بعد الألف .
ودُفن بجبل قاسيون . وكانت جنازته عظيمة جداً . حضرها قاضي القضاة
عبد الرحمن بن سليمان^(٤) قاضي دمشق ومنّ دونه رحمه الله تعالى آمين .

(١) ب ، ص « نزل »

(٢) بعد ٤٧ كيلومتراً من دمشق الى الشمال . انظر ياقوت ؛ وكتاب الريف
السوري ، الجزء الثاني ص ٢٦٨

(٣) يعني وادي بردى

(٤) انظر الباشات والقضاة ص ٢٧

الشيخ ابراهيم بن سعد الدين الجباوي
القُبَيْبَاتِي الدار والمولد والمنشأ

هو الشيخُ الصالحُ ، الكريمُ الفالحُ ، الشيخُ ابراهيمُ ابنُ المرحوم
الشيخِ الصالحِ المعتقدِ الشيخِ سعدِ الدينِ الجباوي .
كان الشيخُ ابراهيمُ المذكورُ من أصلحِ الناسِ وأكرمِهِمْ ، وألطفِهِمْ
وأرحمِهِمْ ؛ يتدفَّقُ حياةً وكرمًا ، وإطفًا ونعمًا .
نشأ في تربيةِ والدهِ الشيخِ سعدِ الدينِ المذكورِ بمحلةِ القُبَيْبَاتِ (١)
خارجِ دمشق ، وكان والدهُ المذكورُ يختصُّه (٢) من بينِ إخوتهِ بالالتفاتِ
التمامِ ، والحبِّ الشاملِ العامِّ . ولما حانتِ وفاةُ والدهِ أوصى له
بالذِّكْرِ في حلقتهمِ بالجامعِ الأمويِّ يومِ الجمعةِ بعدِ الصلاةِ ، وأوصى لأخيه
الشيخِ محمدَ بالجلوسِ على سجداتِ الطريقِ بزواويتهمِ بمحلةِ القُبَيْبَاتِ واستمر
على ذلكِ مُدَّةً مديدةً ، وأعوامًا عديدةً ، إلى أنْ دخلَ بيتهمِ الفَرَضُ
والنفوسُ ، ووجدوا من ذلكِ غايةَ الضررِ والبوسِ . تخاصموا وتحاكموا .
وطال ذلكَ بينهمِ ، إلى أنْ أُوجبَ تفريقهمِ وبيئتهمِ . فرحلَ الشيخُ ابراهيمُ
من محلةِ القُبَيْبَاتِ إلى داخلِ دمشقِ إلى أنْ رحلَ ركبُ الحجيجِ فَسَارَ
بأولادهِ وأتباعهِ إلى مكةِ المكرمةِ ، وجاورَ في تجاهِ الكعبةِ المعظمةِ ،

(١) جمع تصغير فبة . قال ياقوت إنها حاضر من حواضر دمشق من القبة . وهي
في طرف الميدان الفوقاني .

(٢) « يخصه »

وصرف على مجاورته مالا كثيراً ، ووجد تبعاً غزيراً ، ثم رجع في العام الثاني مع ركب الشام ، وسكن في بيته ، وترك التردد إلى الناس ، وفوض الجلوس بالحلقة في الجامع الأموي إلى أخيه الشيخ محمد ، وجلس في بيته مستريحاً ، وفارق بفراغه تبعاً وتبريحاً ، ثم تصالح مع أخيه ، وكان في الزيارات يرافقه ، وعلى التردد إلى بعض الحكام يوافقه . إلى أن فرّق بينها الحمام ، وفاضت روح الشيخ إبراهيم إلى ربه بسلام . فمات في جمادي الآخرة^(١) من شهر سنة ثمانٍ بعد الألف من هجرة خير الأنام .

ولعربي لقد كان من محاسن الدنيا ، ولم يكن متمسكاً من الدنيا بالعرض الأدنى ، بل كان لطيف الذات ، كامل الأدوات ، عظيم الأخلاق ، عديم النفاق . 'يحب مخلصاً ، ويود متخصّصاً . لا يميل إلا إلى أهل الصلاح ، ولا يود إلا الوفاق والصلاح . مات بالفهقة مع الانطلاق وقت السحر . وكان آخر كلامه شهادة الاخلاص . وصدرت له جنازة عظيمة جمعت جمع أهل الشام ، من الخاص والعام . ودُفن عند أسلافه في تربة^(٢) القُبَيْبَات خارج باب الله . رحمه الله وأعطاه مناه في آخرته كدنياه . وخلف ولداً نجيباً يُقال له سيدي كمال الدين . جعله الله تعالى من الصالحين . آمين آمين .

(١) ه ، ب « ربيع الأول »

(٢) انظر كتابنا خطط دمشق ص ١١٨

٧٠

الشيخ ابراهيم القدسي

الامام' والخطيب بجامع الأمير منجك^(١) في محلة ميدان الحصا .
كان رحمه الله تعالى من اولاد المقادسة المشهورين بحسن الكتابة .
ومنهم الشيخ ابراهيم كاتب المصاحف التي يتغالى في ثنائها الناس' لاصيها أهل
دمشق . وذلك لحسن الخط ، ودقة الضبط . وقد كتب من المصاحف
ما يزيد على مئة مصحف كما أخبرني بذلك حفيده الشيخ ابراهيم المذكور .
ومنهم الشيخ خليل ، وعندني مصحف مسبوع بخطه أيضاً ، وخطه أيضاً
في غاية الحسن والضبط . وكتب في آخره :

وبعدُ فقد وفق الله سبحانه وتعالى بكتابة هذه الختمة الشريفة على
يدي العبد الفقير خليل بن محمد | بن احمد |^(٢) الخازن المقدمي غفر الله تعالى
له ولوالديه ولذريته ولجميع المسلمين أجمعين .

وكان الفراغ من نسخه وضبطه نهار الاثنين ثامن ذي الحجة الحرام
سنة تسع وثمان مئة . «

قلت : وسألت الشيخ ابراهيم صاحب هذه الترجمة عن سبب وصف
أسلافه بالخازن ، فقال لي : لما قدم جدي الأعلى من بيت المقدس نزل بالشامية
البرانية ، وصار خازن كتبها الواقوفة بها ، فلذلك وصف بالخازن .

(١) هو اليوم في الميدان الفوقاني . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٥ .

(٢) سائط من ه ، ب .

وكان الشيخ ابراهيم صاحب الترجمة صديقاً للفقير . وكان صالحاً حافظاً للقرآن العظيم ، يقرأ بالسَّبْعِ مع الصوت الحسن الملبح . وكان قد أخذ القراءات عن شيخنا | الشيخ الصالح^(١) | المعمر | الشيخ حسن الصلبي الشافعي^(٢) |^(١) |
خاطب جامع كريم الدين^(٢) بمحلة القُبَيْبَات . وأمّ وخطب بجامع منبجك المزبور^(٣) مدّةً طويلة . وسافر الى الحج الشريف في سنة ألف من الهجرة . ومات بمكة المكرمة بعد وقوفه | بعرفات |^(٤) في السنة المذكورة . ودُفن عند باب الملتى رحمه الله تعالى رحمةً واسعة . وأفاض عليه سبحانه رحمته الهامة . آمين .

(١) ساقط من ه .

(٢) يسمى اليوم جامع الدقاق بالميدان الفوقاني . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢١٧ .

(٣) ه « المذكور » .

(٤) ساقط من ه .

٧١

الشيخ ابراهيم الطالوي الدمشقي
| سلمه الله تعالى | (١)

هو الأميرُ الكريمُ ، صاحبُ الجودِ العميمِ ، والمجدِ القديمِ ، والقلبِ
السليمِ ، الأميرُ ابراهيمُ ، حمّاهُ اللهُ تعالى من كلِّ سوءٍ ، وصانهُ من كلِّ
بليّةٍ آمين .

وُلد الأميرُ المذكورُ بدمشق الشام في منزلهم بمحلة التمديد (٢) . ونشأ
في تربية والده الأميرِ حسن ابن الأميرِ ابراهيم بن طالوا .

ثم إنّه خدم أمير (٨٥٠) الأُمراء الكرام أحمد باشا الخالدي الشهير
بشمسي المتقدّم ذكره . ولما انفصل أمير الأُمراء المذكور عن ولاية دمشق
سافر معه إلى جانب دار السلطنة ، واستمر معه في خدمته . كلّما وُلي
ولايةً كان له منها الحظُّ الأوفر ، والنصيبُ الأكثرُ ، إلى أن صار الأمير
ابراهيم المذكور جاوياً في الباب العالي ، المحفوف بالمكارم والمعالي ، في
زمن سلطنة المرحوم السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان . وصارت له
زعامةٌ كبيرة ، وقرى كثيرة . وسافر الأسفار السلطانية إلى الغزاة ، وتراحت
به الاحوالُ إلى أن رجع إلى بلدته دمشق الشام في أيام محاصرة مدينة
قبرص . وجمع أوقات جميع العساكر الغازية من بلاد الشام وأخذها في
المراكب من جانب طرابلس إلى قبرص . وكان أمير العساكر الغازية

(١) ساقط من ه ، ب .

(٢) محلّة معروفة اليوم بجانب محلة الفنوات الى الجنوب ، بينها وبين باب السريجة .

ورد لها ذكر في تاريخ الفلانسى . انظر معجم الأماكن الطوغرافية بدمشق .

مصطفى باشا الوزير في زمن دولة السلطان سليم بن السلطان سليمان . ولم يزل كذلك إلى أن تولّى السلطنة المرحوم السلطان مراد بن سليم . فجعل الأمير إبراهيم المذكور رأسَ العساكر السلطانية ، بدمشق المحمية . وسافر بالعساكر من دمشق لما فتح ديار العجم مرّات عديدة . وكان في ذلك محمود السيرة ، وغمر رفاقه بالخيرات الكثيرة . وبعد ذلك تولّى الإمارة في مدينة نابلس . فذهب إليها بالطبّل والعلم ، وخرج من دمشق بركب حسن ، وخرج معه غالبُ عساكر دمشق مودّعين . ومكث في نابلس نحو سنتين ، وانفصل عنها . ثم رجعت إليه حكومتها من باب السلطنة أيضاً . وفي هذه المرّة عينه أميرُ الأمراء بدمشق محمد بن الوزير الأعظم سنان باشا مستقبلاً لركب الحاج ، على عادتهم ، فاستقبل الحاج استقبالاً ما أظنه سبق إليه . أخبرني المرحوم الشيخ إبراهيم ابن سعد الدين المتقدم ذكره ، وكان من جملة الحاج في ذلك العام ، أن الأمير إبراهيم المذكور تفضّل على أعيان الحاج بما لم يسبق إلى مثله ، وحرّس الركب من تبوك إلى دمشق حراسةً عظيمة ، بحيث أنه لم يضع لأحدٍ عقابٌ بغير . ولكنه لم يُنصف من الحكام ، ولم يُعطِ ماله من العادة بين الأنام ، وما ذاك إلاّ أنه أدرك الصدر الأول ، وسلك طريقهم ، وتغيّر الزمانُ ولم يتغيّر الأميرُ المذكور عما كان معهوداً له . فلزمت المخالفةُ بينه وبين أبناء زمانه في سلوكهم ، وتعب تعباً عظيماً ، ونال من دهره جفأً جسيماً ، بحيث أنه باع غالب أسبابه ، وتفرّق عنه غالبُ جماعته وأحبابه . وسافر إلى الباب العالي في سنة سبعٍ بعد الألف ، واستمرّ زماناً (٨٥ب) طويلاً ملازماً ، ولم يرجع بما فيه فائدة ، ولا ما يقتضي عائدة . فأسفرت سفرته عن عدم المحض^(١) ، وصادفته العنايةُ بمجيء الوزير السيد محمد الأصفهاني الأصل حاكماً ووزيراً في بلاد الشام . فعرض الأمير المذكور أحواله عليه ، وشكا إليه ، وبكى بين يديه . فرّق لحاله ، وعيّن له من

(١) « عن عدم محض » ، ب « من عدم المحض »

التزام السمسارية كل سنة أربع مئة دينار على سبيل التقاعد عن منصب الصنّجقية . وكتب له التمسك بذلك في سنة تسع بعد الألف .
ولعري لقد نظر إليه الدهرُ أولاً نظراً العناية ، ورجع عليه بعد ذلك بالنكابة . فصنع معه العجائب ، وأراه من فعل الغرائب ، وسلك معه طريقاً من الجفا ، ولم يرمق إليه بعد ذلك بِطَرْفِ الوفا . مع أنه بلغ في الكرم إلى مرتبة حاتم ، بل هو إن اعتبرت للأكارم خاتم . حتى إنه يُنسَبُ في إفراط كرمه إلى السّفه العظيم ، وهذه عادةُ الناس مع كلِّ كريم . ولقد صدق ابن خالته صاحبنا الشيخ درويش الطالوي حيث قال في مدحه ، من قصيدة أرسلها إلى الفقير من بلاد الروم ، وفيها ذكر الأعيان بدمشق ، فلما وصل إلى ذكر الأمراء قال :

وشيدوا أركانها أمراً معلماً الخطير
منهم جنابُ الطالوي سليلُ أرتق ذي السرير
في السلم كالغيث المطير والحرب كاللّيث المحصور
مُخَيَّبِي مكارم حاتم بين الأنام بلا نكير

وحاصلُ الأمر أن الأميرَ المذكور لا يُناسب أبناء الزمان ، ولا يقارب خوان الإخوان . وله الكلمة الصادقة ، والعهود الثابتة الموافقة . شهد له الجهمُ الغفير ، والجمعُ الكثير ، بكرمة صدرت عنه . | ووفاء عهدٍ كان منه | .^(١) وذلك أنه لما كان والياً بولاية نابلس في المرة^(٢) الثانية ، حضر إليه شابٌ من أولاد الجيوسي .^(٣) وأولاد الجيوسي هم

(١) ساقط من هـ

(٢) هـ « بالمرّة »

(٣) هـ « الجيوس »

مشايخ بلاد نابلس . واسم الشاب توبة . وكان من أحسن خلق الله تعالى صورة . وكان حضور الشاب المذكور اليه بطريق الأمان . وكان الأمير أحمد أمير بلاد غزة المتقدم ذكره عدواً على توبة المذكور . فأرسل إلى الأمير ابراهيم المذكور رجلاً من خواص جماعته ، ومعه ثلاثة آلاف دينار ذهباً ، وقال له : هذه ثلاثة ^(١) آلاف دينار لكم ، واعطوني الشيخ توبة ، ولكم بذلك صداقة الأمير أحمد طول الدهر ، ويساعدكم على أحوالكم في بلاد نابلس .

حكى لي الأمير ابراهيم من لفظه أن جميع جماعتي من كبير وصغير ، ومأمور وأمير ، أجمعوا على أنني أسلم توبة (٨٦ آ) لأحمد بيك ، وأخذ الدراهم التي أرسلها . وذلك لما أدركوا وعلموا من احتياجي . وبالله لقد كنت محتاجاً إلى عشرة دنانير ، وما كنت أنفق على عسكري وجماعتي إلا من السوق بالخرج .

قال : فبت تلك الليلة وأنا أظنهم لجماعتي إعطاء توبة ، وفي باطني خلافة . فأصبحت وجعلت ديواناً جمعت الأكارب وأرباب الدولة بمدينة نابلس . وطلبت الذين جاؤوا من جانب أحمد بيك بالمال ، وطلبت توبة المطلوب . فحضر الجميع ، وحضر المال . وقلت لتوبة : يا توبة ! قد أرسلوا إلي على تسليمك ثلاثة آلاف دينار . فما الذي تعطي أنت في مقابلة ذلك ؟ فقال لي : يا أمير ، أمّا أنا فإنني رجل فقير . وما جئت إليك إلا لما سمعت بصدق عهدك وثبات ودك ، والأمر إليك .

قال : وكانت أمه وأخواته وزوجته تحت الديوان يستمعن الكلام ، ويبكين خوفاً على توبة فأنصت جميع من في الديوان يستمعون ما أقول ، والمال مصوب في وسط الديوان .

(١) « الثلاث »

فقلتُ : أما أنا فإني أخافُ من يومٍ لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنونٌ ،
إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، وطلبتُ خلعاً من ملبوسي ، وألبستها
لتوبه وقلتُ له : لا تخفْ والله لو أعطوني الدنيا وما فيها ما سلمتُك ولا
نقضتُ عهدي ولا خفرتُ ذمتي . وأرجعتُ جماعةَ أحمد بك بآلهم .
وفزتُ أنا بوفاءِ العهد . وطلبتُ العوضَ من ربِّي تعالى وتقدّس .

وأقولُ : لما صُرفَ الأميرُ إبراهيمُ المذكورُ عن ولايةِ نابلسِ حضر
معه الشيخُ توبة إلى دمشق . ورأيتُه وهو من أجملِ خلقِ الله صورةً ،
كلُّ مَنْ رآه يتحيرُ من حسنه ، ويُنشدُ قولَ مَنْ قال وأجاد في المقال :

وإذا لاحَ وجهُه بمكانٍ كَثُرَتْ زَحَمَةُ العيونِ إليه

وفي هذا التاريخ وهو سنة تسع بعد الألف الأميرُ إبراهيمُ مقيمٌ في منزله
بدمشق في محلة التعديل والقنوات . لطف الله به وبنا وبالمسلمين اجمعين
آمين آمين .

٧٢

الأمير ابراهيم المنجكي

هو الأمير الكبير ، ذو الجود الغزير ، الجرکسي التجار ،
الدمشقي^٥ الدار .

هو من بيت معروف بالإمارة ، وله على صدق الأصل أصدق أمانة .
ينتسبون إلى جدتهم الأعلى الأمير منجك اليوسفي . صاحب الخيرات المتكاثرة ،
والبركات الوافرة ، التي اشتهرت في البلاد ، وعم نفعها سائر العباد .
وكان الأمير إبراهيم هذا بدمشق الشام ، مستولياً على وقف جده
الأعلى ما يزيد على ثمانين من الاعوام . وطال عمره ، وشاع بره ، وقصده
أرباب الحاجات ، ومدحه الأفاضل بالقصائد البليغات . وكان رحمه الله
أعلى غاية في سلامة السرائر ، ونهاية في صفاء الضمائر . بحيث أن كثيراً من
الناس كان يلبس عليه منامات كاذبة يستفيدون بها شيئاً من الدنيا ويطلبون
حصّة من العرض الأدنى . وكان يُصدّق كلّ من يقول في كل مقول .
ويقال إن الشيخ عبد الوهاب الصفوري كان من أصحاب الأمير المذكور .
وكان يستفيد منه أموالاً بالمخارق . فمن ذلك انه كان يُرسِلُ عجوزاً إلى
بيت المذكور تستخبّر بطريقٍ عما طُبِخ في مطبخ الأمير المذكور من
الطعام ، وتخبّره بذلك . فبأتي في اليوم الثاني ويجلس عند الأمير .
فيقول له الأمير : كيف حال الشيخ ، فيقول في جوابه : الحمد لله على نعمه .
فيقول له الأمير : تشوقنا إليك . فعند ذلك يظهر أنه يبكي ويقول له :
يا أمير كيف تشنق الي وكيف تحبني وانت أكلت كذا وكذا ،

وما تفكرتني ، ولا ادخرت لي شيئاً من ذلك . ويُسَمِّي ما كان
طبخ فيزيد اعتقاده عليه . ويقومُ ويعانقه ويبكي . ويُعطيه مالا جزيلاً .
فلا يقبله إلاّ بجهدٍ جيد ، ودلالٍ وكيد .

ولقد كنتُ في يومِ جمعةٍ عند الأمير ابراهيم المنجكي صاحب هذه
الترجمة في صحبة شيخ الاسلام الشهاب الطيبي الصغير . وإذا بالشيخ
عبد الوهاب الصفوريّ المذكور قد دخل راكباً حماراً . فلما استقرّ به
الجلوسُ قال : قاضي البلدة ليس له عقل . أرسل اليوم ورائي وقال لي :
وقعت غرارة قمح في وقف النور الشهيد بداريتنا ، ونريد أن نوجهها لك .
قال : فقلتُ له : هل يليق بمثلي أن أقبل منك مرتب غرارة قمح . والأمير
ابراهيم بن منجك حيّ يرزق ؟

قال : فعند ذلك دعاني القاضي ، ودعا للأمير أيضاً . وأوضحتُ له مكارم
الأمير وما هو مشتملٌ عليه من مكارم الأخلاق ، وأنه مرتبٌ لجماعته غللاً
من القمح وغيره .

فعند ذلك قال الأمير ابراهيم المذكور للشيخ عبد الوهاب المذكور :
نُخذ من وكيلنا غرارة قمح فإننا رسمناك بذلك .
فقال له الشيخ عبد الوهاب : وباليث شعري ما أصنعُ بفرارة قمح ،
وتلك الواقعة هناك - يشير إلى حمارته - تطلب مني غرارة شعير .
فضحك الأميرُ والحاضرون لقوله إن الحمارة تشير إليه في طلب الفرارة
من الشعير . فأمر له بفرارتين الواحدة قمح والاخرى شعير .

وكان الأميرُ المذكور غائباً في المكارم ، بحيث أنه كان ابتهاجاً في
عصره لجميع الأكارم . وعاش نحو تسعين سنة . وكان رحمه الله تعالى
صافياً خالياً من الضغن والحقد .^(١) وكانت له أرزاقٌ دارّةٌ على كثيرٍ

(١) هـ « الطمن والحسد » ، ب « الضغن والحسد »

من العلماء والصلحاء ، وما كان يتصدقُ غالباً إلا بالذهب . وقد صرتُ
في أيتام توليته لأوقاف بني منجك إماماً لجامع منجك بمحلة ميدان الحسا ،
ثم إني عجزت عن مباشرة الإمامة في المحلّة المذكورة لأنني كنتُ مشتغلاً
بالعلم في الجامع الأموي . فحضرتُ إليه وقلتُ له : يا أمير ؟ اعفني من
الإمامة في جامع جدك بالميدان .

فقال : لعلك تريد الفراغ عن الوظيفة لكونك تضايقتَ من أحد ،
أو لأنّ العلوقة قليلة ففرقتها لك .

فقلتُ : لا والله لا إذا ولا ذاك . وإنما أنا مشغول بتحصيل العلم ،
ولا يسع الوقتُ ملازمة الأوقاف للإمامة في تلك المحلّة .

فعند ذلك أخذ التقرير وأعطاني ديناراً من الذهب . وقرأتُ له الفاتحة وفارقتُه .
وبالجملة فقد كان الأميرُ المذكور من محاسن الشام ، ومن القوم الكرام
وكانت وفاته في سنة إحدى وتسعين وتسع مئة . وفقدتِ الشامُ بفقده
جمالاً ، وفقد الفقراءُ بفقده نوالاً .

ومن جملة أفعاله الجميلة إحسانه إلى الرحوم العلامة أسد الدين التبريزي
ثم الدمشقي . فإنه وقف عليه وعلى ذريته بيتاً لانظيرَ له في دمشق .
وهو عند باب الجامع الأموي من جهة الشرق . ووقف أيضاً عليه وعلى
ذريته بستاناً في جانب | بستان |^(١) الشيخ البهنسي قبالة الجسر ، عند ابتداء
الدخول في الميدان الأخضر بالمرجة . وكان في حال حياته متكفلاً بغالب
نفقة الشيخ أسد المذكور ونفقة عياله . فرحمه الله تعالى رحمةً واسعة ،
وسقى ثراه من سحاب الرحمة الهامعة . آمين آمين .

(١) سائط من هـ

٧٣

الأمير ابراهيم بن الجراح محمد باشا الوزير الأعظم

نشأ الأمير ابراهيم هذا في دولة أبيه . وتعلّم منه رفعة قدره مع
تأبيه . لكنه توعرع راتعاً في روضة من الأدب أريض ، وفهم يكاد
يفوق برفقته على لطف النسيم المريض . والغالب عليه الشعور^(١) في شعر
الفرس والروم . فإتته وصل فيها إلى غاية ما يروم . وتولى الإمارة في
بلاد عظيمة ، وجرت عساكر ماجرت إلا بالفتح عن حزم العزيمة . فتولى
انكورية وقصطنونية ، والمدينة المعروفة بقبره حصار . واختلفت عليه الديار .
ونُسب إلى الجلالية لوفور أتباعه . ففرّ إلى مقرّ الخلافة بقسطنطينية
خوفاً من بعده عن أبيه وانقطاعه . ثم خرج عن المدينة مستخفياً على هيئة
الدرأويش ، ورضي بتصغير قدره خوفاً من دواعي التشويش . ثم إنه
دار الديار ، وأخفى عن وجوده الآثار ، الى أن مات والده متقاعداً
عن الوزارة . فعضر الى قبره بعد الموت وزاره . وكان والده قد تزوج
ببنت من بنات ملوك الاسلام آل عثمان . إذ عادتهم تزويج بناتهم لعبيدهم ،
ومنعهن عن الأماثل والأعيان ، فلما توفي والده صار لزوجته بنت السلطان
طريفه وتالده ، وخرج خالياً من ميراث أبيه حتى من السكن الذي يقربه
به ويأويه . وطار به هواه الى مصر والقاهرة ، وأمضى حكم فيه
في الآداب التي لم تزل بها نفسه ماهرة . فعنّ عليه بعض الوزراء ، وأنزلوه
منزلة بعض الأمراء . ثم تافت نفسه الى ما فيه أنسه ، من سلب الإمارة ،

(١) هـ « الشعر »

عن علاقة الإمارة (?) وقع بذلك نفسه الأمارة . وطلب علوفة تكون كفافاً ، ووظيفةً تجعل له الى الراحة ^(١) انعطافاً . فجعلوا له من جانب السلطنة نحو أربعة من الدنانير الذهبية ، وألقوا جعله على غاربه في الديار المصرية . فتارةً يسير الى اسكندرية ويذهب بلطف نسيها ما عنده من المهوم الدنيوية . وتارةً يسير الى دمشق الشام ، مداوياً بلطف فراديسها ما عنده من الأسقام .

وقد اجتمعتُ به في دمشق المحروسة عند صاحب الذات الأنوسة ، قاضي القضاة ، أحمد سيف الحق المنتضاة ، الشهير بعزمي زاده ^(٢) بين الموالي . أقام الله قدره الرفيع العالي . ولعموي لقد كان له عنده مقدار رفيع ، وحمى من العزّة منيع . لعلو نسبه ^(٣) ، وكمال أدبه ، ورفعة حسبه . ولقد ضعف الأمير إبراهيم ، ونظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ^(٤) . فلاطفه المولى المذكور بأطاف من أخلاقه ، التي تضيق عن بيانها السطور . وشهدت من الأمير شعراً منسوباً ، ونظماً على آفاق العيون مكتوباً . وكان مع ذلك يضرب على عود الطرب ، ويستهيوي العقول بضرب وضرب . ويتكلم بالفارسية ، وينظم في تلك اللغة أبياتا حافظية . فأنشدت عند اطلاعي على ذلك من احاطني من اجادته في الشعر بما هنالك :

ما زال يعلو في مناسب فارسٍ حتى ظننتُ النوبهارَ له أبا

وهو اليوم في دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام ، على نية الرجوع الى القاهرة ، بعد استيفاء ما بدمشق من المحاسن الزاهرة . وحررت هذه الكلمات في ليلة الثلاثاء اليوم الثلاثين من رجب المرجب ، من شهر سنة إحدى وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها ألف تحية .

(١) هـ « في الراحة »

(٢) تولى قضاء دمشق مرتين . كانت الولاية الثانية سنة ١٠٢٠ . انظر الباشات والقضاة لابن جمعة ص ٢٧ و ٣٠

(٣) هـ « كسبه »

(٤) هـ ب « سليم »

٧٤

ابراهيم باشا الشهير بجاجي ابراهيم باشا

هو رجلٌ كان في مبتدأ أمره طالب علمٍ ، وسلك في بدايته طريق القضاء . حتى إنه قال لي من لفظه : استمررت قاضياً في مدينة اسكدار ست عشرة سنة . ثم إنه صار رأساً للدفتردارية في قسطنطينية . وباشر ذلك بهمة قوية ، وعزيمة مرضية . ثم نكب بعد ذلك وأخذت أمواله وضبطت للسلطنة . بسبب أنه نُسب الى خيانة في مال السلطان . واستمر ملازماً بيته مُعطلاً من حُلى المناصب الى أن طلب من حضرة السلطان بعض قرى ومزارع وزعامات على أن يجلس في مدينة دمشق متقاعداً . فأعطاه السلطان ما طلب ، وحضر الى دمشق وسكن في بيت رجب آغا شمالي جامع يلبغا^(١) وتزوج بها^(٢) زوجته أيضاً . وكنت أترددُ إليه في زمن إقامته بدمشق . وكان يحفظ كثيراً من الأبحاث العلمية التي علفت في فكره في ابتداء أمره^(٣) وحجّ من دمشق ورجع إليها . ثم إنته سافر إلى الباب العالي بقسطنطينية . وأظنه طُلب من جانب السلطنة . فبعد وصوله الى هناك صار رأساً لارباب الدفاتر ، وذلك منصبٌ كبيرٌ عندهم . لأن جميع الأموال السلطانية في جميع أقطار الأرض تدخل تحت قله . وهو حاكم على جميع أرباب الأفلام . وله عرض مقبول عند حضرة السلطان نصره الله تعالى لأنه أمين على أموال خزائنه كلها .

(١) عند ساحة سوق الخيل سابقاً ، وقد زالت الساحة اليوم . انظر وصفه في

ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٩ .

(٢) ساقطة من ه . ب

(٣) ه « عمرو »

ثم إنّه 'عزل من المنصب المذكور . فذهب الى الشيخ محمود الأسكداري وأخذ عليه العهد ، ولبس منه خرقه التصوف . فاحتاج الأمر الى ارسال رجل أمين يكتب ويضبط الأموال السلطانية في جانب حلب . فرسم السلطان نصره الله تعالى لابراهيم باشا المذكور أن يسير الى بلاد حلب يضبطها ،^(١) وينظر في أموالها فتتمنع من ذلك ، وشاور شيخه الشيخ محمود في ذلك . فأشار عليه بقبول قول^(٢) ولي الأمر . فقبل وسار الى حلب وساق فيها عدلاً ما سمع الناس بمثله بعد عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . قسماً لقد سمعتُ عنه حكايات في العدل وإنصاف الرعايا ما سمعتُ بمثها إلاّ عن الخلفاء الراشدين . فبينما هو سائر في الناس هذه السيرة حضرت الرعايا اليه وشكروا من ينكجربة الشام . وقالوا له : ظلّمونا وأخذوا منا أولادنا وعيالنا . فأرسل الى اليكنجربة ونصحهم . فما ازدادوا إلاّ طغياناً وضلالاً . فركب عليهم وقتل منهم مقتلةً عظيمة . ودخل بروؤوسهم الى حلب على رؤس الرماح . فثار لذلك عليه القوم المذكورون ، وقصدوه من جانب حلب ، فاحتجب . ثم إنّ حضرة السلطان نصره الله تعالى عزله عن حلب لئلا يصير بينه وبين القوم المذكورين فتنة ، فذهب الى باب السلطان نصره الله تعالى . وطلبه أهل حلب مرّات فلم يتيسر إرساله اليهم . وجعله السلطان وزيراً له يجلس مع بقيّة الوزراء في بابه ، يسمع دعاوي الناس ، وها هو في هذا التاريخ ، وهو سنة تسع بعد الألف ، مقيم في الباب العالي وزيراً . ولكن بلغنا من الأفواه أنّهُ صار وزيراً وحاكماً في تبريز ، وما يتبعها من بلاد أذربيجان مكان المرحوم الغازي جعفر باشا الخادم ، لموته في تلك البلاد . ولكن أظنّ أنه ما قبل ولاية هاتيك البلاد . والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وبالجملة فهو من محاسن الحكّام ، في هذه الأيام . وفقه الله تعالى ونصره ، وأعطاه وجبره . آمين .

(١) « يضبطه »

(٢) « امر »

٧٥

ابراهيم باشا الشهير بدالي ابراهيم باشا

هو على ما بلغني في الأصل من طائفة الارمن . ودخل هو وأخوه وأخته الى دار السلطنة بقسطنطينية فخدموا . وأخوه اسمه محمود . وأما ابراهيم فإنه لم يزل من لدن خروجه من خدمة السلطان يتقلب في الولايات حتى صار أمير الأمراء في ديار بكر بأسرها . فقتل فيها وظلم أهاليها . وأظهر من أنواع الظلم شيئاً لا يرضى به من في قلبه ذرّة من الإيمان ، ومن ذلك أنه كان كلما سمع بامرأة حسناء اجتهد على الاجتماع بها بأي طريق أمكن . وكان في ديار بكر رجلاً ، يُقال له الخواجا رجب . وكان كثير الأموال الى الغاية . فقال له : أنت أبي ، فقال ، له الخواجا : وأنت ابني . فبينما الخواجا المذكور في بيته وإذا بقائل يقول له : ابراهيم باشا على الباب يريدُ الدخول . وكان ذلك ليلاً . فارتعدت فرائضه لذلك . فخرج اليه فوجده قد اقتحم البيت . فهت الخواجا رجب لذلك ، فقال له يا أبتِ أريدُ أن أنظر اخواتي ، يعني بنات الخواجا . وأريد أن تجعل لي حصّةً من مالك كما جعلت لبقية أخوتي . فلم يزل يلاطفه حتى أرضاه بنحو خمسة آلاف من الذهب الأحمر ولم يزل بالخواجا المذكور حتى قتله وقطعه أربع قطع . وفعل في ديار بكر الأفاعيل العظيمة . فذهب غالب أعيان هاتيك الديار وشكروا عليه لحضرة السلطان مراد فأمر بأن يُوثق به مقيداً ، فأنوا به كذلك . ولما حضر الى الباب أمر السلطان أخصامه الذين شكروا منه أن يقفوا معه في موقف الشرع . فما اطمأن أحدٌ أن يشهد عليه ، ولا قدر القاضي أن يدقق عليه في سماع الدعوى ،

لأنّ اخته كانت عند السلطان مراد مقبولة الى الغاية . وانصرف خصماؤه
بجني حنين . وولاه السلطان أيضاً ديار بكر فذهب اليها ناوياً على
إهلاك كل من اشتكى عليه . ومنهم ملك أحمد باشا وعلاء الدين بك ،
فإنه أهلكتها تحت العذاب ووصل إلى أن ثار عليه أهل البلد ، وقاموا
عليه قومة رجل واحد . فتحصن في القلعة وصار يضرب على أهل
المدينة بالمدافع الكبيرة ، حتى قتل منهم كثير . فبلغ أمره الى جميع
الأنام ، من الخاص والعام وكان سلطان الوقت الملك العادل الغيازي
السلطان محمد ولي عهد أبيه . وهو مقيم في مدينة مغنيسيا . فأرسل الى
ابراهيم باشا المذكور يشفع عنده في الرعايا عموماً وفي ملك أحمد باشا
المذكور خصوصاً . فقال : أما الآن فهو ماله حكم ، مع وجود
والده ، وإذا صار سلطاناً فليفعل بي ما أراد ، فتوى السلطان المذكور
قتله يوم يصير سلطاناً .

فلما منّ الله تعالى عليه بالسلطنة وحضر الى دار سلطنة قسطنطينية
سأل عن ابراهيم باشا المذكور فقبل له : إنه محبوس في حبس والدك
المرحوم . فأمر به فقتل صبراً من غير تأخير . فشاع له بذلك ثناء
عظيم ، واستبشر الناس بقدمه عليهم . وقالوا : قد أزال عن المسلمين
غمّة ، وكشف عنهم ظلمة ، بسبب قتله الظالم المذكور .

أخبرني منّ شاهد قتله أنّه كان جالساً في الحبس بعد صلاة العشاء .
فدخل عليه كبير من خواص خدم الديوان ومعه جماعة من الجلادين
مغيّرين لصورتهم حتى لا يرتاب بهم . وجلس ذلك الكبير يُصاحبه في
أمور موهنة ، وأقدم عليه الجلادون من خلفه ووضعوا في عنقه حبلاً
وقالوا : أمر بذلك السلطان . قال : فرأيتُه قد رفع مسبّحته بالشهادة .
فلما مات ألقوه في البحر ثم شفعت فيه أخته فدفنوه . وصار عبرةً
للمعتبرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين^(١) .

(١) سورة الانعام ، ٦ ، الآية ٤٥

٧٦

الوزير الأعظم ابراهيم باشا نصره الله تعالى

هو الوزير الأكرم الأعظم ، والأمير الأكبر المقدم . هو من أمراء السلطان مراد ابن السلطان سليم العثماني . ولما ظهر من حرم السلطنة صار آغا اليكجيرية بالقسطنطينية ، وضبطهم أحسن ضبط . واستمر في ضبطهم مدة طويلة . ثم صار أمير بلاد روماني كاتبها مدة طويلة . ثم إن السلطان مراد المذكور أراد أن يزوجه ابنته . فأرسله إلى بلاد مصر ، فاستمر في مصر زماناً طويلاً . وكان كريماً حليماً حسن الأخلاق إلى الغاية . أراد أن يهدم بناء الأهرام الذي بمصر لما بلغه أن فيه دنانير للسلطين المتقدمين . فعذروه من ذلك ، وقالوا له : إن المأمون العباسي أراد هدمه فما قدر على ذلك . وقالوا ربما تكون الأهرام طلسماً الرمل ، ولهبض منافع ، فإنها ما وضعت إلا بطريق الحكمة . فعدل عن هدمها . ثم إنته أقام في مصر أميراً يحكم فيها . وأخذ منها دراهم كثيرة .

والأمير المذكور سنان باشا الذي كان دفتر دار في مصر ، فرفعه من الدفتر إلى الحكيم والسيف . ثم خرج ابراهيم باشا من مصر بأموال عظيمة ، وتحف كثيرة ، منها أنه جعل حفرة السلطان مراد تخناً من الذهب مرصعاً بالجواهر العظيمة . ورجع ومعه عساكر مصر .

وجمع عساكر الشام ، وحاصرها إذ ذاك أوبس باشا^(١) الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، وكبس جبل الشوف^(٢) من نواحي دمشق على طرف البحر من الجانب الغربي ، وبه قوم من الدروز الباطنية ، وهم لا يدينون بملّة ولا يرجعون الى عقيدة ، يروث للشرائع باطنياً غير ما هو ظاهر . فقتل ونهب وحرق ودوّنهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة ، وألوفاً من البنادق ، وحاصروهم محاصرة عظيمة ، حتى إن أميرهم قرقماز^(٣) ابن معن مات قهراً .

ثم سار إلى دار السلطنة قسطنطينية من طريق البحر في المراكب العظيمة وهو اليوم في هذا التاريخ ، وهو سنة تسع بعد الألف في داخل بلاد الروم ، مجاهد في سبيل الله . وقاتل في هذه السنة طوائف الكفار وثبت ثباتاً عظيماً بعد أن كادت النصارى تكسر عساكر المسلمين ، لكن الله جلّ وعلا وتقدس وتعالى أرسل ريح النصر على المسلمين فلم يزالوا يقتلون في النصارى حتى إنهم أفنوا قتلًا وأسرا . وكان للمسلمين عسكر آخر بسرّ دار يُقال له محمود باشا . فانتصر هو أيضاً بحمد الله تعالى . وأمسكوا زوجة الطاغية وبنته ووزيره ، وأرسلوا إلى دار السلطنة . وجاءت البشائر بالنصر إلى بلاد الشام ، وكتب البشائر بالتركية الفصيحة والألفاظ المليحة ، وأرسلت إلى بلاد السلطان . وزين أهل دمشق بدمهم بزينة ما عهدت قط ، واستمرت الزينة ثلاثة أيام بلياليها . وكان أمير الأمراء بدمشق السيد محمد باشا الإصفهاني الأصل . وساس الناس وضبطهم ضبطاً حسناً . وركب في الزينة مرتين ليلاً ونهاراً . وأشتعل الناس له الشموع العظيمة ، فرحاً به ، وأحرقوا أمامه العود المليح . وكان يسلم على الناس ببشاشة واستبشار وتواضع . وكان الناس يدعون له .

(١) انظر الباشات والقضاة ص ١٩

(٢) في لبنان اليوم . معروف .

(٣) « قرقاس »

وابراهيم باشا صاحب الترجمة الى وقتنا مقيم على سبيل المرابطة في بلاد الروم خوفاً من النصارى أن يهجموا على بلاد الاسلام فجزاه الله خير الجزاء .

وفيه صفات تدل على أنه رقيق القلب ، رحيم الفؤاد . خال من الضغن والعناد . تزوج بنت المرحوم السلطان مراد . وهي أخت السلطان اليوم ، وهو السلطان محمد ، أدام الله نصره ورفع قدره ، ونشر في الخافقين ذكره ، وسهل في كل حال أمره . آمين .

ثم ورد الخبر بموت الوزير الأعظم ابراهيم باشا المذكور في المحرم من سنة عشر بعد الألف وهو مرابط النصارى رحمه الله تعالى . آمين .

٧٧

ابراهيم آغا جاشنكير
متولي جامع بني أمية

هو من مماليك سلاطين بني عثمان . وكان يخدم في داخل حرم السلطنة . وكانت خدمته هناك إقراء المماليك الصغار الذين يخدمون في داخل بيت السلطان . على ما ذكر لي . لكنته خدم العلم برهة من الزمان فعلق في فكره شيء كثير من المسائل والدلائل ، فكثيراً ما يحضر مجالس العلماء فيجيب وينظر ويتكلم . ولما ورد إلى دمشق وصل إليها في أوائل سنة ألف من الهجرة . فسكن في جانب سوق البزورية بدمشق بزقاق هناك . وكان على سمت الصلاح . فسار في خدمة الجامع المذكور أحسن سير . وهو من الذين لا يتكلمون في المجالس إلا كلام الخير يعرفه في الغالب من يقدم من باب السلطنة من الأمراء حاكماً بدمشق لا سيما الذين خرجوا من الداخل . ودائماً يصاحبونه ويستمعون إشارته . ولم يزل كذلك حتى خطر له أن يعمر حجرة بالجامع الأموي يقطن بها . وهي الحجرة المقابلة لحجرة الساعات في [حجة]^(١) باب جيرون^(٢) . وكانت حجرة مهجورة مبغوضة لا يميل إليها أحد . ويزعمون أن بها حية ألفية فعمرها . وكانت بيد رجل يُقال له الشيخ رمضان المرداوي الأكل . فلما مات لم يرغب في أخذها أحد بعده ، حتى قدم ابراهيم آغا المذكور فأزال ما في داخلها من البناء . فصارت لها صورة

(١) ساقط من هـ

(٢) هو باب الجامع الشرقي ، ويسمى باب النوفرة . وباب الساعات . انظر مسجد دمشق لنا

قابلة للبناء . وقاس المعمارُ طريقَ الماء فوجده قابلاً أن يدخل إليها .
فشرع في عمارتها . وأخذ بالعمارة إجازةً من بعض القضاة . فلم يزل
يتنوع في تعبيرها حتى صارت من النطفِ الأبنية بدمشق ، بل أُظنُّ^١
أنها الآن عديمة النظر في الدنيا كلها ، لأنه زخرفها زخرفةً لا يُتصوَّر
فوقها شيءٌ أبداً . وأجرى لها الماء . غير أنه هجم على أمرٍ ما كان في
قدرة غيره لولا كونه متولياً على الجامع ، ولولا ميل الحكام إليه .
وذلك أنه فتح في حائط الجامع شباكاً للحجرة المذكورة في جانبها
الغربي بحيث صار الشباك المذكور يُرى منه من يمر من جهة باب البريد
لوقوعه في الحائط الشرقي مقابلاً لست باب البريد من الجانب الغربي .
وأضاف إليها حانوتاً كان وراءها في جهة | باب | (١) سوق الذهبين ،
وجعله فيها مطبخاً . وحاصل الأمر أن الحجرة المذكور آتت إلى صورةٍ
تتمناها بها الملوك ، بل | مسرة | (٢) في النفوس كلها .

وهو الآن في هذا التاريخ وهو تاريخ رمضان سنة تسع بعد الألف
مقيمٌ بها . وقد استخدم صبيّاً من أولاد دمشق اسمه إبراهيم كاسمه .
فاقتن به حتى ساءت فتنته به بين أهل الشام ، الخاص منهم والعام .
ويُنقل عنها أفعالٌ الأولى بنا الإعراض عن تفصيلها ، لأننا لا نذكر في
الغالب إلا المحاسن .

ومن عادة قضاة دمشق أنهم يترددون إلى الحجرة المذكورة في
بعض الأوقات ، لاسيما أوقات الصلوات . فمن جملة من تردد إليها
قاضي دمشق في التاريخ المذكور (٣) .

(١) سائط من ه ، ب

(٢) ب ، ه « حجرة »

(٣) كان قاضي دمشق في سنة ١٠٠٩ عبد الرحيم بن اسكندر ، الظار الباشات والقضاة

ومن الوقائع المتعلقة بهذه الحجة أن المتوالي لما أخذ الدكان التي وراء حجرته كما ذكرنا وجعلها مطبخاً شاع بين الناس أنه يريد أن يجعل هناك مرتفقاً فخدمنا موضع المرتفق فوجدوه يقع تحت المحراب المنسوب الى حضرة الإمام زين العابدين بن الحسين رضي الله عنها . فغضب لذلك نقيب الأشراف بدمشق وهو زين العابدين بن حسين بن كمال الدين بن حمزة الحسيني لمكان قربه من زين العابدين الإمام ، وغيرةً على محرابه فذهب مستشيطاً بالفيظ الى حضرة الوزير السيد محمد الإصفهاني أمير الأمراء بدمشق يومئذ ، ونادى في حضرته بصوت عالٍ : لا حول ولا قوة إلا بالله . هكذا نمان معاهد آل البيت ! أوليس الإمام زين العابدين جدي وجدك ؟ فكيف يأذن القاضي عبد الرحمن لابراهيم المتولي أن يبني مرحاضاً يرتفق به في الجامع الأموي بحجرته ، ويككون مسقطه تحت محراب الامام المذكور ؟ فغضب الوزير لذلك . غير أنه استبعده . فكتب ورقة الى القاضي يلومه على الصنع المذكور إن كان واقعاً ، وأرسل الورقة مع النقيب . وضمّ معه جاويشاً من خدمة الديوان . فلما قرأ القاضي الورقة علم أن الوشاية به كانت من النقيب . فشته وقال له : قم واكشف أنت على الموضوع فإن كان كما ذكرت أزلناه . وأمره بعد الكشف بالعود إليه . ورسم عليه ليرجع اليه . فذهب الى المكان فلم يجد شيئاً مما أنشبه الى الوزير . فسقط في يده . فرجع الى القاضي وقال له : ما صدر شيء من ذلك . فقال له : فحينئذ كيف أقدمت على الشكاية الموجبة لعظيم النكاية من غير أن تتحقق الحال ؟

ثم إن القاضي ركب وأخذ النقيب المذكور أمام فرسه ماشياً الى منزل الوزير بدار الامارة بدمشق ، وهو يشتمه ويغلظ عليه الكلام . فلما وصل الى حضرة الوزير قصصاً عليه القصة فأظهر له القاضي ما عنده من القصة وقال :

هكذا ينسب اليّ هذا الحديث ، مثل هذا الحديث ، من غير أصلٍ يُعتمدُ عليه ولا وثوقٍ^(١) يميل في أخباره اليه .

فقال الوزيرُ للنقيب : قد تهورتَ بحق عجيب . وأنت تعرف أن عند الحكّام عصاً للتأديب . ولولا شرفك لثالك من القاضي العقاب الغريب . فقم ولا تعدّ الي أمثالها . فإنك تُبلى بانكالها .

فقام النقيب إلى الفراش ، ومرض وعدم الانتعاش . الى أن حُقّ عليه الفوت ، واتصف بداء الموت .

وبلغني من كثيرٍ من ثقات الناس أنه قال لأخيه : إنّ الأجل مقدر . ولكن لكل موة سبب مقرّر . وسبب موته هدّة القاضي ، وما عاتبه من الكلام الذي لم يكن عنه بالمتعاضى . وكانت وفاة النقيب في شعبان من سنة تسعٍ بعد الألف . ودُفن بمقبرة باب الصغير . وسيأتي ذكره في حرف الزاي بعون الملك القدير .

والتواي ابراهيم المذكور كان في داخل حرم السلطان جاشنكير . ومعناه أنه يذوق الطعام الذي يُقدّم الى السلطان ليطمئن خاطره بأكله ، وهو واقفٌ أمامه بالحياصة من الذهب والطايقية من الذهب .

وحاصلُ الأمر أنه من محاسن أبناء نوحه ومن يأمنه الإنسان على نفسه وعرضه . وذلك قليل في أبناء الزمان وفقنا الله وإيتاه ، إلى ما يجبه ويرضاه . آمين . آمين .

يا خليلي عدياً عن حديث المكارم
من كفى الناس شره فهو في جود حاتم

(١) « وثوق »

فهرس تراجم الأعباء في الجزء الأول

مقدمة المحقق	من ص ٣ الى ٤٠ (١)
مقدمة المؤلف	٣ - ٦
١ - احمد الطيبي الأكبر	٧
٢ - احمد الطيبي الكبير	٩
٣ - احمد الطيبي الصغير	١٦
٤ - احمد الفلوجي	٢٥
٥ - احمد شهاب الدين الغزالي	٢٧
٦ - احمد القابوني	٣٣
٧ - احمد بن سليمان	٣٦
٨ - احمد بن حسن الجباوي	٤٠
٩ - احمد العيثاوي	٤٣
١٠ - احمد بن مفلح	٤٨
١١ - احمد الشويكي	٥١
١٢ - احمد بن الأكرم	٥٣
١٣ - احمد بن المعار	٦٠
١٤ - احمد بن قاهم المصري	٦٢
١٥ - احمد بن التينة	٦٥
١٦ - احمد بن حسن بك	٦٦
١٧ - احمد طاش كبري زاده	٧٣
١٨ - احمد جليبي بن اسكندر	٧٧

(١) أرقام مقدمة المحقق من تحت هـ وأرقام النص من فوق هـ.

م (٢٢)

ص	
٨٥	١٩ - احمد الاياشي
٩٢	١٩ - احمد العناياتي (١)
١٠٩	٢٠ - احمد المؤذن الضريف
١١٠	٢١ - احمد الكردي
١١٢	٢٢ - احمد الجوهري
١١٧	٢٣ - احمد البهنسي
١١٩	٢٤ - احمد بن عبد الهادي
١٢١	٢٥ - احمد محيطي
١٢٤	٢٦ - احمد الخالدي الصفي
١٣٣	٢٧ - احمد العجمي
١٣٧	٢٨ - احمد المصري
١٣٩	٢٩ - احمد بن شاهين
١٥٦	٣٠ - احمد خان الكيلاني
١٥٩	٣١ - احمد المكفئاني
١٦٠	٣٢ - احمد الايدوني
١٦١	٣٣ - احمد بن روح الانصاري
١٦٣	٣٤ - احمد بن المنقار
١٧٨	٣٥ - احمد بن أسد
١٨٠	٣٦ - احمد بن الملا
١٨٦	٣٧ - احمد بن قانصوه الغزالي
١٨٨	٣٨ - احمد باشا ، شمسي
١٩١	٣٩ - احمد بن رضوان
١٩٣	٤٠ - احمد المجاور

(١) تكرر الرقم ١٩ مرتين فأصبحت أرقام التراجم التالية غلطاً ويجب زيادتها واحداً

ص	
١٩٤	٤١ - احمد الصامتي
١٩٦	٤٢ - احمد شيخ زاده
١٩٨	٤٣ - احمد باشا الوزير
٢٠١	٤٤ - احمد باشا الحافظ
٢٢٠	٤٥ - احمد المنصور سلطان مرآكش
٢٢٣	٤٦ - احمد ، السلطان العثماني
٢٣٤	٤٧ - ابو يزيد ، السلطان العثماني
٢٣٩	٤٨ - ابو السعود المفسر
٢٤٥	٤٩ - ابو طالب الحسيني
٢٤٧	٥٠ - ابو قاهم السفياي
٢٤٩	٥١ - ابو الفتح المالكي
٢٥٦	٥٢ - ابو السرور البكري
٢٥٨	٥٣ - ابو المواهب البكري
٢٦٠	٥٤ - ابو الجود البتروني
٢٦٣	٥٥ - ابو اليمن البتروني
٢٦٦	٥٦ - ابو الطيب الغزي
٢٧٤	٥٧ - ابو سعيد التبريزي
٢٧٥	٥٨ - ابو بكر المغربي
٢٧٦	٥٩ - ابو بكر الصهيووني
٢٧٩	٦٠ - ابو بكر الذباح
٢٨٣	٦١ - ابو بكر الجوهري
٢٨٨	٦٢ - ابو بكر العمري
٢٩٢	٦٣ - ابو بكر السقاف

ص	
٢٩٤	٦٤ - ابو بكر الكردي العبادي
٢٩٦	٦٥ - ابو بكر المقدسي
٢٩٩	٦٦ - ابو بكر بن محمد
٣٠٠	٦٧ - ابراهيم ابن الطباخ
٣٠٤	٦٨ - ابراهيم بن الأحذب
٣٠٥	٦٩ - ابراهيم الجباوي
٣٠٧	٧٠ - ابراهيم المقدسي
٣٠٩	٧١ - ابراهيم الطالوي
٣١٤	٧٢ - ابراهيم المنجكي
٣١٧	٧٣ - ابراهيم بن الجراح
٣١٩	٧٤ - ابراهيم باشا الشهير بجاجي
٣٢١	٧٥ - ابراهيم باشا الشهير بدالي
٣٢٣	٧٦ - ابراهيم باشا
٣٢٦	٧٧ - ابراهيم آغا جاشنكير

اشدراك

وقعت أخطاء مطبعية نصحتها فيما يلي :

ص ١٣ مقدمة ،	س ١١	سكنت في أهلي	سكنت في بيت أهلي
ص ١٥ «	س ١٣	ذبوع	ذبوع
ص ٤ من الاصل،	س ٢	سقطت من الهامش الحاشية المتعلقة بابن شداد . فأضف ما يلي : « التف ابن شداد (يوسف بن رافع) سيرة صلاح الدين توفى سنة ٦٣٢ هـ . انظر وفيات الأعيان ٨١/٦ .	
ص ٥ ،	س ١	اتفق	اتفق
ص ٥ ،	س ٢٤	داعيت	راعت
ص ٩ ،	س ١٠	الكفر سوسي	الكفر سوسي
ص ٩ ،	س ١٦	توتلى	توتلى
ص ١٠ ،	س ١١	مرتبة	مرتبة
ص ١٢ ،	س ١٢	ينظم	ينظم
ص ١٢ ،	س ٢٠	اسكان ثانية	إسكان ثانياه
ص ١٣ ،	س ٩	دعاءه	وعاءه
ص ١٣ ،	س ١٨	القرية	القربة
ص ١٤ ،	س ٢٣	دات	ذات

الاستفتاء	الاستفتاء	ص ١٧ ، س ٧
الجماح	الجماح	ص ٢٠ ، س ١٢
مدات	مرات	ص ٢٣ ، س ١٠
لا تبدأ	لا تبدأ	ص ٢٣ ، س ١٧
فطور	فطور	ص ٢٩ ، س ٨
حسن	حسين	ص ٤٠ ، س ١
المحيي	المحيي	ص ٤٣ ، س ١٧
الرجيحي	الرجيحي	ص ٤٩ ، س ١٧
٤	٣	ص ٥٢ الحاشية الأخيرة
مقايسة	مقايسة	ص ٦٢ ، س ١٢
الأوب	الأدب	ص ٦٧ ، س ١٧
كل	في كل	ص ٦٩ ، س ٧
كفي	كفي	ص ٧١ ، س ٣
الزلل	الذلل	ص ٨٢ ، س ١٥
يُجعل ٢٠ وتصحح بعد ذلك أرقام الترجمات الآتية	الرقم ١٩	ص ٩٢ ،
قد	قد	ص ٩٩ ، س ٥
يُقال له القاضي	يُقال القاضي	ص ١٢٤ ، س ١١
يشبهه	يشبهه	ص ١٣٢ ، س ٨
المصري	المصري	ص ١٣٧ ، س ١
الرفيق	الرفيق	ص ١٣٧ ، س ٨
تغنياً	تغنياً	ص ١٤٥ ، س ٧
العبارة	العبادة	ص ١٤٧ ، س ٤
لو	لو	ص ١٤٨ ، س ٢

أنفك	أنفك	ص ١٥٤ ، س ٣
عرض لي	عرض له	ص ١٦١ ، س ١٣
قضاة	قضاة	ص ١٦٨ ، س ١٤
ضمناً	ضمناً	ص ١٧٣ ، س ٨
النمنا	الذم	ص ١٧٥ ، س ٣
حتماً	حتم	ص ١٧٧ ، س ٣
سيئ	سيء	ص ١٧٩ ، س ١١
سيوفهم	سوقهم	ص ٢١٣ ، س ١
الطغاة	الطغاه	ص ٢١٣ ، س ٢
بالكفر	بالكفر	ص ٢١٣ ، س ٧
المواقف	المواقب	ص ٢١٣ ، س ٨
خنازير	خنازير	ص ٢١٣ ، س ٩
لطاغيتهم	لطاغيتهم	ص ٢١٣ ، س ١٠
الكبير	الكبير	ص ٢١٣ ، س ١١
الجود	الجرد	ص ٢١٣ ، س ١١
اسلافاً	اسلاباً	ص ٢١٣ ، س ١٦
المناسبة	المناسبة المناسبة	ص ٢١٧ ، س ١٧
المدكور	المدكور	ص ٢٢١ ، س ٣
شوكته	شوكه	ص ٢٢١ ، س ١٦
الخاقان	الخاقان	ص ٢٢٣ ، س ١٧
وزياده	وزده	ص ٢٢٤ ، س ٧
داخل	داحل	ص ٢٢٤ ، س ١٠
هبة	هبة	ص ٢٢٤ ، س ١٨
تحالفا	تحالفا	ص ٢٢٥ ، س ٢٤

أبو يزيد	أبو زيد	ص ۲۳۴ ، س ۱
أنسها	انها	ص ۲۳۸ ، س ۱۰
قوانين	قوانين	ص ۲۴۲ ، س ۴
سائر	سائر	ص ۲۴۵ ، س ۱۷
المشروح	الشروح	ص ۲۷۲ ، س ۶۵
ابي الوفا	ابو الوفا	ص ۲۷۴ ، س ۱۵
تنوح	نوح	ص ۲۸۵ ، س ۱۵
عند	عند	ص ۲۸۵ ، س ۱۶
فأطعت	فاصعت	ص ۲۹۰ ، س ۱۳
أنهني	انهني	ص ۲۹۰ ، س ۶۵
منتظم	منتظم	ص ۲۹۱ ، س ۱۴
لهؤلف	لهؤلف	ص ۳۰۲ ، س ۹
في عد	في عد	ص ۳۰۳ ، س ۲
لم يعط	لم يعط	ص ۳۱۰ ، س ۱۴
أذربيجان	أذربيجان	ص ۳۲۰ ، س ۲۰

